

قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ

الْقِصَصُ الْحَقُّ

تأليف

عبد القادر بن شيبان بن محمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة سابقاً وال مدرس بالمسجد النبوي الشريف

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الرشيد
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَقْبَلُ

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يُوزَعُ مَجَّاناً وَأَوْلَايَا ع

ح عبد القادر شيبية الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبية الحمد، عبد القادر
قصص الأنبياء: القصص الحق/عبد القادر شيبية الحمد-ط.٤-
الرياض، ١٤٣٢هـ
٢٠٠ ص ٢٤ سم
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- قصص الأنبياء ٢- قصص القرآن أ.العنوان

ديوي ٢٢٩،٥ ١٤٣٢/٦١٥٧
رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦١٥٧
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الرابعة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

قِصَّةُ رُؤْيَا نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ

الْقِصَّةُ الْجَدِيدَةُ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ

عُضُوهُ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بِمَقْشَرِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا

بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَاقَا

وَالْمَدْرَسَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على محمد خاتم النبيين، وقائد العرّ المحجلين، ورسول رب العالمين، النبي الأمي الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم وترسّم خطاهم ونهَجَ مناهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتاب قصص الأنبياء «القصص الحق» في طبعته الأولى منفرداً عن القصص الحق في سيرة سيد الخلق محمد ﷺ، وهو بحمد الله صورة مشرقة للقصص الحق، قد جردته بفضل الله وتوفيقه مما أُلْحِقَ بقصص الأنبياء من الأباطيل وردئ الأفاويل التي اعتمد مُرَوِّجُوهَا على الأخبار الكاذبة عن بني إسرائيل، أو الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي لا تحل روايتها إلا ببيان وَصْفِهَا عند المحدثين، حيث إنه مما أطبق عليه علماء السلف من أهل السُنَّةِ والجماعة أنه لا يجوز لأحد أن يقول على الله بغير علم، وأن ينسب إلى الله شيئاً بغير الحق، وأنه لا يُوصَفُ الله ﷻ إلا بما وَصَفَ به نفسه في كتابه الكريم، أو وَصَفَهُ به رسوله محمد ﷺ شيخ المرسلين، بما ثبت من صحيح الأخبار عنه ﷺ التي خلت من العلة والشذوذ. كما أنه لا يجوز أن يوصف أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلا بما صحت به الأخبار. وقد اعتمد أهل السنة والجماعة في ذلك على الأدلة اليقينية حيث يقول ﷻ: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ووصفه المنذري في الترغيب والترهيب بأنه بلغ مبلغ التواتر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، كما روى مسلم من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حدثت عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وقد انفرد أهل السنة والجماعة بأنهم إذا سئلوا عن مسألة تتعلق بالله أو برسوله ﷺ رجعوا في الجواب إلى آية من كتاب الله، أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم من أهل الأهواء الذين لا يستندون في عقائدهم أو حتى فروع فقههم إلا على أقوال مرسلة، لا يكادون يستدلون بآية من كتاب الله أو بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

وعلى هذا؛ فالواجب على كل من ينتمي إلى العلم أن يلتزم بهذا الأصل، فلا يقول على الله إلا بعلم، كما لا يقول على أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إلا بعلم.

وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

حُرر في ٢٥/١/١٤١٩ هـ

المؤلف

عبد القادر شيبية الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فقد عني القرآن العظيم عناية فائقة بقصص الأنبياء، وحدد في أكثر من موضع من الكتاب الكريم أهداف هذا القصص، حيث يقول: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وكما قال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لقد أورد القرآن الكريم القصة - ولا سيما قصص الأنبياء والمرسلين - في ألوان شتى، فيوردها أحياناً على سبيل الإطناب إن كان المقام للإطناب، وعلى سبيل المساواة إن كان المقام للمساواة، وعلى سبيل الإيجاز إن المقام للإيجاز، وقد يورد القصة في سورة كاملة كسورة يوسف عليه السلام في قصة يوسف، وقد يورد القصة مطولة وهي لرسول واحد كموسى عليه السلام، يوردها في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سور شتى من القرآن العظيم على أشكال متفاوتة؛ لكل مقام منها مقاله الذي يناسبه، لقد أشار إلى صحف موسى وإبراهيم في آية واحدة عندما ذكر آلاءه على خلقه، ووجوب تسبيحه وتقديسه وحده، فقال عز وجل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَفَرْتِكَ فَلَا تُنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَيُخَوِّفُ لِّلِيسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكَّرْ إِنْ نَعَمْتَ الذُّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرْهُ مَن يَخْتَارُ ﴿١٠﴾ وَبَنَجْنَهَا الْأَسْفَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَرَكَى ﴿١٤﴾

وَدَكَرَ أَسَدَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبَقِيَ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١ - ١٩]﴾، وفي سورة النجم يشير إلى قصة موسى وإبراهيم نفسيهما فيقول: ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزُرُ وَرِزْرَةً وَرَزْرَةً أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْرَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا مِمَّا أَبَقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿[النجم: ٣٦ - ٥٦]﴾. يورد القصة على حسب المقام.

وأنت إذا لاحظت تجد أن القصة في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ تشتمل على أرقى درجات البلاغة وأعلى أساليب البيان؛ من العبرة والدقة والصدق، والوفاء بالمطلوب ووضوح القصد، لما أشار الله ﷻ وذكره من ثمار هذه القصة من التأسي بالأنبياء والمرسلين؛ فإن قصص الأنبياء إنما تُذكر للتأسي والابتداء بهم، والابتعاد عن محاذيرهم، والوقوف معهم، وتعزيزهم وتأييدهم، ونصرتهم، فإن هذا هو المقصود من ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

ولكن الواقع أن هذا الطريق في ذكر قصص الأنبياء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ امتدت إليه اليد اليهودية، وحاولت تشويهه بكل ما تطيق، وهذا دأب اليهود؛ فقد حَرَّفوا دين عيسى ﷺ على يد شاؤول اليهودي، وقال شاؤول للنصارى: «أنا أحدثكم عن يسوع - وهذا بعد رفع المسيح بقليل - ولا يجوز لكم أن تسمعوا شيئاً من التعاليم المسيحية إلا عن طريقي» فأفسد دين المسيحيين، وجاء بدين لا يعرفه المسيح عيسى ﷺ، ولا يعرفه الحواريون، ولذلك أَلَّفَ برنابا إنجيله من أجل تكذيب شاؤول، إذ يقول برنابا في مقدمة إنجيله: «أيها الأعزاء! إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى

التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً. مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى. وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته». أهـ.

وسيجيء مزيد تحقيق لذلك في قصة المسيح ﷺ إن شاء الله تعالى. فقد أفسد شاؤول دين المسيح ﷺ، وادعى أن المسيح ابن الله!

كما حاول عبد الله بن سبأ اليهودي الصنعاني أن يفسد دين الإسلام، وأخذ يتربص ويبحث عن قوم يكونون حديثي عهد بدين ممن يسكنون المدينة من الأعاجم وغيرهم، أو ممن في قلوبهم مرض على الإسلام وأهله، وأخذ يدس عليهم تعاليم ضد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويفتري على كتاب الله، وعلى رسول الله ﷺ؛ إذ أخذ يذيع بين من انضم إليه من عصاة الشيطان أن محمداً ﷺ سيعود إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ويقول لأصحابه: كيف تصدقون أن عيسى يعود قبل يوم القيامة، ولا تصدقون أن محمداً يعود مع أن محمداً أفضل من عيسى، وأن في القرآن ما يؤكد رجعة محمد إلى الدنيا، إذ يقول الله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الفصص: ٨٥]، وحمل هذا اليهودي الآية على غير ما أريد بها، وحاول تحريف الكلم عن مواضعه كما هو دأب اليهود وشأنهم، وقد استمر هذا الدس ومحاوله تشويه شريعة الإسلام من عبد الله بن سبأ اليهودي، حتى استطاع هو وعصابته أن يقتلوا الخليفة الراشد ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم أوحى إلى بعض تلاميذه أن علياً هو إله السموات والأرض، وأمرهم أن يقفوا عند باب مسجد الكوفة، فإذا رأوا علياً رضي الله عنه قالوا له: أنت هو! وقال لهم عبد الله بن سبأ: إذا سألكم عليّ وقال لكم: من هو؟ فقولوا له: أنت الله، فلما فعلوا ذلك أمر علي رضي الله عنه بأن تحفر لهم عند باب المسجد حفرتان، وتملآن بالنار، ثم يطرح فيها هؤلاء، ولما أخذ أتباع علي رضي الله عنه في إلقاء هؤلاء في النار كانوا يصرخون ويقولون: أيقنا أنك الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله، وقد حاول عليّ إلقاء ابن سبأ في النار مع هؤلاء غير أن بعض

خاصته أشاروا عليه ﷺ أن ينفيه فنفاه إلى سباط المدائن، ولما جاءه الخبر - كما ذكر الشعبي عنه - بأن علياً ﷺ قتلته عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي قال ابن سبأ: والله ما قُتل علي ولا ذاق طعم الموت، وأن الذي قتلته ابن ملجم هو شيطان تصور في صورة علي، أما علي فقد صعد إلى السماء يمشي فوق السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه.

لكن بحمد الله ومنتته قد جرد الله تعالى من أئمة الدين وحماة الشريعة ودعاة الإسلام في كل عصر وفي كل مصر من يكشف زيف هؤلاء المنحرفين، ويرد عليهم مطاعنهم.

وإني أذكر من عهد بعيد يزيد على أربعين سنة أني وقفت على كتيب بعنوان: الحب. يقول فيه كاتبه: أليس الحب هو الذي حرك قلب النبي محمد ﷺ إلى زينب بنت جحش حينما رأى ساقها الدقيق تحت ثوبها الرقيق كما يرويه بعض المستشرقين. فلما قرأتها سارعت إلى تفسير ابن جرير، وإذا به مع الأسف يذكر نحو ما في هذه القصة الباطلة المختلفة المكذوبة على رسول الله ﷺ دون أن يعلق عليها بشيء، فيقول: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: كان النبي ﷺ قد زوّج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريده، وعلى الباب سترة من شعر، فرفعت الريح الستر، فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله! إنني أريد فراق صاحبتي. قال: ما لك أرابك منها شيء؟ قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيراً. فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك إن فارقتها تزوجتها. ١.هـ.

وهذا كذب وافتراء على حبيب الله ورسوله وأكمل خلقه وأفضلهم

إن القرآن العظيم ينص على العلة في زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، ويسوق في سورة الأحزاب عندما يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَم قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤٥﴾﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥].

وأصل القصة أن الجاهليين كانوا إذا تبناوا شخصاً جعلوه كولد الصلب، فلا يتزوج من تبناه امرأة هذا الولد المتبنى إذا طلقها، وأراد الله أن يبطل هذه القاعدة الجائرة الظالمة؛ لأنها لا حقيقة لها. وكان زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي قد خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من طيء لتزيره أهلها، فأصابتها خيل من بني القين، فباعوه بسوق حباشة - وهو سوق من أسواق العرب - وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام، وقد اشتراه حكيم بن حزام بن خويلد من الشام، ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً، وبكى عليه كثيراً حين فقده، فهو يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
فوالله لا أدري وإني لسائل
أحيي فيرجى أم أتى دونه الأجل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
ثم يقول فيها:

تذكرينه الشمس عند طلوعها
سأعمل نص العيس في الأرض جاهاً
وتعرض ذكرها إذا غربها أفل
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي
فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل

وقد أخبر أبوه بأن زيداً عند محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة، فقدم هو وأخوه إلى مكة، وجاء إلى بيت رسول الله ﷺ وذلك قبل البعثة النبوية، فسألا رسول الله ﷺ أن يعطيها زيداً، فقال له رسول الله ﷺ: يا زيد، هذا أبوك وهذا عمك، إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق معهما، فنظر زيد

إلى وجه رسول الله ﷺ مرة ونظر إلى وجه أبيه ووجه عمه مرة أخرى، ثم قال: بل أقيم عندك، ولا أختار عليك أحداً أبداً، فأخذه رسول الله ﷺ إلى الملاء من قريش، وقال: يا معشر قريش، أشهدكم أن زيدا ابني يرثني وأرثه.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني

ذكرت في الفصل السابق سبب تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، وكان التبني في الجاهلية يُنزل الابن المتبني بمنزلة الابن من الصلب، فجميع ما يحرمه الجاهليون حول الابن من الصلب يحرمونه للابن المتبني، ولما أراد الله تبارك وتعالى إبطال عادة قبيحة من عادات أهل الجاهلية - وهي أنهم كانوا إذا تزوج الابن المتبني زوجة ثم طلقها لا يحل للذي تبناه أن يتزوجها - فلما أراد الله أن يبطل هذا العادة ولم يكن أحد يتحمل ذلك إلا رسول الله ﷺ أمر الله رسوله ﷺ أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمته من زيد مولاة فرفضت وقالت: لا أتزوج من مولى، ورفض أخوها كذلك أن يتم هذا الزواج، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] فرضيت زينب بنت جحش بأمر الله وأمر رسوله، ورضي أخوها بأمر الله وأمر رسوله كذلك. وتزوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ﷺ، وكانت تحس في قلبها بأنه دونها، فكانت تناله أحياناً بما يكره من القول، حيث تقول له: تزوجتك وأنت مولى، فيأتي زيد بن حارثة إلى رسول الله ﷺ ويشكو زينب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ورسول الله ﷺ يعلم أن ما ألقاه الله في قلب زينب نحو زيد هو تمهيد للفراق بينهما، ليطم ما قضاه الله ﷻ من أن يتزوج رسول الله ﷺ من زينب؛ حتى تبطل عادة الجاهلية في تحريم نكاح زوجة الابن المتبني إذا فارقتها، فلما قضى زيد منها وطراً طلقها زيد بن حارثة للعلة التي ذكرها الله ﷻ حيث قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا

مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٣٧ - ٤٠].

وقد أخذ المغرضون والخرافيون والحاقدون والمرجفون هذه القصة الجميلة الممتلئة بالحكمة والتشريع والخير للإنسانية ووضع الأمور في نصابها الحقيقي والقضاء على خرافات أهل الجاهلية، ففسد هؤلاء الحاقدون على رسول الله ﷺ قصة رفع الريح طرف الخباء عن زينب وهي تحت زيد بن حارثة، وإعجاب النبي ﷺ بها، وإخبار زيد رسول الله ﷺ أنه يريد فراقها ليتزوجها رسول الله ﷺ ما دام قد أحبها، إذ تدس هذه الأباطيل أن رسول الله ﷺ لما رأى ساقها وأعجب بها قال: سبحان مقلب القلوب. وأيقنت زينب أن رسول الله ﷺ ما قال هذه الكلمة إلا للدلالة على أنه أحبها ووقعت في قلبه لما رأى ساقها، برأه الله مما قالوا وعصمه مما زعموا، لقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا العلة المنصوصة لزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وأن المقصود منها إبطال خرافات الجاهليين ووضع الأمور في نصابها، وأن التبني لا يمكن أن يجعل المتبني ولدًا من الصلب أو كولد الصلب، فإن الإنسان إذا كتب على كيس السكر هذا ملح لا يمكن أن يصير السكر ملحاً بهذه الكتابة، ولو كتب على كيس الملح هذا سكر لا يمكن أن يصير الملح سكرًا حلوًا بهذه الكتابة؛ فالعناوين التي لا تطابق الواقع لا قيمة لها ولا تغير من الحقيقة شيئاً.

فلما أراد الله أن يبطل هذه العادة الجاهلية الكاذبة أمر رسوله محمداً ﷺ أن يزوج زيد بن حارثة مولاه من زينب بنت جحش، وقد مهّد لذلك في مقامات من سورة الأحزاب، حيث يقول في مطلعها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقد لفت الانتباه في هذا المقام حيث أكد هذه الحقيقة إذ يقول: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الأحزاب: ٤ - ٥﴾ كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق.

وأشار إلى قصة إرغام زينب على التزوج من زيد وما كان بينهما حيث يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ زَوْجَانِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿الأحزاب: ٣٦ - ٣٧﴾ ومعنى أنعم الله عليه يعني بالإسلام، وأنعمت عليه أي بالحرية، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ هو من مقالة رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة يوصيه بالصبر على أذى زوجته له، ومخافة الله فيها. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتكتن في نفسك ما علمت أنه كائن لا محالة من أن زيدا يطلق زينب ليتزوجها رسول الله ﷺ للقضاء على عادات أهل الجاهلية. وقوله: ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، هو ترغيب لرسول الله ﷺ في الإقبال على الزواج من زينب بنت جحش، وأن يزيل من خاطره كل ما قد يمر به مما يخاف أن يتحدث به الجاهليون بأن محمداً تزوج زوجة ابنه بعد أن فارقتها ابنه.

وقد حرّف المبطلون الكَلِمَ عن مواضعه وقالوا في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: حب زينب، ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني من حبها، وتخشى الناس في حبها. حاشا لرسول الله ﷺ ولمن دونه من المؤمنين أن يرضى بذلك أو أن يفعله. وقد سقت هذه القصة لأبين كيف استطاع اليهود ومن ينحو نحوهم أن يدخلوا على قصص الأنبياء والمرسلين الشيء الكثير من الكذب والباطل والافتراء، كما افتروا على داود وغيره من الأنبياء، وذلك بناءً على مذاهب لهم، فاليهود لا يتورعون عن وصف الله ورسوله بكل شر ونقص، ففي الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة التي حرفوها بأيديهم في الفقرة السادسة والعشرين «٢٦» وقال الله: نعمل

الإنسان على صورتنا كسبها. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَدٌ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ثم يزعمون أن الله تعب لما خلق السموات والأرض في ستة أيام فاستراح في اليوم السابع يوم السبت، فيقول في الإصحاح الثاني من سفر التكوين في الفقرة الأولى والثانية والثالثة منه: فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقده؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ فالله لا يتعب، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولذلك جاء في الرد عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: وما أصابنا تعب في هذا الخلق؛ لأنه سهل علينا يسير، وقد قامت الأدلة العقلية والبراهين النقلية القطعية على أن الله منزه عن اللغوب والتعب. وكما يعتقد اليهود أن الله يلحقه الحزن والندم على ما فات؛ ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين في الفقرة الخامسة والسادسة منه: ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. وهذا المعتقد الفاسد اليهودي في ذات الله يبين أن اليهود يعتقدون أن الله لم يحط علمه بالمخلوقات قبل وجودها؛ ولذلك أدى بهم هذا إلى القول بالبداءة على الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكذلك يعتقد اليهود أن الأنبياء غير معصومين من الخطايا والذنوب، بل جوزوا عليهم أن يرتكبوا المنكرات كالزنا وشرب الخمر وسلب النساء من أزواجهن، وأنهم كانوا يقبحون في عين الرب. فقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر التكوين في الفقرات من (٢٠) إلى (٢٥) ما نصه: وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان

عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام وياث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته.

وكما وصفوا نوحاً بالسكر رموا لوطاً بالسكر وبالزنا بابنتيه، ففي الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين في الفقرة الثلاثين إلى الفقرة السادسة والثلاثين ما نصه: وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحبي من أيينا نسلأ؛ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

وكما افترى اليهود على داود عليه السلام فرموه بالزنا وسلب النساء من أزواجهن واتهام أم سليمان عليها السلام بالزنا، ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني ما نصه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريريه وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها. وبعد أن يسوق سفر صموئيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل بعد ذلك يقول السفر: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً. وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب.

وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني يذكر قصة رجل فقير له نعجة واحدة صغيرة، ورجل غني له غنم وبقر كثيرة جداً؛ فجاء ضيف إلى الرجل الغني فلم يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير، ثم يتابع السُّفْرُ سرد معاتبه الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت بشيخ به، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها، فتحمل وتلد ولداً اسمه سليمان.

وبهذه النصوص نعرف مقدار أنبياء بني إسرائيل في نفوس اليهود، وإن تعجب فعجب أن يجيء بعض المفسرين ويأخذ هذه القصة المكذوبة المختلفة على داود ﷺ. ويفسر بها قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتِكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ يُبغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢١ - ٢٤]. ففسرها هؤلاء بأن داود أخذ امرأة أوريا وتسبب في قتله، أو أن هذا كان جائزاً عندهم، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا امرأة واحدة، وأن الله أرسل له ملكين في صورة خصمين لتوبيخه على خطئه، فضربا له مثلاً بذي النعجة وذو النعاج الكثيرة إلخ. وهذا كذب واختلاق. ويفسرون النعجة في الآية بالمرأة، مع أن العرب لا يطلقون اسم النعجة إلا على أنثى الضأن أو بقر الوحش. وبقر الوحش غير أليف، وأنثى الضأن لا ترضى المرأة أن تشبه بها.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث

أشرت في الفصل السابق إلى ما يعتقدّه اليهود في أنبيائهم ورسولهم، فهم يرمونهم بالزنا والسرقة وشرب الخمر وارتكاب جميع الموبقات، وقد تسربت هذه العقائد اليهودية إلى قصص الأنبياء عند تفسيرها في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ، وقد أشرت إلى ما رموا به نوحاً ولوطاً وداود، كيف افتري عليهم اليهود بما هو مسطر في كتب العهد القديم من التوراة وسفر صموئيل الثاني. كما افتروا على سليمان ﷺ فزعموا أنه كان يحكم بواسطة الخاتم، وأنه دخل مرة بيت الخلاء وسلّم الخاتم لزوجته فخرج الشيطان من بيت الخلاء في صورة سليمان ﷺ وأخذ الخاتم من زوجة سليمان، وجلس على كرسي الملك وتسلط على بني إسرائيل، وصار يدخل على نساء سليمان في الطهر والطمث، وأن سليمان عندما خرج من بيت الخلاء وقال لزوجته: هات الخاتم، قالت: لقد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان. قالت: لست سليمان وأنكره الناس فهام على وجهه، واشتغل عند صياد في البحر، وكان الصياد يعطيه أجرته كل يوم سمكتين، فيشوي سمكة ويبيع السمكة الأخرى ليشتري بثمنها خبزاً، واستمر سليمان على هذا الحال أربعين يوماً، وعندما ضجر الناس من حكم الشيطان الجالس على كرسي سليمان طار الشيطان من الكرسي وألقى الخاتم في البحر فابتلعت سمكة. وكان من حظ سليمان أن هذه السمكة وقعت في شبك الصياد الذي يعمل عنده سليمان، وأنه أعطاها له مع سمكة أخرى، وأن سليمان باع إحدى السمكتين على عادته وطبخ السمكة الأخرى، وكانت هي التي ابتلعت الخاتم، فلما شق بطنها إذا بها الخاتم، فأخذه وعاد إليه المُلِك بلبسه الخاتم، وقد أخذ كثير من المفسرين - للأسف - هذه القصة اليهودية ففسروا بها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] فيقولون: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى

كُرْسِيِّهِ جَسَدًا أَي: شيطاناً، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَي: رجع سليمان إلى ملكه. وهذا كذب على الله وعلى سليمان ﷺ؛ بل قد فسر هذه الآية رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم بأن سليمان حلف ليطوفن على مئة من نساته أو تسعين أو سبعين، فتحبل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، وأنه لو قال: إن شاء الله، لأتى بهم فرساناً أجمعين. والشق المذكور في الحديث هو الجسد الذي ألقى على كرسيه، فهذا التفسير لرسول الله ﷺ الوارد في البخاري ومسلم يتركه الكثير من المفسرين ويذكرون هذه القصة الإسرائيلية التي أثرت كثيراً في نفوس كثير من المسلمين؛ حتى صاروا يعتقدون أن سليمان كان ملكه في خاتمه، ولا يزالون يذكرون خاتم سليمان، ويضربون به الأمثال، ويتعلق به الكثير من السحرة والمشعوذين والدجالين ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]، وسيأتي مزيد تحقيق لذلك إن شاء الله تعالى عند قصة داود وسليمان ﷺ.

ونحن نسوق بين يدي قصص الأنبياء أموراً لا بد وأن يعرفها المسلمون؛ لأنها من صلب عقائدهم، فلا بد من تعريف النبي وتعريف الرسول وطبيعة النبي وطبيعة الرسول وحاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأعظم وظائف الأنبياء والمرسلين، وما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز عليهم، وكذلك النبوات السابقة وتتابع النبوات.

❁ تعريف النبي والرسول:

ونبدأ بتعريف النبي والرسول؛ فالنبي في اللغة قيل: هو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر العظيم، وقيل: من النبوة بسكون الباء، أو النباوة، وهي المكان المرتفع، ولا مانع أن يكون المعنيان جميعاً قد لوحظا في هذا الوضع اللغوي، فالنبي آت بالخبر العظيم عن الله، وهو كذلك رفيع القدر عند الله وعند المؤمنين، وهو كذلك يكون من أشرف قومه، ولذلك جاء في حديث هرقل: «وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها».

والرسول في اللغة هو: المبعوث بالرسالة والموجه لغيره، أما في الاصطلاح: فالنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها، أو بعثه لتقرير شريعة سابقة، والرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، والنبي أعم مطلقاً. وقيل: النبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. وهذا تعريف عجيب، فإن الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على أهل العلم ألا يكتموا. وعاب أولئك الذين يكتمون العلم، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّنًا قَلِيلًا فَنَسُوا مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، على أن الله تبارك وتعالى يبين وظيفة أنبياء بني إسرائيل إذ يقول في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] وكذلك يقول: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُفْتَلِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وكما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين. فسمعتة يحدث عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي»، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] يدل على أن كل نبي وكل رسول تلا على قومه أو اشتهى هداية قومه، فليست إذن وظيفة النبي قاصرة على نفسه منعزلة عن قومه، لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ولا يبلغ قومه الهداية والخير، وعلى التعريف الذي اخترته، فإن الفرق بين النبي والرسول هو: أن الرسول من يأتي بجديد من الشرع، والنبي الذي ليس برسول، هو: من يأتي لتقرير شريعة سابقة، فإذا كان في رسالة المبعوث شيء جديد من الأحكام؛ فإنه يكون نبياً رسولاً، وإذا كان قاصراً على تقرير الشريعة السابقة وبيان أحكامها، ويأتيه الوحي بذلك؛ فإنه يكون نبياً وليس برسول.

وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله طينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولي العزم، واختار من أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمداً ﷺ. وقد جرت العادة أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويقول في سورة النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وطبيعة الأنبياء كطبيعة البشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وقد تكون لهم الأزواج والذرية على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وقد حماهم الله تعالى من كل سوء، وعصمهم من كل سيئة، ورباهم على عينه، واصطنعهم لنفسه على حد قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِصْنَعِ عَلِيٍّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وهداهم إلى أحسن سيرة، وجبلهم على أحسن سلوك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ لما زار بني النجار مع أمه وسنه حوالي ست سنوات رأى غلمان بني النجار يسبحون في بئر عدي بن النجار، فأراد أن يسبح معهم، وعندما حاول نزع ثوبه أحس بيد قوية تمسك عليه ثوبه، ولاكم يلكمه، وسمع صوتاً يقول: لا تتجرد من ثيابك لست كهؤلاء الصبيان.

كما أثر أن رسول الله ﷺ كان ينقل الحجارة مع عمه العباس من أجياد قبل البعثة النبوية عند بنيان الكعبة، وكان الحر شديداً، وكانت الحجارة تكاد تطبخ اللحم من شدة حرها، وليس على عاتق الرسول ﷺ شيء يقيه حر الحجارة، وليس عليه إلا إزاره، فرحمه عمه العباس وقال: يا ابن أخي، لو أخذت إزارك فجعلته على عاتقك يقيه حر الحجارة، فلما رفض رسول الله ﷺ ذلك حتى لا تنكشف عورته، جذب عمه العباس إزار رسول الله ﷺ ليضعه على عاتقه، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه وهو يقول: «إزاري إزاري فإني قد نهيت

عن التجرد»، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره. فهذه القصة تثبت أن الله تعالى ربّي النبي محمداً ﷺ على عينه، كما ربي إخوانه الأنبياء من قبل، والأنبياء بشر، لكنهم خير البشر، وأفضل البشر، وأطيب البشر، فالله يحميهم من كل سوء، يحميهم من الزنا، ومن السرقة، ومن شرب الخمر، ومن أكل الربا. وما دمنا نعلم أن الله قد عصم أنبياءه من الذنوب، وحماهم من المعاصي؛ فإننا نعلم أن كل ما يسوقه القصّاص من الأخبار الإسرائيلية عن الأنبياء والمرسلين من نسبتهم إلى جريمة من الجرائم، أو فاحشة من الفواحش، أو معصية من المعاصي؛ فإنها دسيسة من الدسائس التي يحاول بها اليهود الإساءة إلى أنبياء الله ورسله، ويجب على كل من آمن بالله وصدّق المرسلين أن ينزههم عنها وأن يبرئهم منها، أما حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين فهي أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع

حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين

أشرت في الفصل السابق إلى حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأن حاجتهم إلى النبوة والرسالة أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الإنسان مدني بالطبع كما يقرر علماء الاجتماع، ومعنى كونه مدنياً بطبعه أنه لا يستغني عن الناس ولا يستغني الناس عنه، فهو محتاج إلى الناس؛ لأن الله خلقه على طبيعة وجبلة لا يتمكن معها من سد حاجاته بنفسه، فهو يحتاج إلى الطعام، والخبزة التي يأكلها لا يمكن أن يعملها بنفسه فلا بد فيها من الحب، والحبوب تحتاج إلى مقدمات كثيرة، فهي تحتاج إلى حرث الأرض، والحرث يحتاج إلى محراث، والمحراث لا بد له من نجار وحداد، كما أنها لا تصل إليه إلا بعد ري وزراعة وحصاد ودياس وطحان وعجان، وكل هذه لا تكفي فيها يد إنسان واحد بل قد صار لكل واحدة منها فئة من الناس يحترفونها، وكذلك لا يستغني الإنسان عن ملابس يلبسها، وهي لا تصل إليه إلا بعد أن يحترف فيها خلق كثير لجلب المادة الخام ونسجها وصناعتها وخياطتها إلى غير ذلك، ولكل واحد منها آلات تحتاج إلى عمل أيد كثيرة، والإنسان في حاجاته لا يقف عند حد، فلو ترك الناس لأنفسهم لسلب القوي الضعيف، والغني الفقير، والعزيز الذليل، ولصاروا كحيوانات الغابات، بل قد تكون حيوانات الغابات خيراً منهم؛ لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقه، ولما كانت البشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسان لمؤثرات بيئية ونفسية تؤثر بالضرورة على معارفه، وما يراه هذا حسناً قد يراه الآخر قبيحاً على حد قول الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ولما كانت الأنظمة الوضعية التي يضعها الناس لا بقاء لها ولا دوام ولا

شمول اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يضع للإنسانية النظام الذي يكفل سعادة البشر في العاجلة والآجلة. وهو العليم الخبير بخلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فهو الذي يضع لهم التشريعات، ويبين لهم الأحكام، ويبعث بها رسله، وينزل بها كتبه؛ فالناس في أمس الحاجة إلى النبيين والمرسلين.

ولما اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يجعل أول إنسان - وهو آدم أبو البشر - نبياً، وأعطاه الشريعة التي يسير على منهاجها هو وبنوه على قدر حاجتهم حينذاك في عباداتهم ومعاملاتهم. ثم تتوالى النبوات ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فتتابعت النبوات من آدم إلى أن ختمهم الله بحبيبه ورسوله وخير خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سلسلة الأنبياء والمرسلين كانت متتابعة حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] متتابعة.

ولو قال قائل: إن قريشاً أقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِسْحَاقِ الْأَيْمَنِ﴾ [فاطر: ٤٢] يعني اليهود والنصارى، فلما جاءهم أعظم المنذرين محمد ﷺ: ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وهو يشعر أن جزيرة العرب قد دخلت من المنذرين قبل محمد ﷺ.

فالجواب: أن قريشاً يريدون نذيراً جديداً؛ لأن جزيرة العرب لم تخل من ذكر دين إبراهيم وإسماعيل. وقد استمرت الجزيرة العربية على دين إسماعيل وأبيه إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي بأصنام من الشام ونصبها في جزيرة العرب، فدخل أهل الجزيرة في الوثنية، حتى جاءهم شيخ المنذرين محمد ﷺ فدالت دولة الأصنام.

هذا وبعض الناس يذكر عدداً معيناً للأنبياء والمرسلين، والواقع أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين، وإنما ذكر القرآن العظيم خمسة وعشرين منهم، جمع ثمانية عشر منهم في مقام واحد من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
 وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُضَلِّحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا
 وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦]، فهؤلاء الثمانية عشر رسولاً
 ذكرهم الله تعالى في مقام واحد من سورة الأنعام، وذكر في مواضع أخرى من
 القرآن الكريم اسم سبعة منهم، جمعهم بعض الشعراء في قوله:

في تلك حجتنا منهما ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
 إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى كثرة الأنبياء، وأن منهم من قص خبره على
 رسول الله ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه، حيث يقول ﷻ في سورة غافر:
 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾
 [غافر: ٧٨]، فالأنبياء والمرسلون لا يعلم عددهم إلا الله وحده، والقول بحصرهم
 في عدد معين قول على الله بغير علم ما دام لم يثبت شيء من ذلك عن
 رسول الله ﷺ. والمسلمون لا غنى لهم عن قصص الأنبياء؛ لأنها النموذج
 الكامل للحياة العالية السعيدة.

❁ أعظم وظائف الأنبياء والمرسلين:

وأعظم وظائف النبيين هي: دعاية الخلق إلى الخالق بإخلاص توحيده
 وعبادته، وأنه لا إله إلا الله؛ ولذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]
 كما أن من أهم وظائف النبيين والمرسلين رسم أكمل المناهج للحياة البشرية
 السعيدة ببيان ما ينفع الناس وحضهم عليه، وتحذيرهم من الشرور والآثام
 والتعدي والظلم وكل ما يلحق الضرر بعباد الله وخلق الله؛ كالزنا والسرقه وشرب
 الخمر والاعتداء على العباد وسائر الموبقات والفواحش والجرائم، فهم يأمرون
 الناس بالخير وينهونهم عن الشر حتى يكون المجتمع المستمسك بمنهج النبوة
 والرسالة مجتمعاً سعيداً مثاليّاً، وعلى رأس وظائف النبيين والمرسلين كما أشرت
 هو إخلاص التوحيد لله وحده، بمعنى أن العبد يؤمن بربوبية الله وألوهيته وأسمائه

الحسنى وصفاته العلى ويفرده بالتوحيد، فلا يبذل أي شيء من العبادة إلا لله وحده، فيكون إخباره الله، وقنوته لله، وإنابته لله، ورجاؤه في الله، وخوفه من الله، وأقصى حبه لله، وأن غاية الذلة إنما تبذل لله وحده، فهو وحده المستحق لأعلى درجات الحب مع بذل أقصى غاية الذل له لا شريك له، ولا شك أن كل أمة تستمسك بمنهج النبوة والرسالة تسعد في العاجلة والآجلة، وكل انحراف عن منهج الأنبياء والمرسلين يدني الأمة من أسباب هلاكها ودمارها، ولقد كان من فضل الله علينا نحن المسلمين أن جعل نبينا ورسولنا محمداً ﷺ أكمل الأنبياء، ومنهجه أكمل المناهج وأبقاها وأنقأها وأشملها وأعمها، وختم به النبوة والرسالة، وجعل منهجه مهيمناً على جميع المناهج، وقد ضرب رسول الله ﷺ لنفسه مع إخوانه الأنبياء مثلاً فقال فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة»، قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

نتحدث إليكم عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نقاط تتناول قصة خلقه، وخلقته من أصناف تراب الأرض، ومقدار طوله، والشجرة التي نُهي عن الأكل منها، ومقدار لبثه في الجنة، وإهباطه من الجنة، وعدد أبنائه، وهل سمي ابناً له عبد الحارث؟ وذكر هبته من عمره لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما ذكر عن شعره في قتل ابنه، وهل بنى الكعبة؟ وهل توسل إلى الله بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ورؤية النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ليلة الإسراء والمعراج، ثم نتحدث عن وفاته، ومكان دفنه، ثم ذكر احتجاج موسى وأدم بالقدر، ثم ذكر تأخره عن الشفاعة يوم القيامة.

أما قصة خلقه: فقد ذكرها الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، فهو يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿البقرة: ٣٠ - ٣٣﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلقه من تراب، وأنه خلقه من طين، وأنه خلقه من صلصال كالفخار من حملاً مسنون، وأنه خلقه من طين لازب، حيث يقول في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿آل عمران: ٥٩﴾، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿الأعراف: ١١ - ١٢﴾،

ويقول في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَكِئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١) قَالَ يَا بَلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦ - ٣٣]، ويقول في سورة السجدة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ويقول في سورة الصافات: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، ويقول في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ويقول في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وأصل ذلك أن الله تبارك وتعالى أخذ من تراب الأرض قبضة فخلق منها آدم، وقد اجتمع في هذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض؛ ولذلك جاء بنو آدم على هذه الألوان، وهذه القبضة قد بلها الله تعالى بالماء، ثم مرت عليها مدة حتى تحجرت فصارت صلصالاً.

والصلصال هو الطين المتحجر؛ لأن الطين إذا طبخ بالنار سمي فخاراً، وإذا لم يطبخ بالنار لكنه ترك حتى تحجر يسمى صلصالاً. فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] أي: من طين تحجر حتى صار شبيهاً بالفخار، وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا إنه من صلصل بمعنى صَوَّتْ، وإن قلنا إنه من صلَّ بمعنى تغير، فإن الطين إذا مضت عليه مدة أنتن واسودَّ فيصير حمماً مسنوناً، أي أسود متغيراً له رائحة خاصة، فإذا يبس وتحجر صار كالْفَخَّارِ، والطين اللازب هو اللاصق، ويقال أيضاً لزب الطين إذا صلب. والحمم المسنون هو الطين الأسود المتغير الرائحة الممتن.

وقد خلق الله تبارك وتعالى آدم بيده، وصوره وجعل طوله ستين ذراعاً، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها

من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

أما الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها: فقد ذكر بعض الناس أنها الحنطة، وبعضهم يذكر أنها التين، وبعضهم يذكر أنها العنب، ويذكر آخرون غير ذلك، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر في تعيين الشجرة، ولو كان في تعيينها خير لعينها الله عز وجل وبينها، وما دام الله عز وجل لم يبين نوع الشجرة ولم يبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفة نوعها، ولا ينبغي لأحد أن يقول على الله بغير علم، إنما المقصود أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجته التي خلقها له وأخرجها من ضلع من أضلاعه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً».

وقد نهى الله آدم وزوجه أن يأكلا من شجرة عينها لهما، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَبَقَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وَفَاسَمَهُمَا

إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَخْبَرَكُمَا أَن تِلْكَ الشَّجَرَةُ وَأَقَلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿الأعراف: ١٩ - ٢٣﴾.

ويقول الله تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّا يَتَذَكَّرُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَسَوَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١١٧ - ١٢٢﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ هو في الحقيقة من باب قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، إذ ليس المراد هنا المعصية التي حمى الله منها أنبياءه ورسله، إذ ليس الأكل من هذه الشجرة كسب الخمر أو الزنا أو قتل النفس بغير حق أو فساد في الأرض، وقد وصف الله تبارك وتعالى أكل آدم من الشجرة بأنه صدر عن نسيان حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾، والإنسان إذا فعل الشيء وهو ناسٍ رُفِعَ عنه القلم، وإنما عاتبه الله تبارك وتعالى لتنبهه وتنبه ذريته من دسائس إبليس والاحتراس من وسوسته؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَتَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿الأعراف: ٢٧﴾، فالمقصود من هذا التصوير في قوله: ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ هو التنصيص على أن الله رفع الإصر عن آدم حيث قال: ﴿ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢٢﴾، فصار كأنه لم يأكل من الشجرة. وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منها لا محالة؛ لأنه لا بد وأن يسكن الأرض ويعمرها هو وذريته من بعده، ويجعل الله فيهم خيراً كثيراً، وعباداً صالحين وأنبياء ومرسلين.

ولا بد من الابتلاء والامتحان والاختبار في هذه الأرض، فكانت الصورة

الأولى للامتحان هو نهي الله له أن يأكل من الشجرة ونسيان آدم هذا النهي وأكله منها .

وقد اختلف أهل العلم في الجنة التي أمر آدم أن يسكنها هو وزوجه، وأكثر السلف من هذه الأمة على أنها جنة المأوى؛ لأن الصفات التي وصف الله بها هذه الجنة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩] تدل على أنها جنة النعيم، كما أن الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه الشفاعة: «وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم».

وقد ذهب بعض السلف إلى أنها جنة في مكان عالٍ من الأرض، والراجح عند أهل العلم أنها جنة المأوى، فإذا قيل: إن كانت جنة المأوى فكيف يخرج آدم منها؟ ومن سكن جنة المأوى لا يخرج، فالجواب هو: أن من يسكن جنة المأوى ولا يخرج منها هو من يدخلها جزاء على عمله بعد أن يقضي عمره في الدنيا، حتى إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها؛ لأنها دار جزاء المتقين. على حد قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مَّا كُنَّا نَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣٢]، أما كون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئاً فهذا للامتحان والابتلاء والاختبار؛ لتكون هذه الصورة ماثلة أمام أعين ذريته دائماً، ليحذروا إبليس الذي أخرج أبويهم من الجنة.

أما مقدار لبث آدم في الجنة: فلم يعينه الله ولم يعينه رسول الله ﷺ، والقول فيه قول على الله بلا علم. وقد بين الله تعالى أنه أهبط آدم من الجنة كما قال في سورة البقرة: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا قَسَمْنَا لَكَ مِنَ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّيْكَ عَلَيْكَ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَمَّا يَا بَيْنَكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ - ٣٨].

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا نُخْرِجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ - ٢٥]، وقال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْبَطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا لَيْتَكُمْ مَنِي هُدَىٰ فَمَنَ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

أما عدد أبناء آدم ﷺ: فلم يصح فيهم أيضاً خبر عن الله أو عن رسول الله ﷺ، وبعض الناس يقول: إن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، وبعضهم يقول: ولدت حواء مئة وعشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى. وقال ابن كثير في تاريخه: وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربع مئة ألف نسمة. ١. هـ. والعلم في ذلك كله عند الله ﷻ.

أما دعوى أن آدم سمي ولداً له عبد الحارث وأنه المشار إليه في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَهَمَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشُّكْرَيْنِ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩١]، وهذا قول على آدم بغير دليل صحيح، وتأويل للآية على غير وجهها، فأما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. قال ابن كثير في تاريخه: فهذه علة قاذحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً عن ابن عباس، والظاهر أن هذا متلقى عن

كعب الأبحار وذويه والله أعلم، وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره. ١.٥ هـ.

وهذا تفسير عجيب لهذه الآيات، كيف يكون أول شرك في الأرض من آدم وزوجه، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا والقتل وشرب الخمر والسرقه، كما أن المعروف أنه لم يقع شرك في الأرض إلا في أمة نوح ﷺ، ولا شك أن المراد بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم، وأن قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلًا خَفِيًّا﴾ إلى آخر الآيات، فهو انتقال بعد ذكر آدم وزوجه، واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية، فإن من الأساليب البلاغية أنه قد يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [المؤمنون: ١٢ - ١٣] فالمخلوق من الطين آدم، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها، فآدم ﷺ يحميه الله من الشرك الأصغر ومن الشرك الأكبر.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس

تابع: آدم ﷺ

قد ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تبارك وتعالى ذكر في سورة الأعراف قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩١]، وقلت: إنه قد دُس في بعض الأخبار المنسوبة إلى رسول الله ﷺ أن حواء لم يكن يعيش لها ولد في أول الأمر، فوسوس لها الشيطان إذا أرادت أن يعيش لها ولد أن تسميه عبد الحارث ليدخل الشرك على الناس. وهذا عجيب، إنها خلقت لعمارة الأرض فكيف لا يعيش لها ولد؟ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي تَارِيخِهِ: فَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ آدَمَ وَحَوَاءَ لِيَكُونَا أَصْلَ الْبَشَرِ وَلِيَبْتَئِ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، فَكَيْفَ كَانَتْ حَوَاءَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ؟ هـ.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: نطفة لا ثقل لها في البطن، فصارت المرأة تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: كبر بطنها، وثقل عليها حملها واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: سألا الله ﷻ وتضرعا إليه أن يرزقهما ولداً صالحاً ليشكراه، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلوا لله شركاء فيما أنعم به عليهما. وهذان الزوجان المشركان لم يقصد بهما آدم وحواء قطعاً، وإنما هو توبيخ لمن يشرك بالله من جنس بني آدم؛ ولذلك قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولو كان المراد به آدم وحواء - عصمهما الله من ذلك - لقال: «فتعالى الله عما

يشركان»، والآية ظاهرة في أن المراد بالشرك هنا ما يعم الشرك الأصغر والأكبر، ولذلك زاد في توبيخهم والتنديد بهم حيث قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢]. وأهل العلم متفقون على أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. هما آدم وحواء، وانتهى الكلام هنا في ذكر الأصل - آدم وحواء - ثم استطرده إلى الجنس، وهذا أسلوب بلاغي كما ذكرت في الفصل السابق، فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: الوالد والوالدة من جنس بني آدم وحواء، وقد أشار في صلب الآية إلى أنه ليس آدم وحواء بقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأما قصة هبته من عمره لداود: فقد رواها أحمد والطبراني من طريق علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أول من جحد آدم» - قالها ثلاث مرات - «إن الله ﷻ لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يُزهر، فقال: أي رب! من هذا؟ فقال: هذا ابنك داود، قال: يا رب! كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: أي رب! فرد في عمره، قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه قال: إنه بقي من أجلي أربعون سنة، فقبل له: إنك قد جعلتها لابنك داود، قال: فجحد، فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البيئنة، فأتتها لداود مئة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة». فهذا الخبر لا يصح عن رسول الله ﷺ بحال؛ لأنه يدور على علي بن زيد وفي حديثه نكارة، وقد أخرج نحوه الترمذي بسند فيه هشام بن سعد، وقد وصف بأنه له أوهام وقد رُمي بالتشيع، والظاهر أن هذا من أوهامه، كما رواه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف عند المحدثين، ولا يجوز أن يوصم أبو البشر نبي الله آدم ﷺ بالجحود بمثل هذه الأخبار، إذ الجحود من الأمور المذمومة التي لا يرتضيها عوام المسلمين لأنفسهم، فكيف يوصف بها نبي من أنبياء الله؟! من أنبياء الله؟!!

أما ما ذكر من شعره لما قتل قابيل أخاه هابيل فلا ينبغي لمن ينتسب للعلم

أن ينسب مثله لآدم ﷺ؛ لأنه لم ينقل عن خبر معصوم ولا يدعي أحد صحة سند فيه، وهذا الشعر المزعوم هو:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه المليح

أما ما ذكر من توسله بمحمد رسول الله ﷺ؛ فهو لا يصح كذلك، وقد رواه الحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترب آدم الخطيئة قال: أي رب! أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله: كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب! لأنك لَمَّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلي اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفر لك، ولولا محمد ما خلقتك». قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف.

أما رؤية رسول الله ﷺ لآدم ليلة الإسراء والمعراج؛ فقد رواها البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة في خبر الإسراء والمعراج، وفيه: «فانطلق بي جبريل حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيها آدم، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح...» إلخ. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنه: «فُعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل

يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى...» إلخ الحديث.

وقد أقرَّ آدم لرسول الله ﷺ في حديث الإسراء بالنبوة والبنوة لآدم ﷺ، فصلوات الله وسلامه عليهما وعلى النبيين أجمعين.

أما عمر آدم عند وفاته ومكان دفنه: فلم يرد في ذلك خبر صحيح عن رسول الله ﷺ يثبت أين مات آدم ﷺ وأين دفن فالعلم في ذلك عند الله ﷻ.

والى الفصل القادم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع

تابع: آدم ﷺ

أشرت في فصل سابق إلى احتجاج موسى وآدم بالقدر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم ﷺ فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنوك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»، أي فغلب آدم موسى في هذه المحاجة.

أيها القراء الكرام: إن الاحتجاج بالقدر ينبغي أن يلاحظ فيه أمران؛ فالقدر إما أن يقترب بمصائب أو يقترب بمعائب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو القتل أو غير ذلك من المعاصي، فإذا قيل له: لم فعلت ذلك، قال: قدر الله، أو قدر الله، أو قضاء الله، ونسب عمله إلى القدر، وهذا خطأ؛ فإنه لا يحق الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاييب؛ لأن الله لم يبين له القدر قبل ارتكاب الجريمة وأنه سيرتكبها، ولم يأذن له في ارتكاب هذه الجريمة. أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو انقلب مثلاً وهو نائم على شخص فقتله، أو انفلتت منه حصاة أو نحوها على شخص فأصابته من غير قصد منه، أو غلبته عينه رغم أنفه فنام عن الصلاة حتى طلعت الشمس فله أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر؛ لأن هذا الذي وقع منه خارج عن إرادته، وله أن يقول: قدر الله وما شاء فعل.

وقد أشار إلى هذا رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»، فهذا الحديث يضع أوضح قواعد السلوك فيما يحتج به من القدر، وما لا يحتج به، فما أصاب الإنسان من شر لا إرادة له فيه فإن له أن يحتج بالقدر. وما فعله بإرادته من المعاييب لا يجوز أن يحتج فيها بالقدر؛ لأن المأذون له في عمله هو الخير وما ينفعه في عاجلته أو آجلته، ولذلك صدر رسول الله ﷺ هذا الحديث بقول: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز». وادم ﷺ لم يُهَيِّطِ العباد إلى الأرض ولم يكن إخراجهم من الجنة بيده، وأكله من الشجرة وإن كان سبباً لهبوطه إلى الأرض لكنه فعله بغير قصد كما أسلفت، فلا دخل لآدم في إخراج الناس من الجنة وإهباط العباد إلى الأرض وإن ذلك كله لله وحده، فاحتجاج موسى ﷺ على آدم لعله كان نوعاً من المداعبة منه لأبيه آدم ﷺ، وموسى لا يخفى عليه مثل ذلك. وهو عندما وكز القبطي فقضى عليه قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: 15]، وموسى ﷺ لا يؤاخذ بذلك؛ لأنه لم يقصد قتل الرجل، كما أن آدم ﷺ قد وصف الله أكله من الشجرة بأنه عن نسيان، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، ولا شك أن القلم مرفوع عن الناسي كما أنه مرفوع عن النائم. فما فعله الإنسان عن نسيان أو في نومه فإن الله تعالى لا يؤاخذ به عليه، وكان آدم ﷺ قال لموسى ﷺ: (أنا لم أخرجكم من الجنة، وإنما أخرجكم الله الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة وقد أكلت منها عن نسيان، وقد قدر الله عليّ ذلك قبل أن أُخْلَقَ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرج نفسي ولم أخرجكم من الجنة وإنما كان هذا من قدر الله وقضائه، وله الحكمة في ذلك)، فلذلك غلب آدم موسى في الاحتجاج.

أما ما جاء في حديث الشفاعة لاستفتاح الجنة يوم القيامة وتأخر آدم عن

ذلك بقوله: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. فلأن صورة ما حدث هو صورة الخطيئة، كما أن ما حدث من موسى ﷺ في قتل القبطي هو صورة الخطيئة، لكن الله لا يؤاخذ أحداً منهما بما فعل؛ لأنه لم يكن عن قصد، وحديث الشفاعة هذا قد أخرجه مسلم في صحيحه من طريق أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة ومن طريق أبي مالك الأشجعي عن ربعي عن حذيفة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وتُرسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمرّ البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم، ونببكم قائم على الصراط يقول: رب سلّم سلّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كالليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوشٌ ناج ومكدوسٌ في النار»، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً. وقوله في الحديث «وشد الرجال» أي عدو الرجال وسعيهم وسرعتهم في المشي.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن

تابع: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

لا شك أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان نبياً من أنبياء الله، وأكثر أهل العلم على أنه كان نبياً رسولاً بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَٰٓءَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَٰٓءَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وتعريف الرسول ينطبق على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ سواء في ذلك التعريف المشهور عن العلماء وهو أنه من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، أو التعريف الذي اخترته ورجحته وهو أن الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة؛ فأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جاء ولا شك بشريعة جديدة يحتكم هو وبنوه إليها، ويسيرون على منهاجها، وقال جماعة من أهل العلم: إن آدم كان نبياً ولم يكن رسولاً بدليل حديث الشفاعة الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوة، فرُفِعَتْ إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة، وقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرُونَ بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر ويُسمِعُهُم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله،

نفسى نفسى..» إلخ الحديث. فقولهم: «أنت أول الرسل إلى أهل الأرض» يفيد أن آدم لم يكن رسولاً، لكن المثبتين لرسالة آدم يقولون: إن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض للتحذير من الشرك، إذ لم يكن قبل قوم نوح ﷺ شرك في الأرض، وإنما كانت المعاصي كلها دون الشرك كالقتل والظلم ونحوه، أو أن المراد من هذه الأولية هو بالنسبة إلى شمول رسالته لكل أهل الأرض، ولم يكن أهل الأرض إلا قوم نوح ﷺ، ولم يكن على الأرض ناس سواهم، أما الرسول الذي شملت رسالته كل أهل الأرض عربهم وعجمهم وحتى الجن فهو محمد ﷺ، وأما من عدا نوحاً ومحمداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم تكن رسالتهم تشمل كل أهل الأرض وإنما هي خاصة لأقوامهم. ونوح وإن كان كذلك قد بعث إلى قومه خاصة لكنهم كانوا يومئذ كل أهل الأرض كما أشرت. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب أحاديث الأنبياء في باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥] في عبارة: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض: فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبياً، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه. فعلى هذا فهو رسول إليهم؛ فيكون هو أول رسول، فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم: إلى أهل الأرض؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. ١.١ هـ.

هذا وبعض أهل العلم يفسر قول رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج عن يوسف ﷺ: «فإذا أنا بيوسف ﷺ» وإذا هو قد أعطي شطر الحسن» بأن المراد أن يوسف ﷺ أعطي نصف حسن آدم ﷺ، وإن كان بعض أهل العلم يفسر ذلك بأن يوسف قد أعطي شطر حسن الناس جميعاً، وبعضهم يفسره بأن يوسف ﷺ قد أعطي شطر حسن محمد ﷺ، وعلى كل حال فإن الله

تبارك وتعالى قد خلق آدم وركبه على أحسن صورة على حد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقد استقر عند أهل جميع الأديان السماوية أن آدم أبو البشر، غير أنه قد نبغت نابغات من الإلحاد والزندقة في العصور المتأخرة فزعموا أن الشمس في أثناء دورانها السريع حول نفسها انفصلت منها قطعة أخذت تبتعد عنها قليلاً قليلاً وتتخذ لنفسها مجرى كمجرى أمها الشمس، وهذه القطعة هي الأرض، ويدعون أنه بطول الزمن برد سطح الأرض وإن كان باطنها لا يزال على حرارته، وقد أحاطت بها المياه، وأنه بطول الزمن آسن بعض هذا الماء فتوالدت فيه حيوانات مائية كهذه الحيوانات التي تتوالد في أي ماء آسن، ويرون أن من جملة هذه الحيوانات البحرية كان الإنسان، ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان المائي)، ثم بمرور الزمن الطويل البالغ (ملايين) السنين أخذ هذا الحيوان المائي يخرج إلى شواطئ البحار ويرعى الحشائش النابتة عليها، ثم يرجع إلى البحر ليعيش فيه شبيهاً بالتماسيح. ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان البرمائي)، ثم استطاع هذا الحيوان أن يتطبع بطباع البر وأن يعيش فيه طول حياته وأن يهجر حياة البحر، ويطلقون عليه طول هذه الفترة (الإنسان البري).

ثم يزعمون أن هذا الحيوان بعد فترات طويلة من التاريخ تبلغ «ملايين» كثيرة من السنين استطاع أن يتميز عن كثير من الحيوانات البرية الغابية، وأنه صار يستعمل أنواعاً من الآلات كالحجارة ونحوها؛ فارتفع وارتقى عن باقي الحيوانات التي لم تتميز بذلك، وقد رفع لواء هذه النظرية نصراني يقال له داروين، ونشطت اليهودية العالمية في ترويج نظرية داروين هذه لأنها تتماشى مع ما عرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون وكذلك «الماسون» في العمل على تخريب العالم؛ ليتمكنوا من تأسيسه من جديد بحسب أهوائهم وشهواتهم. وقد أطلقوا عليها نظرية التطور والارتقاء^(١). وبالنظر المجرد إلى هذه النظرية نرى أن أصحابها لا

(١) بعد إعداد هذا الكتاب للطبع نشرت جريدة الشرق الأوسط السعودية في عددها رقم (٣٣٢٨) بتاريخ يوم الجمعة ١٩/٥/١٤٠٨ هـ الموافق لليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٨٨ م تحت عنوان: «العلم يثبت أصل الإنسان» ما يلي: (واشنطن - مكتب الشرق =

يؤمنون بفاطر السموات والأرض، ولا يصدقون بأي كتاب سماوي؛ إذ الكتب السماوية المؤيدة بالمعجزات الحسية والعقلية تقرر أن الله خلق الأرض، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ثم خلق السموات وزين السماء الدنيا بمصابيح، وأنه خلق الملائكة المكرمين من نور، ثم الجان من نار السموم، ثم خلق آدم أبا البشر من طين فسواه بيده الكريمة على هذه الصورة الجميلة، وكرّمه على جميع المخلوقات في الأرض. والعجيب أن بعض الجاهلين يزعمون أن نظرية داروين في التطور والارتقاء قد قررها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، مع أن القرآن شرح هذه الأطوار في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَلِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] كما فسر رسول الله ﷺ أطوار خلق الإنسان كذلك، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو

= الأوسط: ضجت الأوساط العلمية في الغرب ولا سيما في الولايات المتحدة نبأ الاكتشاف الذي توصل إليه فريق من العلماء الأمريكيين بعد نحو عشر سنوات في البحث والدراسة في علم الوراثة والجينات، وقاد البحث إلى اكتشاف أن الجينات الثابتة في كل النوع البشري يمكن تقفيها إلى امرأة واحدة (سماها فريق البحث بايف - أو حواء) انحدر منها كل البشر. وكانت خصبة الولادة. وإليها تعود الجينات الثابتة عند كل البشر، والبالغة نحو خمسة آلاف جين، وهذا ما جاء في التقرير العلمي الذي نشرته مجلة «نيوز ويك» الأمريكية هذا الأسبوع. ويحدد العلماء ظهورها على الأرض بأنه وقع في آسيا أو إفريقيا قبل نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة. وعلى هذا الأساس يمكننا اعتبارها جدتنا العشرة ألاف. وقد ناقضت هذه الاكتشافات كل ما ذهب إليه العلماء من قبل فيما يتعلق بظهور الإنسان على الأرض، وخاصة ما يتعلق بنظرية العالم الإنجليزي داروين حول أصل الإنسان). انتهى ما أورده جريدة الشرق الأوسط بحروفه.

الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ في الروح «الحديث»». فيجب علينا معشر المسلمين أن نتفطن ونحذر من هؤلاء الدعاة إلى نظرية داروين في التطور والارتقاء؛ لأن الإيمان بها كفر بإله السموات والأرض.

هذا وقد أخبر رسول الله ﷺ أن آدم خلق في يوم الجمعة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها». وهذا يدل على أن آدم عليه السلام خلق خلقاً واحداً لم يمر عليه الأَطوار التي زعمها داروين وعصابته من الملاحدة والدهريين.

وأكتفي بهذه الشذرات من قصة آدم عليه السلام وقد بينت فيها ما جاء به الخبر عن الله، أو صح عن رسول الله، والواجب على كل مسلم ولا سيما أهل العلم أن يحترسوا من الإسرائيليات وما دسه اليهود على الأنبياء والمرسلين.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع

نوح ﷺ

نتحدث عن نوح عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم من المرسلين، وأول رسول يحذر من الشرك وعبادة غير الله ﷻ، إذ كانت أمته هي أول الأمم المشركة على ظهر الأرض، وقد يقال لنوح: آدم الثاني؛ لأن جميع الباقين على الأرض من ذريته على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصفات: ٧٧]، وقد اختلف الناس في المدة التي بين آدم وبين نوح عليهما الصلاة والسلام، فعند أهل الكتاب أن نوحاً ﷺ ولد بعد موت آدم بمئة وست وأربعين سنة، وذكر ابن جرير أن مولد نوح ﷺ كان بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، وقد ذكروا في عمود نسبه إلى آدم ثمانية آباء. وكل هذه الأقاويل في المدة التي بين آدم ونوح ﷺ، وكذلك ما ذكر في عمود نسبه إلى آدم هي أقاويل مرسلة لا دليل عليها، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن أريد بالقرن مئة سنة فيكون بين آدم ونوح عليه السلام ألف سنة، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس فيكون بين آدم ونوح ألوف السنين؛ لما عرف من أن الناس قبل نوح كانوا يعمرون الدهور الطويلة. ولا يعلم تحديد ذلك إلا الله ﷻ، على أن قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام... لا يدل على الحصر في هذه القرون العشرة بين آدم ونوح ﷺ وإنما مراد ابن عباس رضي الله عنهما أن الإنسانية مر عليها عشرة قرون بعد آدم وقبل نوح، وكلها على دين الإسلام لم تشرك بالله شيئاً، وإنما هي على التوحيد الخالص لله ﷻ، ثم أدخل عليهم الشيطان أسباب الشرك وأوقعهم في ألوان من عبادة غير الله. فعبدوا الأصنام، وإلى هؤلاء المشركين بعث الله ﷻ نوحاً ﷺ، وقد ذكر

البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عَجَبًا: ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ
 ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما:
 هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم
 أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم،
 ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدَتْ. وذكر الأصنام
 الخمسة الواردة في هذه الآية الكريمة لا يدل على حصر أصنام قوم نوح في هذه
 الخمسة، بل قد عبد قوم نوح أصناماً كثيرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك
 في قوله: ﴿لَا نَدْرَأُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا
 وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وقد نقل عمرو بن لحي الخزاعي
 أصناماً إلى جزيرة العرب، بأسماء أصنام قوم نوح، ودعا إلى عبادتها، فأخذ بنو
 عذرة «وداً» وجعلوه بدومة الجندل، واستمر بها إلى أن جاء الإسلام وهدمه
 خالد بن الوليد رضي الله عنه، كما أخذت مضر بن نزار سواعاً ونصبوه ببطن نخلة،
 وعبدته هذيل، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت مذحج يغوث ونصبوه
 في أكمة في بلادهم، واستمر كذلك حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت همدان
 يعوق ونصبوه بقرية يقال لها حيوان، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت
 حمير نسراً وجعلوه في مكان بسأ تعبده حمير حتى جاء الإسلام وهدمه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة نوح عليه السلام في سور شتى من كتابه الكريم،
 فذكرها في سورة الأعراف وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة
 الأنبياء، وفي سورة المؤمنون، وفي سورة الشعراء، وفي سورة العنكبوت، وفي
 سورة الصافات، وفي سورة اقتربت الساعة، كما جعل سورة نوح بتمامها في
 قصة نوح عليه السلام، كما ذكر الله عز وجل نوحاً عليه السلام في جملة من المرسلين في مواضع
 شتى من كتاب الله عز وجل، ولا شك أنه أول أولي العزم من المرسلين.

وقد أشرت كثيراً إلى أن من أهم فوائد قصص الأنبياء هي العبرة والتأسي
 بالأنبياء والرسول، والبعد عما حذروا منه، وقد أطل الله تبارك وتعالى الحديث
 عن قصة نوح عليه السلام في موضعين من كتابه الكريم، أحدهما في سورة هود عليه السلام،

والآخر في سورة نوح ﷺ، وعندما تتمعن في مفردات هذه القصة وجملها تقف على الشيء الفريد العظيم من أساليب الدعوة إلى الله ﷻ وأساليب الهداية وتبصرة العباد بطريق الله ﷻ، وبيان ما عليه الكافرون وأعداء الله وأعداء المرسلين من محاربة الدين وأهله.

وقد بدأ الله ﷻ قصة نوح في سورة هود بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، وبهذا يعلم أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وليس أول المنذرين، فهو في رسالته جاء على درب مسلوكة وطريق مطروق سار فيه قبله الأنبياء والمرسلون عليهم من ربهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة إذ قال في شأن هود ﷺ: ﴿وَأَذَكَّرُ أَمَا عَادِ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ولتقرير هذه الحقيقة كان مطلع قصة نوح في سورة هود هو إعلان رسالة نوح ﷺ وإنذاره لقومه حتى يرتدع اليهود ومن على شاكلتهم الذين يقولون: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فإرسال الرسل مستقر في الفطرة السليمة تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل؛ ليعلم أن الله ﷻ أرسل الرسل ليدلوا العباد على مراسيم سعادتهم في العاجلة والآجلة، ولتلا يقول الناس: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وبعد أن ذكر أن نوحاً رسول من الله أعقب ذلك ببيان أهم وظائف المرسلين وهو دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦] وهذا يدن جميع الأنبياء والمرسلين، أنهم يبدؤون قومهم بالدعوى إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له؛ لأن توحيد الله تبارك وتعالى هو الذي من أجله خلق السموات والأرض، ومن أجله خلق الإنس والجن، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل العاشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن نوحاً عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له، وذكرت أن هذا هو دأب جميع الأنبياء والمرسلين؛ فجميع أنبياء الله ورسله إنما جاؤوا لقومهم ليعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ لأنه من أجل حقيقة توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، خلق الله الإنس والجن على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن أجل توحيد الله رفع الله السموات وبسط الأرض، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وجعل الجنة والنار، وحرّم الجنة على من مات وهو يشرك بالله شيئاً على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فتوحيد الله هو رأس العبادات، وهو أصل كل منهج يوصل إلى الله ﷻ من المناهج التي رسمها أنبياء الله ورسله لأممهم وأقوامهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن نوحاً بعد أن دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله وحذرهم من الشرك خوفهم عذاب الله في الدار الآخرة، وأشار تبارك وتعالى إلى أن المستكبرين في الأرض بغير الحق أثاروا ثلاث شبه ليصدوا الناس عن دعوة نوح عليه السلام، وقد دحض الله شبههم وفضح باطلهم جملة وتفصيلاً، وذكر عاقبة المكذبين، وما من به على نوح ومن آمن به، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ

أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِّن رَّبِّي وَعَلَيْكُمْ رَحْمَةٌ مِّن عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُومًا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا
 كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَنْزَلْتُ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ
 طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا نَذَكُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
 مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي
 إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ
 نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
 ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
 وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ
 الْفُلَکَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ
 كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
 عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبْهَا
 وَمُرْسَتْهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ
 يَعْصِيئِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعًا وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ
 فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَهُ وَنَسَمَاءُ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ
 وَأَسْوَتَ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ
 أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
 غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
 أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ
 ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْطِ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ
 يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

قَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [هود: ٢٥ - ٤٩]، وقد أبرز الله تبارك وتعالى في صدر هذه الآيات المباركات حقائق ثلاث هي أهم ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون، فالحقيقة الأولى هي وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، والحقيقة الثانية هي إثبات الرسالة، والحقيقة الثالثة هي الإيمان بالبعث بعد الموت، وقد لوحظ أن جميع السور المكية من القرآن الكريم يدور فلکها لتحقيق هذه الحقائق الثلاث، ولا شك أنه لا سعادة للإنسانية ولا استقرار لها ولا أمن ولا طمأنينة إلا إذا استطلت في ظل هذه الحقائق الثلاث، وآمنت بها، وسارت على منهاجها في جميع ما تفعل وما تذر من شؤون حياتها، وهذه الحقائق الثلاث نبه الله ﷻ عليها في مطلع قصة نوح هنا حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿١٦﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن المستكبرين في الأرض من قوم نوح قد سارعوا فأثاروا ثلاث شبهة ضد دعوة نوح ﷺ، ليضللوا المستضعفين عن قبول الحق الذي جاء به نوح ﷺ، وليصدوا عن سبيل الله، ورموا بهذه النظريات الفاسدة في وجه الحق، وقد لوحظ أن المسارعين إلى الكفر والعناد والمتجربين على نوح ﷺ هم المملأ، وهم رؤساء القوم ووجهائهم خوفاً على مناصبهم أن يذهب بها الدين الجديد الذي جاء به نوح ﷺ، وهذه الشبهة الثلاث التي أثاروها هي أن نوحاً ﷺ من البشر، والشبهة الثانية أن أتباعه هم الفقراء، والفقير في نظرهم الفاسد يقتضي أن يكون الفقير غير ثاقب الرأي ولا عميق الفكر، والشبهة الثالثة أن نوحاً ﷺ ومن تبعه ليسوا زائدين عنهم في الخلق، ولا مزية لهم على غيرهم في التكوين الجسمي، وفي شبههم الثلاث هذه يقول الله ﷻ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا زَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا زَنَّاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبَادُوا بِلِقَائِكُمْ عَلَيْهِمْ فَضَّلْنَا بَلْ نُنَظِّمُ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي عشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن المستكبرين في الأرض بغير الحق هم الذين سارعوا إلى معارضة دعوة نوح عليه السلام، وقد جرت العادة بأن الكبراء هم الذين يبدوون بمحاربة الأنبياء والمرسلين ودعاة التوحيد لله وَعَلَيْكُمْ، لاعتقادهم أنهم إذا ردوا هذا الحق استبقوا مناصبهم ورياستهم. ولذلك قال هنا: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، والملأ هم وجوه القوم ورؤسائهم وأعيانهم، وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر؛ إذ هم ينكرون نبوته؛ لأنه بشر. وهذه الشبهة بعينها وُجِّهت من أعداء المرسلين لرسولهم، فكلما جاء أمة رسول ردوا دعوته بدعوى أنه بشر، وقالوا كيف تكون رسولا وأنت من البشر، وجعلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم منن الله على خلقه؛ لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم ويتمكنون من مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل لهم ملكاً لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله سائر المكذبين للرسول بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر، حيث يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُونَا بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠ - ١١]، وهذه الشبهة في غاية الضعف، وقد ردّها الله تبارك وتعالى في مقامات من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ فَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ

لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥]، وبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ أُرْسِلَ رَسُولًا غَيْرَ بَشَرٍ وَجَعَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا أَطَاقَهُ النَّاسُ وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ مَعَايِشَتِهِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ ﷺ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، فَالَّذِي يَفْرُونَ مِنْهُ لَا بَدَّ وَأَنْ يَقْعُوا فِيهِ، وَلَا طَاقَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى مَصَاحِبَةِ الْمَلَائِكَةِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنْ جَبْرِيلُ ﷺ عِنْدَمَا تَبَدَّى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الْمَهْيَأُ ﷺ لِاسْتِقْبَالِ الْوَحْيِ، وَرَأَى جَبْرِيلَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ يَمَلَأُ الْأَفْقَ خَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَعِبَ مِنْهُ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَقَالَ: زَمَلُونِي، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. فَلَوْ أَنَّ جَبْرِيلَ ﷺ جَاءَ لِلْبَشَرِ غَيْرِ الْمَهْيِيِّينَ لِلرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ مَا تَمَكَّنُوا مِنَ الْاسْتِفَادَةِ مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ ﷻ الْمَكْذِبِينَ الْمَعَانِدِينَ الَّذِينَ يَرُدُّونَ رِسَالَةَ الرَّسْلِ بِدَعْوَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ، وَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مَلَكِي، حَيْثُ يَقُولُ ﷻ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ هَجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١ - ٢٢]، وَقَدْ كَانَ جَبْرِيلُ ﷺ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أحيانًا فِي صُورَةِ رَجُلٍ كَدْحِيَّةِ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأحيانًا يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَلَا يَعْرِفُ النَّاسُ أَنَّهُ جَبْرِيلُ حَتَّى يُخْبِرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوَحْيِ وَذَهَابِ جَبْرِيلَ ﷺ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بِيَاضِ الشِّيَابِ شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ؛ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رِكْبَتَيْهِ إِلَى رِكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفِيهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ، فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». فالرسل هم الذين يتهيئون للملائكة بما أعدهم الله تبارك وتعالى لذلك.

وعامة الناس إنما يتهيئون للملائكة في الجنة إذا ماتوا على الإيمان، كما يجعل الله الموكلين بعذاب الكفار في النار ملائكة غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي تفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد، قالت عائشة رضي الله عنها كما جاء في صحيح البخاري ومسلم: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً، ومعنى يتفصد عرقاً أي يسيل العرق من جبينه، كما ذكر أن عنقه كان يسيل منه مثل الجمان، أي قطع الفضة أو اللؤلؤ من العرق عند نزول الوحي عليه ﷺ، مع أن رسول الله ﷺ قد أعد لذلك وهيئ له على حد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أما الشبهة الثانية من شبه الملائكة الذين كفروا من قوم نوح فهي أن الذين اتبعوا نوحاً من الفقراء؛ ولذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ آتِئَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا كذلك أمر عجيب، إذ إن هذه الشبهة مبنية على أن الغنى دليل العقل الثاقب والرأي السديد، وأن الإنسان إذا كان عنده مال صار عاقلاً حكيماً، مع أنه لا رابطة بين العقل والغنى على حد قول الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وكما قال الشاعر:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

والغنى والعلم والعقل والصحة وغيرها أرزاق يمنحها الله لمن يشاء من

خلقه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فالله تبارك وتعالى قد يعطي إنساناً مالا ولا يعطيه علماً، وقد يعطيه علماً ولا يعطيه مالا، وقد يعطيه مالا وعلماً، وأما كون أتباع الأنبياء من الفقراء فقد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان كما جاء في صحيح البخاري.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني عشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن كون أتباع الأنبياء من الفقراء قد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان رضي الله عنه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنه فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا. قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وساق الحديث إلى أن قال: فقال لترجمانه: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل...

الحديث، وفيه: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإني عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا وقد بين الله تبارك وتعالى في آخر سورة ﴿ص﴾ أن المشركين من قريش الذين ماتوا على الكفر يتحزنون يوم القيامة عندما يدخلون جهنم ولا يرون فيها الفقراء من أمثال صهيب وعمار وبلال وجعيل بن سراقه وخباب بن الأرت رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ أَخَذْنَاهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢ - ٦٣] فقد رفع الله تبارك وتعالى الفقراء لما آمنوا وأدخلهم الجنة. وأدخل الكبراء والرؤساء في النار لما ماتوا على الكفر، ولما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أي على غني من أغنياء مكة أو من أغنياء الطائف، قال تعالى موبخاً ومبيناً فساد رأيهم حيث يقول: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥] والفقير أو الغني ليس معياراً لمقادير الرجال ومقاييسهم، فالمرء لا يقاس بغناه أو بفقره، وقد يكون الرجل غنياً وهو لا يساوي في عين الله شيئاً، ولا عند الناس وقد يكون فقيراً وهو عند الله عظيم.

وقد مر رجل من الأغنياء برسول الله ﷺ وأصحابه فسألهم عنه فقالوا: حري به إن خطب أن ينكح، وإن قال أن يستمع، وإن شفع أن يشفع، ثم مر به رجل من فقراء المسلمين وهو جعيل بن سراقه، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري به إن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يستمع، وإن شفع ألا يشفع. فأخبرهم رسول الله ﷺ عن هذا الفقير أنه يساوي ملء الأرض من هذا الغني. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا - يعني الفقير - خير من ملء الأرض مثل هذا - يعني الغني -»، فجعل رسول الله ﷺ هذا الفقير الصالح خيراً من ملء الأرض من أغنياء غير صالحين، علماً بأن الغنى الحقيقي ليس عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس ». على أن الغنى والفقر أعراض تتبدل وتتغير؛ فالمال ظل زائل وعارية مستردة. والله در الشاعر حيث يقول:

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

وقد نبه الله تبارك وتعالى إلى سوء فهم من يظن أن الغنى يرفع قيمة الرجل في الحقيقة، حيث يقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، ولذلك كان الميزان العدل يوم القيامة أن يرفع الصالحين ولو كانوا في الدنيا فقراء مستضعفين في أعين الناس، وأن يخفض غير الصالحين ولو كانوا كبراء أغنياء، وفي ذلك يقول ﷺ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ ﴿٢﴾ حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ - ٣]. فرب كاسية في الدنيا عارية عند الله يوم القيامة، ويا رب عارية في الدنيا كاسية عند الله يوم القيامة.

وهذه الشبهة التي أثارها المستكبرون من قوم نوح قد أثارها المستكبرون من قريش حتى طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعد الفقراء عن مجلسه ليحيئوا إليه، وأنهم لا يرضون أن يجالسوا هؤلاء الفقراء، فقال الله تعالى لرسوله وحببيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَكَفَرُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وكذلك فتناً بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿[الأنعام: ٥٢ - ٥٣]﴾، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا يقاس بماله ولا جماله ولا طوله ولا عرضه، وبهذا يتضح أن الشبهة الثانية التي أثارها قوم نوح هي شبهة داحضة عاطلة باطلة فاسدة كاسدة.

أما الشبهة الثالثة من هذه الشبه فهي أن نوحاً والمؤمنين به لا مزية لهم في الخلق على غيرهم، وقد حكى الله تبارك وتعالى هذه الشبهة عنهم في قوله: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] علماً بأن قولهم هذا يرد شبهتهم بدعواهم أنهم أفهم من الفقراء الذي وصفوهم بأنهم أراذل بادي الرأي؛ لأنهم لم يتميزوا في شيء من خلقهم على الفقراء. فتركيب أجسام الجميع سواء. وهذه الشبهة بعينها أثارها الكفار ضد جميع المرسلين، وهي تنبئ عن عقلية فاسدة ونظرية مادية ملحدة، فهم يريدون أن يتحكموا في رحمة الله، وأن يحجروا على فضل الله، وقد بدأ نوح ﷺ في رد هذه الشبهة وصدر بها الأجوبة الشافية الكافية، حيث قال لهم فيما حكى الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ يَقُولُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَنبُوتَ مِنْ رَبِّي وَأَنَا بِي رَحْمَةٍ مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ الْأَنْزَامُ كَمَا كَانَتْ لَهَا كَافِرُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فهو يجيبهم بأن النبوة رحمة من الله، وهدى من فضله، ولا يملك أحد من خلقه التحكم فيها فيمنحها من يشاء ويمنعها عن من يشاء، وخزائن رحمة الله بيده هو لا شريك له، ولذلك رد الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء على من أنكر أن يكون الرسول بشراً بدعوى أنه لا مزية لبشر على بشر فقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقال تعالى في سورة ص مثيراً لشبهتهم مبطلاً له حيث يقول: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا

بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَّمَّا يَدُوفُوا عَذَابِ ۙ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ [ص: ٨ - ٩]، وكأن نوحاً ﷺ يرد شبهة قومه فيقول لهم: ماذا أفعل لقلوبكم إذا كانت متحجرة لا تؤمن بالله ولا تصدق المرسلين، ولا تبحث عن أسباب سعادتها، وليست خزائن الله بيدي أتصرف فيها كما أشاء، بل خزائن الله بيده هو جل وعلا، يمنح من يشاء ويمنع من يشاء، فله وحده خزائن السموات والأرض، كما أن قلوب العباد بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا سلطان لي على قلوبكم ولا سيطرة لي عليها، ثم يبرز نوح ﷺ حجة قوية في الدلالة على رسالته وصدقه فيما يخبر به فيقول لهم: ﴿وَيَقُولُوا لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن آجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] أي أنا لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، مع أنني أدعوكم إلى أسباب سعادتكم في الدنيا والآخرة. إذ هو يدعوهم لأقوم المناهج وأحسن أساليب الحياة الطيبة؛ مما يجلب لهم عز الدنيا ورضوان الله في الآخرة لو ساروا على المنهج الذي جاء به نوح ﷺ. ولا شك أن من ينتصب للدعوة لإقامة هذا المنهج الراشد الذي يحفظ لهم أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم دون أن يطلب منهم أجراً في مقابلة عمله هذا الذي يعود عليهم بكل خير ويحفظهم من كل شر مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفترين وأذى السفهاء الجاحدين، لا بد وأن يكون صادقاً، ولا شك أن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين تدور في فلك الكليات الخمس، وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، والنسب، وحفظ العقل، وحفظ المال. وهي الأساس المتين للمجتمع المثالي السعيد، وقد دلت تجارب الإنسانية في تاريخها الطويل أنه ما استمسكت أمة بمنهج نبيها إلا عزت وسعدت، ولا انحرفت أمة عن منهج الأنبياء والمرسلين إلا ذلت وهانت، ولو أن جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم أرادت أن تضع لنفسها منهجاً يحفظ عليها مصالحها لأنفقت أموالاً جزيلاً على (اللجان والهيئات) التي تقوم بوضع المنهج الذي تطلبه والذي قد تقضي في إعداده الأشهر والسنين، ومع ذلك لا بد وأن يكون أبتراً قاصراً قد يحتاج إلى تعديل وتبديل وتعديل التعديل وتبديل التبديل مرات ومرات، كما هو الحال في

جميع الأنظمة الوضعية التي تتقاصر جملة وتفصيلاً عن منهج الأنبياء والمرسلين؛ لأن المناهج الإلهية يضعها العليم الخبير؛ لذلك تتسم بالكمال والشمول لمصالح الدنيا والآخرة والغيب والشهادة مما لا مجال فيه ألبتة للنظريات الوضعية والمناهج الأرضية التي لا بقاء لها ولا شمول.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث عشر

تابع: نوح عليه السلام

استمر نوح صلوات الله وسلامه عليه في رد شبهات قومه، ونبه إلى أمر خطير، وهو أن الفقراء لا ينبغي أن يهانوا، ولا ينبغي أن يذلوا بسبب فقرهم؛ وأن من يتعرض للفقراء بالإهانة والإذلال يعرض نفسه لعقوبة الله العاجلة والآجلة؛ ولذلك يقول نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنِ ابْنُ سِنْئَةٍ أَوْ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٢٩ - ٣١]، وهنا انقطعت حجة القوم وبان باطلهم وبطلت شبهتهم، فلم يجدوا إلا المكابرة واستعجال العذاب، فقالوا: ﴿يَكْفُرُ بِكَ الْكَلْبُ إِذَا جِلْدَتْهُ فَإِنَّهَا تَمُوتُ بِمَا كَفَرَتْ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] فأجابهم نوح عليه السلام بأنه ليس بيده تعجيل عقوبتهم أو تأجيلها، إنما تعجيل العقوبة أو تأجيلها بيد الله وحده، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] أي إذا أراد الله إنزال العقوبة بكم لا تستطيعون الفرار منها، ولا تتمكنون من دفعها عنكم، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمُ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فنواصيكم بيده، يحكم فيها بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وأنا لا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً، وإنما عليّ البلاغ، وفي هذا التنبيه إشارة كريمة جميلة إلى وجوب إخلاص التوحيد لله تعالى؛ لأن قلوب العباد بيد الله يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً، فمن علم في نفسه خيراً وفقه وسدده وأيده واستعمله في طاعته، ومن علم في نفسه شراً خذله، ووكله إلى نفسه، ومن كتب الله له الهداية لا يشقيه أحد، ومن كتب شقوته لا يهديه أحد.

ولذلك كانت زوجة نوح من الكافرين، بل جعلها الله قدوة سيئة لكل كافر إلى يوم القيامة، كما جعل امرأة فرعون مثلاً صالحاً وقدوة حسنة لكل مؤمن إلى يوم القيامة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَاهُمَا فَلَمَّا يُعْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنُوتِينَ ﴿التحرير: ١٠ - ١٢﴾.

الأسلوب نفسه الذي سلكه كفار قوم نوح مع نوح عليه الصلاة والسلام قد سلكه الكفار مع النبي محمد ﷺ، وسلكته سائر الأمم الكافرة مع أنبيائها ورسالتها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة ص حيث يقول: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿ص: ١٢ - ١٦﴾ أي قالوا: ربنا عجل لنا نصيبنا من العقوبة قبل يوم القيامة استهزاءً برسول الله، وكفراً بالبعث بعد الموت، إذ يقولون لأنبيائهم: نحن لا نصبر على تأجيل العذاب إلى يوم القيامة، فإن كان عندكم عذاب لنا فعجلوا به. يحسبون أن نظام الكون يخضع لشهواتهم وتمنياتهم واقتراحاتهم ويجهلون أن كل شيء عند الله بمقدار؛ لأنه ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]؛ ولذلك قال لهم نوح ﷺ: ﴿لَمَّا اسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]؛ لأن الأمور كلها ترجع إليه وترد جميع قضايا الكون له وحده لا شريك له؛ ولذلك ينبغي للعاقل أن يضرع إلى الله أن يثبت قلبه بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يكثر من قول: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي أو إلى أحد من خلقك طرفة عين، إنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجز وضعف وفاقه».

وبعد بيان موقف نوح ﷺ هذا لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى إثبات رسالة محمد ﷺ وصدقه فيما يخبر به، وهو النبي الأُمِّي ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن، فأخبر بما كان بين نوح وقومه ولم يكن شاهداً ولا دارساً حيث يقول ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]. وبها يثبت فؤاد محمد ﷺ ويبرز العبرة من سياق قصة نوح ﷺ، وكما أشار إلى نحو ذلك في سياقه قصة موسى ﷺ حيث يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦] وقد أخبر الله تبارك وتعالى نوحاً ﷺ أنه لن يؤمن من قومه بعد ذلك أحد حيث يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ أَمَنَ فَلَا نَبْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وهنا يتجلى موقف من المواقف الكبار لأنبياء الله ورسله، وكثيراً ما يقفونها، وهو أن نوحاً ﷺ لما استيأس من قومه وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وقف خطيباً بينهم وقال: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١]، يقول لهم: هاتوا جميع معبوداتكم من دون الله وحزّبوا أحزابكم وأصنامكم ضدي، وكونوا يداً واحدة عليّ وحاربوني إن قدرتم وكيدوا لي ما استطعتم ولا تمهلوني وانظروا أينما يؤيده الله ويسعده ويعزه ويعليه في الدنيا والآخرة.

وهذا مقام تتقاصر دونه مقامات كبار الرجال وصناديدهم من غير الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١].

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الرابع عشر

تابع: نوح عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى الموقف المعجز الذي وقفه نوح عليه السلام من قومه عندما قال لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنَّ كِبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وقد وقف مثل هذا المقام النبوي بعد نوح عليه السلام كما ذكر الله تبارك وتعالى عن هود أنه قال لقومه وقد تحزبوا عليه وتجمعوا وأصروا على الكفر والعناد: يا قوم ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٤ - ٥٦﴾، وسأنبه إن شاء الله تعالى على مثل هذه المقامات في مواقعها من قصص الأنبياء.

وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة نوح طرق دعوته التي ينبغي لكل داع إلى الله وَعَلَىٰ أن يتأسى به فيها، وأن يحرص على سلوكها، ولو أن الدعاة من المسلمين سلكوا الطرق التي سلكها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله لامتلأت الأرض بالإسلام، ولم يبق في الأرض إلا دين الله الذي بعث به حبيبه محمداً ﷺ، فقد ذكر الله تبارك وتعالى عن نوح عليه السلام أنه كان يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً حيث يقول وَعَلَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥٦﴾ فَلَمَّ بَرَدَهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥٧﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آدَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٥٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٥٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٦٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٦١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٦٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٦٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ٥ - ١٤]، فنوح عليه السلام كان يقضي سحابة نهاره

وسحابة ليله في الدعوة إلى الله وَعَلَيْكُمْ وفي قوله: ﴿وَإِنِّي كُنَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بيان جلي لأهداف دعوة الأنبياء والمرسلين، فهي دعوة العباد لمغفرة الله وَعَلَيْكُمْ ولرضوان الله عليهم، وفي هذا النص الكريم بيان لأساليب الدعوة من أبي كبر الأنبياء وأول أولي العزم من المرسلين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد شرح نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقام آثار الاستغفار، وبين أن الاستغفار يجلب للمستغفرين خير الدنيا والآخرة، فهو من أعظم أسباب نزول الأمطار الصالحة للعباد والبلاد، وهو من أعظم أسباب رغد العيش ووفرة الأموال والأولاد، وزينة الحياة الدنيا وتيسير وجود المزارع والجنات وجريان الأنهار والمتاع الحسن ومنح العباد صحة ونشاطاً.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً ومحمداً عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نبها إلى هذه الآثار للاستغفار في قوله تعالى في دعوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمَتْ ءَابِنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمِ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَفْعَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْتَبِكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١ - ٣]. وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَفْعَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُرْمِيْنَ﴾ [هود: ٥٢] وفي قوله تعالى في هذا المقام من سورة نوح: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ - ١٤]، أي ما لكم لا تخافون عظمة الله ولا تأملون ما عند الله، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، إذ كنتم أولاً نطفة، ثم صرتم علقة، ثم مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقد فسّر بعض الجاهلين الغاوين في عصرنا الأطوار التي ذكرها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله وقد خلقكم أطواراً بأنها دليل على صحة نظرية داروين في التطور والارتقاء، وأن الإنسان كان في أول وجوده حيواناً بحرياً كالسمك، ثم حيواناً برياً كالقرود والحمير، ثم تطور وارتقى حتى صار على هذا الحال المشاهد، وفي ذلك يقول بعض هؤلاء الغواة الضالين: لقد فضح الجنين القصة، يعني قصة

التطور والارتقاء وأطوار خلق الإنسان، فإن الجنين عندما يبدأ تكوينه في بطن أمه يكون كالسمكة تماماً له زعانف وخياشيم، ثم يغطي جسمه بالشعر كالقروذ تماماً، ثم ينحسر الشعر عن مواضع من جسمه كالإنسان تماماً، لقد فضح الجنين القصة كما فضح مبضع الجراح القصة، فإن مبضع الجراح وهو يعمل خلف الأذن البشرية اكتشف عضلات ميتة هي التي كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير. وهذا الذي قاله هؤلاء الدهريون محض اختلاق في جملته وتفصيله، وقد ذكرت في قصة خلق آدم أسباب فساد مقالة هؤلاء.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس عشر

تابع: نوح ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى أن بعض الغواة من المعاصرين فسر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] بأنها تدل على صحة نظرية (داروين) في التطور والارتقاء. وبيّنت فساد مذهب هؤلاء، وسقت الدليل القطعي على تفسير هذه الأطوار في كتاب الله ﷻ، وأشرت إلى ما ذكرته كذلك عنها في قصة خلق آدم ﷺ من قصة آدم. وأشرت هناك إلى أن جميع المؤمنين بالله ورسله يكفرون بنظرية (داروين) هذه، وإنما يروج لها اليهود والماسونيون لزعزعة العقائد وإبطال الشرائع كما جاء النص على ذلك في (بروتوكولات حكماء صهيون).

هذا وقد بيّن الله تبارك وتعالى أن نوحاً ﷺ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يرد خبر صحيح عن سنّه يوم بعثه الله ﷻ إلى قومه، وقال بعض الناس إنه بعث وهو ابن خمسين سنة، وبعض الناس يقول: إنه بعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة، والله وحده يعلم كم كانت سنه وقت بعثته ما دام لم يرد عن الله أو عن رسوله ﷺ شيء في ذلك. كما لم يبين الله ﷻ أو رسوله محمد ﷺ المدة التي عاشها نوح ﷺ بعد الطوفان، ولم يرد في حديث صحيح شيء من ذلك، لكن يبين الله تبارك وتعالى أن نوحاً لما استيأس من قومه بعد أن أعلمه الله ﷻ أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره الله ﷻ أن يصنع الفُلْكَ وبيّن له أن الكافرين من قومه مغرقون، وأنه لا يبتئس بما كانوا يفعلون، وأشار الله ﷻ إلى سخرية قومه منه وهو يصنع السفينة، وأنه لما حُمّ القضاء فجّر الله الأرض عيوناً وفتح أبواب السماء بماء منهمر، فركب نوح والمؤمنون وحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة «الصافات»: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ

﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٨٢﴾ [الصفات:
 ٧٥ - ٨٢]، وقال في سورة «القمر»: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون
 وازدجر ﴿٩﴾ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴿١٠﴾ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴿١١﴾ وفجرنا
 الأرض عيوناً فاللقى الماء على أمرٍ قد فدر ﴿١٢﴾ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴿١٣﴾ تجرى باعينا
 جزاء لمن كان كفر ﴿١٤﴾ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴿١٥﴾ فكيف كان عدابي ونذر ﴿١٦﴾
 ولقد يسترنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر: ٩ - ١٧]، وقال تعالى في سورة
 «الحاقة»: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُمُ فِي الْحَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءَ آذُنٍ وَعِيبَةً ﴿١٢﴾
 [الحاقة: ١١ - ١٢]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
 فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِضْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦ - ٧٧]، وقال تعالى في سورة
 المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ
 عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
 رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَثَرَبِصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني بما كذبتون ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا
 إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
 كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ أَلْحُدْ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنْ
 الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزلي منزلاً مباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ
 كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٣٠]، وقال في سورة هود: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن
 يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتس بما كانوا يفعلون ﴿٣٦﴾ واصنع الفلك بأعيننا
 ووحينا ولا تخطن في الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ
 مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
 نَعْلَمُونَ مَنْ بَأْيِهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
 وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حَجْرِبَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ [هود: ٣٦ - ٤١].

والمشهور عند الأمم أن الذين ركبوا في السفينة مع نوح من المؤمنين هم ولده سام وحام ويافث وزوجاتهم وزوجة يام الذي كان مع الكافرين، وقد حمل نوح في السفينة ما شاء الله أن يحمل من الأزواج، وبعض الناس يغالي فيقول: حمل كذا وحمل كذا، ويعين ويحدد أسماء لم تثبت عن الله ولا عن رسوله ﷺ، ومن الغرائب العجائب أن بعضهم يقول: لما أركب نوح الأسد في السفينة وأركب الفأر خاف الناس وقالوا: يا نوح إن الفأر يفسد علينا طعامنا، فأوحى الله إلى الأسد أن اعطس فعطس الأسد، فخرجت من منخاره هرة فخاف الفأر واختبأ، وقال الناس: يا نوح إنا نخاف من الحيوانات المتوحشة فألقى الله عليها الحمى... إلخ.

فهذه حكايات وخرافات لا يثبت مثلها عن الله ولا عن رسوله ﷺ، وينبغي للمسلمين أن يترفعوا عن إيراد مثل هذه الخرافات، ولا ينبغي للإنسان أن يتكلم عن الله أو عن رسول من رسله إلا بعلم وبينه، ولا نكون كأهل الكتاب الذين ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وقد أعدَّ نوح سفينته من الخشب والمسامير، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ وُدُسِرٌ﴾ [القمر: ١٣] أي على سفينة مكونة من الخشب والمسامير، فالدسر جمع دسار وهو المسمار، وقد علمهم الله ﷻ أنهم عندما يركبون السفينة يبدوون بحمد الله وشكره حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوَّامِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال نوح لهم: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِدَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكانت في معزل يبتئ أركب معنا ولا تكلم مع الكافرين (٤٢) قال سواوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴿هود: ٤١ - ٤٣﴾.

وهذا تنبيه إلى أن قلوب العباد بيد الله لا يملكها نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولا يُصرفها حيث يشاء إلا الله وحده؛ ولذلك كان من ذرية الأنبياء

المؤمن والكافر؛ ولذلك يقول الله ﷻ في إبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات: ١١٣]، وقال في نوح وإبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد استقرت سفينة نوح على الجودي بعد أن قيل: ﴿يَتَأْرَضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَعِي وَغِيضَ أَلْمَاءِ﴾ [هود: ٤٤]. والجودي عند أكثر أهل العلم جبل، وأنه في الجزيرة بالعراق، وبعضهم يقول: هو في جبال أارات التي تقع فيما يسمى الآن بالاتحاد السوفيتي. ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلِيكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمُرْ لِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧] وهذا المقام من نوح ﷺ صدر عن ظن منه أن قوله: ﴿أَحْمَلُ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] أن ولده من أهله، فبين الله أنه ليس من أهله؛ لأنه غير صالح؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص: ﴿إِنَّ آلَ أَبِي يَعْنِي فَلَانًا لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد فسر بعض الناس قوله: ﴿لَيْسَ مِنِّي أَهْلِيكَ﴾ [هود: ٤٦] على أنه ولد زنا، وهذا خطأ، فإنه لم تزن زوجة نبي قط مع أنها قد تكفر بالله كزوجة نوح وزوجة لوط؛ ولذلك جاء في القراءة الأخرى إنه عمل غير صالح، وهي تفسر قوله في القراءة الأولى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. وكم من ولد يعق أباه! وكم من رجل صالح يخرج من صلبه ولد فاسد! وما أجود قول حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ورضي عنه:

أبوك أب حر وأمك حرة وقد يلد الحران غير نجيب

فلا يعجبن الناسُ منك ومنهما فما خبث من فضة بعجيب

ولما نبه الله ﷻ نوحاً إلى حال ولده الكافر اعتذر نوح إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ

رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ
 الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ
 سَنُرْسِلُهُمْ فِيهِمْ يُمَسِّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ [هود: ٤٧ - ٤٨]، سلام على نوح في
 المرسلين .

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس عشر

قصة هود عليه السلام

نتحدث إليكم عن هود عليه السلام، وهو أول رسول عربي ذكر الله قصته في القرآن الكريم، ولم نقف على عمود نسبه في خبر صحيح. فقد اختلف المؤرخون في عمود نسبه، فبعضهم يقول: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود أو جاور بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكل هذه الأقوال لا يمكن الاعتماد عليها؛ لأنه لم يبق على إثباتها دليل صحيح، مع أن هوداً عليه السلام جاء لعاد بعد أن صاروا أمة عظيمة، فكيف يكون بينه وبين سام بن نوح أبوان على الرواية الأولى والثانية، أو كيف يكون عاد هو جده الثاني على الرواية الثالثة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً عليه السلام أرسل إلى عاد، وأنهم كانوا يسكنون الأحقاف الواقعة باليمن بين عمان وحضرموت المطلة على البحر بناحية الشحر وتصل إلى الدهناء وعالج، وكانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جناناً، والأحقاف جمع حقف: وهو المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير، أو المستطيل المشرف، وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الأحقاف، وكانت قبيلة عاد التي أرسل إليها هود عليه السلام من أشد الأمم قوة ومن أعظمهم بطشاً وأوفرهم أجساماً، لم يخلق مثلها في البلاد، ويقال لهم: عاد إرم، وعاد الأولى أي المتقدمة في التاريخ احترازاً من عاد الثانية، وهي ثمود قوم صالح عليه السلام، وقبيلة عاد من العرب العاربة، وقد ذكر كثير من المفسرين أنهم أول الأمم بعد قوم نوح عليه السلام؛ مستدلين بأن الله تبارك وتعالى ذكر في غير موضع من كتابه الكريم قوم هود عليه السلام بعد ذكر قوم نوح عليه السلام، كما في سورة الأعراف وهود والشعراء

واقتربت الساعة، على أن ذكر الله تبارك وتعالى لهود بعد نوح في هذه السورة الكريمة لا يدل على أن هوداً جاء بعد نوح مباشرة، وأن قوم هود هم أول من أشرك بالله بعد الطوفان؛ لأن الله تبارك وتعالى قال عن هود في سورة الأحقاف: ﴿وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال في سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣ - ١٤]، فهو صريح بأن هوداً عليه السلام تقدمه منذرون مرسلون من الله ﷻ لم يذكر الله ﷻ قصصهم على حد قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. غير أن سياق القرآن العظيم لقصة هود بعد نوح وتذكير هود قومه بقصة نوح في قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، يشعر بقرب زمان قوم هود من قوم نوح، وأن عاداً كانوا على علم تام بقصة الطوفان.

وقد اشتملت قصة هود عليه السلام في القرآن العظيم والسنة النبوية على نقاط منها: أن أهم مهمات دعوة المرسلين هي تخليص قومهم من الشرك بالله، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]. وقال في سورة الأحقاف: ﴿وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. ومن نقاط قصة هود عليه السلام لفت انتباه قومه إلى أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً، وهو شأن جميع المرسلين، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة هود عن هود عليه السلام: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. وقال عنه في سورة الشعراء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠]، ولا شك أنهم لو كانت لهم عقول لسارعوا إلى تصديقه ما دام أنه قد تصدى لهذا الأمر

العظيم دون أن يطلب من أحد من خلق الله أجراً على ذلك مع ثقل المهمة التي يؤديها.

ومن نقاط هذه القصة أن رسل الله كانوا يدعون قومهم ويدلونهم على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وأن الرجوع إلى الله والابتعاد عن المعاصي، والوقوف عند حدود الله، هي أعظم أسباب سعادة العاجلة والآجلة، وفي ذلك يقول الله تعالى في قصة هود في سورة هود: ﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَعْتَفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وهذا كقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٥٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَأَنْبِيَاءٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٥٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]. وكذلك عن محمد عليه السلام في مطلع سورة هود: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

ومن نقاط هذه القصة بيان أن الكافرين عندما يعجزون عن مجابهة الحجج التي يأتي بها الرسول وتبدو عليهم الحيرة فلا يجدون شيئاً يردون به سوى أنهم يخافون على هذا الرسول من آلهتهم أن تصيبه بسوء. وهنا يظهر التحدي الكبير بين الرسول وهو وحده أمامهم بأنه لا يخاف آلهتهم؛ لأنها تعجز أن تمسه بسوء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٣ - ٥٤] إن نقول إلا أَعْرَضْنَا عَنْ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٤] فيكون التحدي الكبير حيث يقول: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤] من دُونِي فِكَيْدِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٥] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧]. وموقف هود عليه السلام هذا شبيه بموقف نوح عليه السلام، حيث قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كَانِ كَبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً تَرْغَبُونَ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ [يونس: ٧١]، وهو شبيه أيضاً

بموقف إبراهيم عليه السلام حيث قال لقومه لما خوفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ .

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع عشر

تابع: قصة هود عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن نسب هود عليه السلام وعن الأمة التي بعث إليها، وعن أرضهم، وقوة بطشهم، وبعض المهمات التي برزت في دعوته عليه الصلاة والسلام، ونتحدث في هذا الفصل عما جلاه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم في قصة هود عليه السلام وتحزب قومه عليه وتحذيره لهم من عقوبة الله، وكيف كان عذاب الله عز وجل لهم؟ وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة هود في كتابه الكريم في مواضع شتى من القرآن العظيم على سبيل الإطناب حيناً، والمساواة حيناً، والإيجاز حيناً آخر، بما يناسب كل مقام من مقامات إيراد قصة هذا النبي العظيم.

ففي سورة الأعراف يقول الله عز وجل: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدِيثُ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ يُعْبَدُ ءَابَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ۖ أَنْتُمْ لِنُؤْمِنُونَ فِي أَسْمَاءِ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَعَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاذْكُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْمَعْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢].

وفي سورة هود يقول عز وجل: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ الْيَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِئَابِئِنَّا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي فَكَّرْنَا بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ آدَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿هود: ٥٠ - ٦٠﴾.

وفي سورة الشعراء يقول الحق جل وعلا: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْفِقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَانْفِقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُونَ ﴿١٣١﴾ وَانْفِقُوا الَّذِي آمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَعْيُنٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠﴾.

وقال ﴿عَلَّ﴾ في سورة فصلت متهدداً قريشاً بمثل عقوبة عاد وثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مِنْ سَمَاءٍ مَلَكًا كَمَا كَفَرُوا ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿فصلت: ١٣ - ١٦﴾.

وقال وَجَّكَ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ
النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾
قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأِنَّا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾، ثم
يُصِفُ الْعَذَابَ الَّذِي حُلَّ بِهِمْ فَيَقُولُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا
عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا
فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ
مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْعَادَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْعَادَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾
[الأحقاف: ٢٤ - ٢٦].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذُرُ
مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢]. وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٤٩﴾ [النجم: ٥٠]، وقال في اقتربت الساعة: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿٤٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٤٩﴾ نَزَعُ النَّاسَ كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلِ مُفْعَرٍ ﴿٥٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٢﴾ [القمر:
١٨ - ٢٢]، وقال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦١﴾
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرَغِي كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
﴿٦٢﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٦٣﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]. وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦١﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٦٣﴾ [الفجر: ٦ - ٨].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت
رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم،
وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله،
إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عُرف
في وجهك الكراهية؟! فقال: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب
قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا﴾».

كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الرياح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا غُيِّت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنًا﴾».

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

والى الفصل القادم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن عشر

قصة صالح عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن صالح نبي الله ورسوله عليه السلام. وهو ثاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامه عليهما، بعثه الله في جزيرة العرب، وقد أرسله الله ﷻ إلى قومه ثمود، وقد ذكر علماء النسب أنه صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ أو ماسح بن عبيد بن حاجر أو حادر بن ثمود بن عابر أو عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وكان قومه يسكنون الحجر، وهي الأرض المعروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالح، وتقع على بعد نحو ثمانين وثلاث مئة «كيلومتر» شمال غرب من المدينة المنورة، ويقع في جنوبيها الآن مدينة العلا، ولا يزال بعض آبارها ولا سيما البئر المعروفة ببئر الناقة باقية إلى الآن، كما لا تزال آثار ثمود من البيوت والمقابر موجودة حتى الآن، وبخاصة البيوت التي كانوا ينحتونها في الجبال.

وكانت ثمود يعيشون آمنين في بساتين وارفة الظلال كثيرة العيون، وزروع ونخل طلعتها هضيم، يتخذون في سهول الأرض قصوراً، وينحتون من الجبال بيوتاً آية في الحذق والمهارة والزينة. وقد يسر الله ﷻ لهم أسباب رغد العيش، وكانوا أقرب الأمم التي جاءت بعد قوم هود عليه السلام، وكانوا على علم بخبرها وما أوقعه الله بهم من سوء العذاب لما كفروا بربهم وعبدوا الأصنام والأوثان، غير أن ثمود أظغتهم النعمة، فجحذوا بآيات ربهم وكفروا بآلائه، فبعث الله ﷻ إليهم رسولاً منهم هو صالح صلوات الله وسلامه عليه، فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ وإفراده بالألوهية، والربوبية، والإقرار بأسمائه الحسنی وصفاته العلا، وذكرهم نعم الله عليهم وخوفهم من عقوبته، ونبههم إلى أن استمرارهم في الشرك بالله وجحودهم نعم الله قد ينزل بهم ما نزل بقوم هود، وقد أجابه إلى الله ﷻ

المستضعفون منهم، وأبى المستكبرون أن ينيبوا إلى الله و﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢].

وطلبوا منه آية: فأخرج الله ﷻ لهم الناقة من الصخر. وقال لهم صالح ﷻ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وكان من آيات الله في آية الناقة أنها كانت تشرب من الماء ما يكاد يقضي على مياههم، فاتفق صالح ﷻ معهم على اقتسام الماء بينهم وبين الناقة، فتشرب يوماً لا يشاركونها في الماء، ويشربون يوماً لا تشاركهم الناقة في شربهم، ومع أن هذه الآية تبهر العقول، فيها الدليل القاطع والبرهان الساطع على صدق صالح عليه الصلاة والسلام، فهي آية مبصرة، وحجة قاهرة، ومع ذلك فقد استمر المستكبرون على عنادهم، وأصرروا على كفرهم وضلالهم، وحاولوا أن يحولوا بين المؤمنين وبين صالح رسول الله ﷺ، وعملوا على إثارة الشبه في دعوة صالح ﷻ، وقد منع الله عنهم المطر تخويفاً وإنذاراً، فقال المستكبرون: إن صالحاً سبب جذب بلادنا ومجيئه شؤم علينا، وأتباع المؤمنين به له محق لبركة أرضنا ومياهنا، وقالوا لصالح: ﴿أَطْرَقْنَا بِكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَطَّرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] وسبب شؤمكم منكم، فرسل الله هم وجوه البر والخير، وهم أسباب سعادة الإنسانية إن استمسكت بمنهجهم وعملت بتعاليمهم، وأرشدهم ﷻ إلى أن توبتهم إلى الله والاستغفار من السيئات يجلب لهم خير الدنيا والآخرة، وقال: ﴿لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] فلم يستجيبوا له وقالوا للمؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبَكُمْ مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأعراف: ٧٥]، قال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] وعصوا رسله، واجتمع زعماءهم على أن يعقروا الناقة، فانبعث لها أشقى ثمود، وهو رجل عارم عزيز منيع في رهطه

فَعَقَرَهَا، وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ ﴿وَقَالُوا يَصْلِحُ أَمْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وَأَصْرًا تِسْعَةَ رَهْطٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَإِحْقَاقِهِ بِالنَّاقَةِ وَ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ [النمل: ٤٩] أَي لَنَكْبِسَنَّهُ فِي دَارِهِ بِاللَّيْلِ مَعَ أَهْلِهِ فَلَنَقْتُلَنَّهُ وَلَنَجْحَدَنَّ قَتْلَهُ، فَلَنَقُولَنَّ لِأَوْلِيَاءِ دَمِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِيهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، وَدَبَرُوا وَدَبَرَ اللَّهُ فَجَاهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمُ الصَّيْحَةَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَرَجَفَةَ مِنْ تَحْتِهِمْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٠] فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[النمل: ٥٠ - ٥١]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [٦٦] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِثْمُودَ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨]. وَكَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَعَفَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَمْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧٧] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَنَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَافُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧ - ٧٩]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ [٨٣] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ - ٨٤]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَادَّأُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [٢٩] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَظِيرِ﴾ [القمر: ٢٩ - ٣١] وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [١١] إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

هذا ولا وجود لذكر عاد وثمود في الكتب التي بيد اليهود والنصارى، مما يشعر بأنهم حرصوا على إزالة كل ذكر للنبوذة في الأمة العربية حسداً للعب وكراهية أن تكون النبوذة في غير بني إسرائيل.

الفصل التاسع عشر

تابع: قصة صالح عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن صالح عليه السلام، وأشارت إلى أنه ثاني رسول عربي بعد هود عليه السلام، وذكرت مساكن قومه ثمود، ونسبهم وطبيعة أرضهم وما آفأ الله عليهم، وما كانوا عليه من الشرك والفساد، وأن صالحاً عليه السلام بدأ بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان، وأن المستضعفين سارعوا إلى الإيمان به، وكفر المستكبرون، وأشارت إلى ما كان منهم من عقر الناقة ومكرهم في تبييت صالح عليه السلام وكيف نجاه الله منهم، وأنزل بهم عقوبته، وذكرت أن هوداً وصالحاً صلى الله عليهما وسلم لا ذكر لهما ولا لقوميهما في كتب اليهود والنصارى، مما يشعر بحرصهم على إزالة كل ذكر للنبوة في الأمة العربية؛ حسداً للعرب وكراهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل.

ونشير هنا إلى أنه ورد في القرآن العظيم ما يشعر بأن نبي الله موسى عليه السلام حذر قومه أن يحل بهم ما أوقعه بقوم هود وقوم صالح صلى الله عليهما وسلم كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنْتَ اللَّهُ لَعَنِي حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ٨ - ١٠]، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة صالح عليه السلام في مواضع من كتابه الكريم بأساليب تناسب كل مقام من مقامات إيراد هذه القصة، كما قرنه مع كثير من أنبياء الله ورسله، وفي ذلك يقول في سورة الأعراف: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ نَنْخُذُوكَ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مُرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَضَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿[الأعراف: ٧٣ - ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وإلى ثمود آحاهم صالحاً قال يَفْقَرُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] يعني جعلكم عمار الأرض ويسر لكم أسباب عمارتها بما هيا فيها وأنبت من الزروع والشمار ﴿فَأَسْتَعْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا يُصَلِّحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَلْنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَفْقَرُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرَّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَفْقَرُوا هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بَعْدًا لِمُؤْمِدٍ ﴿[هود: ٦١ - ٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَءَابَأْتَنَّهُمْ ءَابِنَا فكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[الحجر: ٨٠ - ٨٤].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

الْأُولَؤُنَّ وَءَايَاتِنَا تَمُودَ أَلِنَاقَةَ مُبْصِرَةً ﴿﴾ [الإسراء: ٥٩] «أي آية واضحة جلية ومعجزة ظاهرة دالة على وحدانية الله مرشدة إلى أنه لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه». ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ «أي جحدوا هذه الآية وكفروا بها ومنعوا الناقة من شربها وعقروها» ﴿وَمَا نُزِّلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُكُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلِ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٤٩] «أي حاذقين في صنعها وإحكامها وإتقانها» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَآ شَرِبَ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٩].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِغْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَغَرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهَطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿﴾ [النمل: ٤٥ - ٥٣].

وقال في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صِعْقَةُ الْعَذَابِ لَهُونٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿﴾ [فصلت: ١٧ - ١٨].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَبَتْ نَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ؟ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهَلَقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمَلُونَ عَدَا مِنْ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَنَّا لَهُمْ فَارْتَفَعَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾ وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّأُوا صَاحِبَهُمْ فَنَعَطَى فَعَفَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذُرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٣ - ٣١] أي صاروا كالمتفتت من يابس الزروع في حظيرة الماشية.

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ نَمُودُ بِطَعُونَهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل العشرون

إبراهيم عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وخليل الرحمن، وأكثر الناس شبهاً بخلق وخلق محمد ﷺ، وأحد السادة الكبار من أولي العزم من المرسلين، الأمة، القانت، الحنيف، الأواه، الحلیم، إبراهيم عليه السلام، وأبوه آزر من ذرية سام بن نوح عليه السلام، وقد ولد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والأوثان، ويسجدون للكواكب السبعة، ويقيمون الهياكل لها، فبعث الله إليهم إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده، واتخذ في دعوته من سبيل الإرشاد ما تقوم به الحجة، وتنقطع به الشبهة، وقد ساق الله تبارك وتعالى صوراً من أساليب دعوة إبراهيم عليه السلام في محاورته لقومه، وإرشادهم إلى الله تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ﴿﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٧٥] أي: نبين له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الأَيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: أهذا يصلح لأن يكون رباً يُعْبَدُ ﴿فَلَمَّا أَفَلَّ﴾ أي فلما غاب هذا النجم الذي يعبده قومه ﴿قَالَ لَآ أَحِبُّ الأَفْلَاقَ﴾ [الأنعام: ٧٦] «وهذا أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم» ﴿فَلَمَّا رَءَا الأَقْمَرَ بَارِزًا﴾ أي: طالعا، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ «أي: أهذا يصلح لأن يكون رباً يُعْبَدُ؟»، ﴿فَلَمَّا أَفَلَّ قَالَ لِيْن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] «وقد أراد ﷺ بهذا القول أن يستدرج قومه ويُعرفهم جهلهم، وخطأهم في تعظيم وعبادة هذه الكواكب الآفلة، وأن ناصية الخلق بيد الله وحده، فمن لم يهده الله فلا هادي له»، ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ

بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴿٧٩﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩] «أي: مائلاً إلى الدين القيم» ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. «وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائغ شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب، وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٣٤]. أي: أفهم الخالدون؟

ويشير القرآن العظيم إلى موقف قومه من هذه الحجة البالغة وأنهم لما انقطعوا لجؤوا إلى تخويفه من بطش آلهتهم به، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٣].

ويذكر الله ﷻ صورة أخرى من صور قيام إبراهيم عليه السلام ببيان أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وأن غيره من معبوداتهم لا تسمع ولا تنفع فيقول ﷻ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٠] «سألهم عن معبوداتهم ليبيني على جوابهم أن هذه الآلهة لا تستحق شيئاً من العبادة ليقطع شبهتهم» ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا ﴿٧١﴾ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ ءَوْبَابُكُمْ أَفَأَفْذَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجِيبُنِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ [الشعراء: ٧١ - ٨٦]. «وهذا كان بسبب موعدة وعددها إبراهيم فهم منها إبراهيم عليه السلام أن أباه مقارب

للايمان، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم يستمر إبراهيم في ضراسته إلى الله وبسط دعوته لقومه فيقول: ﴿وَلَا تُخْرِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ اتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]؛ وفي صورة مشرقة من صور عرض دعوة إبراهيم ﷺ وموقفه من قومه بعد أن استجابت له زوجته سارة ولوط ﷺ يقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴿[الممتحنة: ٤]﴾ «أي فلا تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤ - ٦].

ويصف الله تبارك وتعالى موقفاً مشرقاً من مواقف إبراهيم ﷺ مع أبيه آزر فيقول: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمَتِي وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ «أي: عظيم اللطف بي كثير الإحسان إلي» ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

وفي موقف آخر من مواقف إبراهيم ﷺ مع أبيه وقومه يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ

السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ
بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُنَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا
مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ (أَي: يَطعن
عليهم ويسبهم) يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبْرَهُمْ هَٰذَا فَسْتَأْذِنُوا إِنْ
كَانُوا يَبْطِفُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا
عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٧٠].

ويسوق الله ﷻ قصة ملك الكلدانيين في استجوابه لإبراهيم عن ربه وقول
إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فيتناول هذا الملك ويقول: ﴿أَنَا أُحْيِي
وَأُمِيتُ﴾، فيفحمه إبراهيم بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
الْمَغْرِبِ﴾ فينقطع هذا الكافر وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا
أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ
الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أن إبراهيم قد جرت هذه المناظرة بينه وبين
الملك لما قدم لطلب طعام منه، وأن الملك رفض إعطائه الطعام، وأن إبراهيم قد
اشتد حزنه عندما اقترب من منزل أهله وأنه كيف يدخل على سارة وإسحاق ولده
دون طعام، فعمد إلى كتيب من التراب فملاً جرابيه منه ليؤنس أهله، فلما نام انقلب
التراب دقيقاً أبيض خالصاً، فلما فتحت سارة الجراب وجدت الدقيق فصنعت طعاماً
منه، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام، فقال: من أين لك هذا؟ قالت: من جرابك.
إلخ. فهذا كذب ظاهر ولا أصل له بحمد الله، وإسحاق لم يولد إلا بالشام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والعشرون

تابع إبراهيم ﷺ

تحدثت في الفصل السابق عن صور مشرقة من دعوة إبراهيم ﷺ، وذكرت في آخرها ما كان من المناظرة بين الخليل ﷺ وبين ملك الكلدانيين الذي حاج إبراهيم في ربه، وكيف أقام إبراهيم ﷺ الحجة الدامغة، فبهت الذي كفر، ولم يزل إبراهيم ﷺ يوالي دعوة قومه إلى الله، ويحاول إخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمْرٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٦٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٧١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٧٥﴾ فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿العنكبوت: ١٦ - ٢٦﴾.

وقد هاجر إبراهيم ﷺ ومعه زوجته سارة ولوط إلى الشام، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي

بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧١].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى تعاون الوزغ مع قوم إبراهيم في محاولة إحراقه، وأن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وفي لفظ البخاري: «كان ينفخ على إبراهيم».

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اختتن إبراهيم النبي ﷺ وهو ابن ثمانين سنة بالقدم».

وقد نزل إبراهيم عليه السلام بالشام وهي بلاد الكنعانيين ومعه زوجته سارة ولوط، فأرسل الله ﷻ لوطاً إلى أهل سدوم وعمورة ونواحيها من دائرة الأردن. وسار إبراهيم وسارة إلى مصر. فأخبر ملك مصر بجمال زوجة إبراهيم، وأغرى بها فنجأها الله منه، وأخدمها هاجر، فوهبتها لإبراهيم، فرزقه الله منها إسماعيل عليه السلام، ورجع إبراهيم بأهله إلى الأرض المقدسة بفلسطين، وصار بين سارة وهاجر بعض الشيء لما قضاه الله ﷻ أن يعمر ولدها إسماعيل مع أبيه البيت الحرام بمكة، فهربت هاجر من سارة، وأمر الله ﷻ إبراهيم أن يحمل هاجر وإسماعيل لمكة.

واتخذت هاجر منطقاً تشد به وسطها وترسل طرفه كذيل خلفها يُعفي آثارها على سارة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حتى بلغ

﴿يَشْكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها. فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريئاً أو جريين «أي رسولاً أو رسولين» فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس»، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسَهُم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع

تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا وفي رواية يصيد لنا، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليها السلام وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي عليه السلام: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليها السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أنا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أننا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ووضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثاني والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى مجيء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وهاجر إلى مكة، وذكرت ما أورده البخاري في صحيحه عن هذه القصة، وعن نشأة إسماعيل عليه السلام، وما كان من شأنه مع قبيلة جرهم، وتعلمه اللسان العربي ومساعدة أبيه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة بناء الكعبة في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٩].

وقال عليه السلام: ﴿وَإِذْ أُنْتَبِئَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاجْتَدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩]. كما أشار الله عليه السلام إلى ما كان من إبراهيم في وضعه هاجر وإسماعيل عند مكان البيت

حيث يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقد استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم فجعل هذا البيت آمناً، يجبي إليه ثمرات كل شيء، كما قال ﷺ: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].
وكما قال ﷺ: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْحَضَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]..

كما استجاب الله تبارك وتعالى إلى دعاء خليته إبراهيم فأرسل محمداً ﷺ من ذرية إسماعيل أهل البيت الحرام يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ ولذلك جاء في الحديث الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشري عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». كما جاء في مسند الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والعرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ لأبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كما ذكر الله تبارك وتعالى قصة هجرة إبراهيم ﷺ وبشارته بإسماعيل وقصة رؤياه بذبحه فقال: ﴿وَإِن مِنْ شَيْعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَتَنَزَّرْنَا فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصفوات: ٨٣ - ٨٩]. وكأنه ﷺ أراد أن يفرقهم ليعتدوا عنه حتى يتفرغ لتحطيم أصنامهم بإيهاهم أنه مريض حتى لا يلامسوه وبخاصة بعد نظرته في النجوم، ونظرته ﷺ في النجوم لم يقصد بها أن يتعرف من النجم عن حالته، كما أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لم يرد بها أنه مريض بمرض معد، وإنما أراد في نفسه أنه ضعيف، وكل ابن آدم ضعيف مهما كانت صحته. وقد خلق الإنسان ضعيفاً، فهذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، حاشاه ﷺ أن يكذب، على أنه قد يطلق على المعاريض أنها كذب باعتبار حقيقة المراد، لكنه ليس الكذب المذموم بل هو كإطلاق الحسد على الغبطة، في مثل قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

وقد فسّر عامة العلماء الحسد في هذا الحديث، بأنه الغبطة، إذ الحسد المذموم هو تمني زوال النعمة عن الغير، ولا شك عند أهل العلم أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وكذلك لما سأله ملك مصر عن سارة فقال: إنها أختي لا شك عند العلماء أن ذلك ليس من باب الكذب المذموم، وإنما هو من باب التورية والمعاريض.

ثم قال تعالى: ﴿فَنُؤَلِّقُ عَنْهُ مُدْرِيْنَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَيَّ الْهَنِيْهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُوْنَ﴾ [الصفات: ٩٠ - ٩١] «لأن الكفار قد جعلوا عند أصنامهم طعاماً» ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُوْنَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِيْنِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُؤْنَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيْمِ ﴿٩٧﴾ فآرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِيْنَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِيْنَ﴾ [الصفات: ٩٢ - ٩٩] «أي إني مهاجر إلى الله ﷻ من دار الكفر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وأملي في الله ﷻ أن يرشدني إلى سبيل الخير وما فيه صلاح ديني ودياري».

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيْمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِيْنَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴿١٠٣﴾ [الصفات: ١٠٠ - ١٠٣] «أي انقادا لأمر الله» ﴿وَنَلَّهُمُ الْجَبِيْنَ ﴿١٠٣﴾ وَوَدَّيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُو الْبَلْتَوُا الْمُئِيْنُ ﴿١٠٦﴾ وَوَدَّيْنَاهُ بِذَبِيْحٍ عَظِيْمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِيْنَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِزْرَاهِمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِيْنٌ﴾ [الصفات: ١٠٣ - ١١٣].

ولا شك أن سياق هذه الآيات الكريمة يدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق عليه السلام؛ لأنه ذكر البشارة بإسحاق بعد البشارة بإسماعيل الذي وصفه بأنه غلام حليم، وقد وصف إسحاق عند البشارة به بأنه غلام عليم، ومن الأدلة أيضاً

على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أنه عند البشارة بإسحاق قال: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهو يفيد أن إسحاق سيعيش ويولد له في حياة أبيه، فيكف يؤمر بذبحه وهو غلام لم يولد له بعد، مع يقينه بأنه لن يموت حتى يولد له يعقوب، وقد حدث ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم فقال: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. يقول بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً، وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة، إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم، الذي كان من أمر الله فيه. والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم. ١. هـ. كما ذكر ابن كثير رحمته الله، وليس هذا أول جحد من اليهود، فقد جحدوا أن يكون إبراهيم بنى الكعبة، ولعلم الله تعالى بما يكون من اليهود أبقى في البيت الحرام مقام إبراهيم ليكون شاهداً عليهم إلى يوم القيامة يتوارث العلم به جيل بعد جيل، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ آيَتُكَ بَيْنَتُكَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

[آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

الفصل الثالث والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى أن الله تعالى أبقى مقام إبراهيم في البيت الحرام؛ ليكون شاهداً على بناء إبراهيم لهذا البيت، لما يعلم من أن اليهود سيجحدون أن يكون إبراهيم هو الذي بنى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة. وجعل في ذلك آيات بينات حيث يقول: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وكما قال ﷺ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وأشرت إلى أن العرب لم يزلوا يتوارثون معرفة مقام إبراهيم جيلاً بعد جيل إلى أن بعث رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

ويؤثر أن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو دون الخامسة من عمره ﷺ فيأخذه عبد المطلب ويجلسه على فراشه، فجاء جماعة من بني مدلج يطوفون حول الكعبة، فلما رأوا قدم رسول الله ﷺ أمعنوا النظر فيها ثم أمعنوا النظر في مقام إبراهيم، ثم قالوا لعبد المطلب: لمن هذا الغلام يا شيخ؟ قال: هذا محمد ولدي، قالوا: ما رأينا قدماً شبيهة بالتي في الصخر من قدم ولدك هذا.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ وصف إبراهيم الخليل ﷺ بأنه أشبه الناس بمحمد ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال وهو يتحدث عن ليلة أسري به: «رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب - أي خفيف اللحم - رجل - أي دهمين الشعر - كأنه من رجال أزد شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - وأنا أشبه ولد إبراهيم به»، وكما

جمع الله ﷻ بين محمد ﷺ وأبيه إبراهيم في الشبه، جمع بينهما كذلك في صفة الخلة، فلم يتخذ الله خليلاً غير محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وجمع كذلك بينهما في الصلاة عليهما فنقول في التشهد: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وقد حرص اليهود على قطع كل صلة للعرب بإسماعيل وإبراهيم، وحذفوا من التوراة كل ما يتصل بإسماعيل بعد أن أخذه أبوه وتركه وأمه في برية فاران، وقطعوا كل أخباره بعد ذلك. وقد جهلوا أو تجاهلوا أن برية فاران هي أرض مكة.

وقد استقر إبراهيم ﷺ بالأرض المباركة بفلسطين، إلا أنه كان يتردد إلى مكة ليتعاهد تركته فيها ويطوف بالبيت العتيق، وقد دعا لمكة قبل بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وفي زورة من زوراته لمكة بعد بناء البيت وميلاد إسحاق قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا...﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد كان لوط ﷺ لقي من قومه عنتاً ومشقة وكذبوه وكذبوا المرسلين. وكانوا يأتون الذكران من العالمين، فلما أراد الله ﷻ إهلاك قوم لوط أرسل بعض الملائكة لإهلاكهم، وأمرهم أن يمروا بإبراهيم قبل تدمير قري قوم لوط ليبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد ساق الله ﷻ قصة البشارة بإسحاق في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَمَا رَآَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَسَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنَيْقَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ «تريد رحمها الله أنها عقيم وعجوز، وأن زوجها إبراهيم ﷻ قد تجاوز التسعين عاماً» ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أُنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكْنَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نُوَجِّلُ إِنَّآ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَنِي الْكِبَرُ فِيمَآ نُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰلِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَآيَتُهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٦٧﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠]. وقد نص القرآن الكريم على أن يعقوب ولد إسحق حيث يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَآؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهًا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإبراهيم جد، وإسماعيل عم، وإسحق والد، والكل يطلق عليه اسم الأب. وقد وصف الله تبارك وتعالى إبراهيم بصفات فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴿١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]. وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، وأما ما ساقه الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّمَّهِنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهو صريح في أن إبراهيم كان عند سؤاله موقنًا بالبعث وبقدرة الله على إحياء الموتى، لكنه أحب أن يضيف إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المادية المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، وقد أورد الله

تعالى في سورة البقرة مجموعة من الأمثلة على ذلك، فذكر قصة قتيل بني إسرائيل وضربه ببعض البقرة المذبوحة وقال: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ثم ساق بعد هذه القصة مباشرة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلِمْتُ تَمِيمًا قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، «ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي». فإن المقصود من هذا هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علو منازلهم، وأن إبراهيم لو كان شاكاً لكنت أولى بالشك منه، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم عليه السلام، فهو من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد المدح بما يشبه الذم.

والركن الشديد الذي أوى إليه لوط هو الله تبارك وتعالى. وقوله في الآية: ﴿أَوْ ءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. ﴿أَوْ﴾ فيها بمعنى بل أي، بل أوى إلى الله صلى الله عليه وسلم. ثم الثناء على يوسف باعتصامه عن السوء مع ما لقي من الأذى

والسجن . وقول رسول الله ﷺ: «ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» أي لسارعت إلى ما دعاني إليه رسول الملك وخرجت من السجن، وقد أراد رسول الله ﷺ أن ينبه إلى المرتبة العليا التي حازها يوسف الصديق عليه السلام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والعشرون

تابع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

أشرتُ في الفصل السابق إلى ما قصّه الله تبارك وتعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [إخ الآية [البقرة: ٢٦٠]، وبيّنت المراد من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، وأوضحنا أن ما كان من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس شكاً، وأن مراد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثناء على إبراهيم وبيان علو منزلته، وأن هذا جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف بتأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقد أمر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتأسى بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي ذلك ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٦﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ لَا شَرِيكَ لِيْ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وردّ على اليهود والنصارى دعوى حبهم لإبراهيم وأنه على ملتهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨]، وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم بأنه وقي، أي أنتم كل ما أمره الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به،

وفي ذلك يقول: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. ويقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وكما قال ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١١٠] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحْتَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

ولقد كان المشركون يدعون أنهم على ملة إبراهيم، وقد صوروا إبراهيم وإسماعيل وعلقوا صورتيهما بالكعبة وبأيديهما الأضلام يستقسمان بها، فأقسم رسول الله ﷺ أنهما لم يستقسما بالأضلام قط، وأمر بالصور فمُحيت.

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأضلام فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأضلام قط» وفي بعض ألفاظ البخاري لهذا الحديث قال: «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

ولم يتخذ الله تعالى من خلقه غير خليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فقد ثبت في الصحيحين من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً».

كما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس، لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله».

كما روى البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً رضي الله عنه لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فقال رجل من القوم: لقد قرأت عين أم إبراهيم.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا

رسول الله! مَنْ أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألونني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن إبراهيم خليل الرحمن أول من يُكسى يوم القيامة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناس عُرَاةً غُرَلًا، فأول من يُكسى إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقد جعل الله تعالى من مكافأة إبراهيم عليه السلام على بنائه الكعبة المشرفة بأن جعله يسند ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة كما جاء في صحيح البخاري في حديث رسول الله ﷺ عن الإسراء حيث قال: «فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: ومن معك؟ قيل محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحباً به ونعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن ونبي». وفي لفظ: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، وإذا هو - أي إبراهيم - مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه».

ومع هذه الكرامة وعلو المنزلة لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فإنه لم ينفع أباه لما مات على الشرك، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجهه أزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون. فأى خزي أخزى من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: «إني حرّمت الجنة على الكافرين». ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

وهذا كما قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد! أسأليني من مالي ما شئت فلن أغني عنك من الله شيئاً، ويا عباس عم النبي! اشتر نفسك لا أغني عنك

من الله شيئاً». وكما قال ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. ولما قال النبي ﷺ بعد موت أبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

وقد آثرت أن الله تبارك وتعالى جمع بين إبراهيم ومحمد ﷺ في صفاتهما الخلقية والخلقية، فكان محمد ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذُ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوِّذُ بها إسماعيل وإسحق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

وقد حصر الله النبوة والكتاب بعد إبراهيم ﷺ في ذريته حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وكما قال ﷺ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم ﷺ على نبي من الأنبياء ففي ذريته، فقد ولد لإسحق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم، وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم.

أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل ﷺ، ومن ذريته خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وهو الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة، وهو صاحب

المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة .
وقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : «سأقوم مقاماً يرغب
إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم» .

والى الفصل القادم ان شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الفصل الخامس والعشرون

لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

نتحدث في هذا الفصل عن لوط نبي الله ورسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد قرن الله تبارك وتعالى قصة لوط بقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن لوطاً آمن لإبراهيم، وأشار إلى أنه هاجر معه، حيث يقول: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد أشرتُ في ما مضى إلى أن الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل لوطاً إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن، وبقي خليل الرحمن في فلسطين، وكان أهل سدوم وقراها من أكفر خلق الله وأفجرهم، وقد ابتدعوا في الفجور بدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكانوا مع شركهم بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتون الذكران من العالمين، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر ويعملون الخبائث، فجاءهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى ربهم وينهاهم عن هذه الجرائم التي يرتكبوها، ويحذرهم من عقوبة الله إذا استمروا على باطلهم، فلم يستجيبوا له، وقال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وكانهم من تسلط الرجس على قلوبهم صاروا يعدون الطهارة عيباً، يستحق به المتطهر الإبعاد.

وقالوا للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما استيأس منهم: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، فأرسل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ملائكة وأمرهم أن يمرؤا بإبراهيم الخليل يبشرونه بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب، وأمرهم إذا انصرفوا من عند إبراهيم أن يقلبوا قري قوم لوط على أهلها بعد أن يأمرؤا لوطاً بالخروج من ديارهم. فجاؤوا إلى سدوم في صورة رجال من أجمل خلق الله، فجاء قوم لوط إليهم مسرعين يريدون بهم السوء، فانذر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا

تُخْرُونَ فِي صَيْفِيٍّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ [هود: ٧٨]، إن نساءكم خير لكم وأطهر، قالوا: يا لوط! أنت تعرف أن شهوتنا في الرجال، ولا رغبة لنا في النساء، فاشتد غيظ لوط ﷺ، وقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [هود: ٨٠] يعني لدمرتكم، ولكني آوي إلى الله ﷻ، فمن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد، فعند ذلك أعلمه الضيوف أنهم ملائكة، وأنهم رُسل الله لإهلاك قومه، ويذكر أن جبريل ﷺ بعد أن طمأن لوطاً ﷺ على أنه لن ينالهم منهم أذى ضرب جبريل أعينهم فطمسها، وقالوا للوط: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقالوا له: ﴿فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]. وبشروه بأن ﴿ذَابِرٌ هُنَّ لَأَن مَّقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فخرج لوط ﷺ وابنتاه، فنجاهم الله من العذاب الأليم، وقلبت الملائكة أرض قوم لوط عليهم، فجاءهم حاصب من فوقهم، وخسف من تحتهم، فانقلبت أرضهم كما انقلبت فطرتهم، وقد أبقاها الله ﷻ إلى اليوم آية بينة يعرفها أهل الجزيرة العربية إذا قدموا إلى الشام أو رجعوا منها على حد قول الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَنُرْمُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْحِحِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَالْبَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات: ١٣٧ - ١٣٨].

وقد جعل الله ﷻ امرأة لوط قدوة لكل كافر إلى يوم القيامة، حيث يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمَّ يُعْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ سَعْيًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]، وقد شرحت فيما مضى أن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط لم تكن خيانة زوجية بالزنا، وإنما كانت كفراً بالله ﷻ ومحاربة لرسله عليهم الصلاة والسلام.

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة لوط في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَأَجْنَبْنَهُ وَاهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٧﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٨﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَى أَأَنْبِئُكَ بِمَا تَعْمَلُ لَشَيْءٍ عَجِيبٍ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعُهُمْ آخَرٌ مَرْدُودٌ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴿٧٨﴾ «يعني زوجاتكم» ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ ﴿٧٩﴾ «أي من رغبة وشهوة» ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّمْتَ مَا نُزِيذُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾» [هود: ٦٩ - ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر في قصة بشارة إبراهيم بإسحاق وهلاك قوم لوط: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورَ الرَّحِيمَ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَدَايَ هُوَ الْعَدَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبَتْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نُؤْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَدِّينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْعَدْرِيكَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَفَضَّلْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ
 مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ
 ﴿٦٨﴾ وَأَلْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ
 كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا
 عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
 لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿[الحجر: ٤٩ - ٧٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والعشرون

تابع: لوط عليه السلام

سقت في الفصل السابق ما ذكره الله عز وجل عن لوط عليه السلام في سورتي الأعراف وهود وفي سورة الحجر، وقال تعالى في سورة الأنبياء عن إبراهيم ولوط: ﴿وَجَبَّيْنَهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿وُلُوطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَبَّيْنَاهُ مِنَ الْفُرْقَانِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤ - ٧٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِوَنَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَبَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وُلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ (٥٤) أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ حِوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ (٥٦) فَاجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَدَرَنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وُلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ

الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي لُوطٌ أَلُوًّا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافِكُمْ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَيْكَ آيَةَ الْبُرْهَانِ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿العنكبوت: ٢٨ - ٣٥﴾.

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا مَجُورًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ الْأَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿الصافات: ١٣٣ - ١٣٨﴾.

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بسلامة عليهم قال ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿الذاريات: ٣١ - ٣٧﴾.

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالْمُؤْنِفِكَةَ آهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا عَشَى ﴿النجم: ٥٣ - ٥٤﴾.

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرْعَانَ لِلدِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿القمر: ٣٣ - ٤٠﴾.

وقد فهم بعض الناس خطأً أن قول لوط: ﴿أَوْ ءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿هود: ٨٠﴾

يعني أو آوي إلى قبيلة قوية تدافع عني، وهذا فهم فاسد، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»، وهذا يدل على أن الركن الشديد الذي كان يأوي إليه لوط موجود، وهو الله وَجَلَّ، بخلاف من زعم أنه كان يتمنى عشيرة يأوي إليها وهي غير موجودة، فأهله في العراق، وقد هاجر عنهم، وقد جاء تأكيد وجود الركن الشديد الذي أوى إليه لوط فأواه فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد».

وفيما ساقه ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد». و﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ بمعنى بل، فهي للإضراب كأنه قال: «ليس لي بكم قوة بل آوي إلى ركن شديد»، فلما آوى إلى الله آواه الله إليه، ولذلك قال الملائكة حينئذٍ: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

هذا وجريمة إتيان الذكران من العالمين تأبأها الكثير من الحيوانات العجماوات، وقد قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: «لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننت أن ذكراً ينزو على ذكر».

ومن غرائب الأمور وعجائبها إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران، وقد شاعت هذه اللفظة. واستعملها العلماء والعوام، وهو إطلاق غير صحيح، فلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام، فيقال لمرتكبها لوطي، كما لا يجوز أن يقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمدیان؛ لأنهما ضد محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن من يأتي هذه الجريمة هو ضد لوط عليه السلام، وقد حكى الله تعالى عن لوط أنه قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْفَالِغِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ولا سبيل إلى صحة هذا الإطلاق بحال؛ لأن كلمة لوط تدل على معنى الإصلاح، يقال: لاط الحوض إذا أصلحه، وهؤلاء مفسدون في الأرض، ولذلك لم يرد خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسمية

أهل هذه الجريمة لوطيين، بل الآثار الواردة عنه ﷺ تقول: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط...» إلخ الأثر. فيقال لمن يرتكب هذه الجريمة: إنه عَمَلٌ عَمَلٌ قوم لوط، ولا يقال: له لوطي بحال؛ برأ الله لوطاً من هذه النسبة الرديئة.

هذا ومن مفتريات أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن لوطاً بعد أن نجاه الله سكر وزنا بابنتيه، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ٣٠ - وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه. ٣١ - وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. ٣٢ - هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحیی من أبينا نسلاً. ٣٣ - فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. ٣٤ - وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، هلم نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. ٣٥ - فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. ٣٦ - فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

هذه عبارة الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من التوراة التي بيد اليهود والنصارى، برأ الله لوطاً وابنتيه من هذه الفرية ونزه لوطاً من كل إثم، وسلام عليه في العالمين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والعشرون

إسماعيل

نتحدث في هذا الفصل عن الابن البكر لخليل الرحمن، وهو إسماعيل عليه السلام، وقد ذكرت في أثناء حديثي عن إبراهيم عليه السلام قصة هاجر وأن ملك مصر أعطاها لسارة، وأن سارة وهبتها لإبراهيم، وأنها ولدت له إسماعيل عليه السلام، وذكر ما أورده البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من قصة مجيء إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة، وقصة زمزم ونشأة إسماعيل عليه السلام وتعلمه اللسان العربي، وزواجه بامرأة من جرهم ثم فراقها بأمر أبيه الخليل عليه السلام، وزواجه بامرأة أخرى سالحة من جرهم، وأمر أبيه له بالمحافظة عليها وتثبيتها، وقصة مساعدة إسماعيل لإبراهيم عليه السلام في بناء البيت الحرام، وأقامت الحجة الواضحة على أن إسماعيل هو الذبيح وليس إسحاق عليه السلام، وأن وصف إسماعيل في البشارة به بأنه غلام حلیم بخلاف البشارة بإسحاق، فقد وُصِفَ بأنه غلام عليم، وأن إسماعيل أكبر من إسحاق، وأن إبراهيم لم يُشَرَّ بإسحاق إلا بعد أن بلغ إسماعيل السَّعي مع أبيه عليهم الصلاة والسلام، وقد بيَّنت كذلك أن إسماعيل عليه السلام قد جعل الله من ذريته خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمداً صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إسماعيل في كتابه الكريم في مواضع بأوصاف جليلة، حيث يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

وقال صلى الله عليه وسلم في سورة مريم: ﴿وَذَكَرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

وقرنه في سلسلة الأنبياء والمرسلين في مواضع حيث يقول: ﴿وَأَذْكُرْ عِنْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٥ - ٤٨)

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وبرأ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من اليهودية والنصرانية، حيث يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقد أورد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مقاماً لإسماعيل عليه السلام تتقاصر دونه المقامات العالية، حيث أخبره أبوه الخليل عليه السلام بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، ففطن إسماعيل في الحال إلى أن رؤيا الأنبياء وحي تجب المسارعة في الإذعان له، والامتثال لأمره، ولو كان في ذلك ذبحه، فإنه وجود بنفسه امتثالاً لأمر الله، وطاعة لرسول الله ﷺ، ولم تعرف الإنسانية كلها مثل هذا المقام.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ

لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكَا
 ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي
 سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ
 ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ
 خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
 الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ
 بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا
 تَرَىٰ قَالَ يَبْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴿١٠٣﴾ أَي
 انقادا لأمر الله ﴿١٠٤﴾ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٥﴾ أَي وصرعه على جبينه لينفذ فيه أمر الله ﴿١٠٦﴾
 ﴿١٠٧﴾ وَتَدَيَّنَّهُ أَنْ يَتَابِرَهُمْ ﴿١٠٨﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا ﴿١٠٩﴾ أَي وفيت ما أمرك الله به ﴿١١٠﴾ إِنَّا
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٢﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٣﴾
 [الصفات: ٨٣ - ١٠٧].

هذا ولا نزاع عند النسابين أن جميع القبائل العربية العدنانية هم من ذرية
 إسماعيل عليه السلام، أما القحطانيون فأكثر أهل العلم على أنهم ليسوا من ذرية
 إسماعيل، وعامة أهل العلم على أن خزاعة من قحطان، وكذلك الأوس
 والخزرج.

وقد جاء في صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرَّ
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم على نفر من أسلم ينتضلون، أي يترامون للسبق، فقال: «ارموا بني
 إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع ابن فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين
 بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لكم لا ترمون؟» فقالوا: يا رسول الله! نرمي
 وأنت معهم؟. قال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

وفي لفظ للبخاري من حديث سلمة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على
 قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، قال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً
 وأنا مع بني فلان» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لهم؟» قالوا:
 كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

وقبيلة أسلم تنتمي إلى أسلم بن أفضى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، ولا إشكال في هذا على من زعم أن قحطان من ذرية إسماعيل، أما أكثر أهل العلم الذين يرون أن القحطانيين ليسوا من ذرية إسماعيل فإنهم يقولون: إن هذا الحديث قد يحمل على كون أسلم من ذرية إسماعيل من جهة الأمهات لا من جهة الآباء؛ لأن القحطانية والعدنانية قد اختلطوا بالمصاهرة، ولا مانع من مثل هذه النسبة كما انتسب جميع بني فاطمة الزهراء إلى رسول الله ﷺ.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والعشرون

إسحاق بن إبراهيم عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وإسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم عليه السلام، وقد وُلد من زوجته الصالحة سارة عليها السلام، وهو أحد الآيات التي امتنَّ الله بها على خلقه وإليه تنتمي جميع أسباط بني إسرائيل، قد ولدته أمه وهي عجوز عقيم، من إبراهيم عليه السلام، وقد أشرف سنَّه على مئة عام.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى البشارة بإسحاق في غير موضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَيْتِ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

ويقول عليه السلام في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَجَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَوْنَيْتَنِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشِيرُ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٥].

ويقول عليه السلام في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوْطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وقد وصف الله تبارك وتعالى سارة عند تلقيها البشارة بأوصاف منها أنها عندما سمعت ضيف إبراهيم يبشرونه بإسحاق أقبلت عليهم في رنة عجيبة مبدية استغرابها من أن يلد مثلها في هذا السن المتقدم، من هذا الزوج الشيخ الكبير، ولذلك صكت وجهها من شدة وقوع هذه البشارة على نفسها، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَتِ أُمَّرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ [الذاريات: ٢٩].

وكما وصفها الله تبارك وتعالى بأنها كانت قائمة، وأنها ضحكت، وليس من سبب لضحكها هنا سوى فرحها بالأضياف، فجاءتها البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وقالت مستغربة متعجبة: ﴿قَالَتْ يَوٰلَيْكَ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ [هود: ٧٢].

وفي قوله ﷻ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود: ٧٣]. دليل قاطع على أن زوجة الرجل من أهل بيته وفيه رد حاسم على بعض أهل الأهواء المنحرفين عن سنة رسول الله ﷺ أولئك الذين لا يُدْخِلُونَ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣] حقدًا منهم على الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين مع أن السياق جاء نصًا في زوجات رسول الله ﷺ حيث يقول ﷻ: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْنَا مِنْ أَلْسِنَةٍ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعْطَمَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٦﴾ [٣٦] وَفَرَنْ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ وَرَاءُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. إشعار بأنها تلد غلاماً عليماً يعيش ويكون له نسل، وأن الله تعالى هو الذي سمى ولدها إسحاق، وسمى ولد ولدها يعقوب، ويمكن أن يكون فيه إشعار كذلك بأنها سيمتد بها العمر حتى ترى ولد ولدها، ولا شك أن يعقوب هو ولد إسحاق، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنِسِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنِّي بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُنَا إِلَهُنَا وَإِسْحَاقَ إِلَهُنَا وَجَدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وإبراهيم جد وإسماعيل عم وإسحاق والد، والكل يسمى أباً، وكما قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

وقد نص رسول الله ﷺ على أن يعقوب هو ولد إسحاق بن إبراهيم ﷺ، فقد روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقد وصف الله تبارك وتعالى يعقوب في البشارة بإسحاق بأنه نافلة، حيث يقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣]، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، ومن فسر النافلة في الآية بأنها العطية أو الزيادة فإنه مقر بأن يعقوب هو ولد إسحاق لما جاء في نص القرآن العظيم والسنة النبوية بأن يعقوب هو ولد ولد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وقد أورد الله تبارك وتعالى ذكر إسحاق في مواضع من كتابه الكريم مع

جملة من النبيين والمرسلين. وفي ذلك يقول في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وكما قال عليه السلام: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١١٣) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١١٤) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والعشرون

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم

نتحدث في هذا الفصل عن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم نبي الله عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدم في الفصل السابق أن الله تعالى بشر سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وأشرت إلى أن القرآن قد نص على أن يعقوب هو ابن إسحاق كما نص على ذلك رسول الله ﷺ في الخبر الذي أخرجه البخاري في ذلك.

ويعقوب هو إسرائيل، وإليه تنتمي جميع أسباطهم، ومعنى إسرائيل: عبد الله، فهو مركب تركيب الإضافة؛ فإن إسرا بالعبرانية هو: العبد، وإيل هو: الله، على أن العرب قد تصرفت في هذا الاسم بلغات كثيرة منها: إسرائيل، بإبدال اللام نوناً، كما قالوا في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة عربية فصيحة كذلك.

وقد ساق الله تبارك وتعالى الكثير من أخبار يعقوب ﷺ في قصة ولده يوسف ﷺ، وقد أشار القرآن العظيم إلى أن يعقوب تزوج أكثر من زوجة، وأنه كان يحس بحنان وعاطفة قوية إلى يوسف ﷺ، وأن إخوة يوسف من أبيه حقدوا عليه لحب أبيه له، وأن يوسف كان له أخ شقيق بدليل قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ؟﴾ [يوسف: ٥٩].

وأشار القرآن إلى أن يعقوب ﷺ كان يسكن في بادية بفلسطين مع بنيه، وأن يوسف ﷺ رأى وهو صغير رؤيا فقصها على يعقوب، قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. فنصحه أبوه بكتمان هذه الرؤيا عن إخوته مخافة أن تحملهم على الكيد له وإلحاق الأذى به. وأفاده أن هذه الرؤيا تدل على أن الله ﷻ يصطفيك ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِّرُ

نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴿يوسف: ٦﴾، وقد ازداد يعقوب بهذا حرصاً على يوسف ﷺ، وكان لا يكاد يطيق فراقه أو بعده عنه، وقد أشعل الشيطان نار الحقد على يوسف في قلوب إخوته فتأمروا عليه: أن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً بعيدة عن أبيهم ليخلو لهم وجه أبيهم، واستقر رأيهم على عدم قتله، وأن يلقوه في غيابة الجُبِّ لتلتقطه بعض السيارة ويحموله إلى أرض بعيدة مُدَّعين لأبيهم أن الذئب أكله. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١١ - ١٢]، فأظهر يعقوب ﷺ تعلقه بيوسف وأنه لا يحب أن يبتعد عنه ويخشى عليه من الذئب ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً وَبُكُورٌ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٣ - ١٨].

وقد ذكر الله ﷻ قصة مجيء إخوة يوسف إليه في مصر يمتارون طعاماً وهم لا يعرفونه، وأنه طلب منهم إحضار أخ لهم من أبيهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٣ - ٦٤]، وقال يعقوب ﷺ: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَآ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أُلْحَمْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٦ - ٦٨]، وأن يوسف ﷺ عندما رأى شقيقه عرفه بنفسه

وقال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 69]، ﴿جَعَلَ السَّقَابَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، لتكون سبباً ظاهراً لحجزه عنده، وحاول إخوة يوسف أن يجعلوا أحد أشقائهم مكانه لكنه رفض ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78]، فرفض يوسف ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ أُنْتِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١) وَسئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: 80 - 82].

قال يعقوب ﴿لَمَّا قَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ ذَلِكَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 83 - 84]، فقال له بنوه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حُرًّا﴾ [يوسف: 85] أي قريباً من الموت لما يجلبه لك الحزن من الأسقام والأوجاع ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85] أي أو تموت. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 86 - 87].

فلما دخلوا على يوسف وشرحوا له ما أصاب أباهم من الهم والحزن على فراق ولده عرفهم يوسف بنفسه، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ليضعوه على وجه أبيه ليذهب حزنه وليأتي بصيراً، وأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب ﴿لَبْنِيهِ: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ألقى قميص يوسف على وجه أبيه ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾ وقال لبنيه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويْهِ﴾ [يوسف: 96 - 99] أي ضم إليه أباه وخالته أم إخوانه

لأبيه، والخالة أم فهي أحد الأبوين، أو هي أمه. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] وسجدوا لله
للشكر.

وقال يوسف: ﴿يَتَابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ
بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي
إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثلاثون

يوسف الصديق ﷺ

نتحدث في هذا الفصل عن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف الصديق نبي الله ورسوله ﷺ، وقد تقدم في الحديث عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بعض الحديث عنه ﷺ، وعامة النسابين على أنه وُلِدَ ليعقوب من زوجته راحيل، وأكثر أهل العلم على أنها ماتت وهو صغير بعد أن تركت له شقيقاً أصغر منه هو بنيامين.

وكان يعقوب ﷺ قد أنجب من غير راحيل عشرة أولاد آخرين، وكانت زوجته الأخرى هي أخت راحيل الكبرى، وقد أعطى الله ﷻ يوسف ﷺ من الحُسن والجمال ما جُعِلَ مضرب المثل في ذلك حتى وصفه رسول الله ﷺ بأنه أعطي شطر الحُسن، فقد روى مسلم في صحيحه في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن عروجه إلى السموات العُلى: «ثم عُرِج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففُتِح لنا، فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن» إتح الحديث.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن النسوة اللاتي لُمْنَ امرأة العزيز أنها لما اختبرتهم فوضعت ﴿هَلُنَّ مُتَّكًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد أحبه أبوه يعقوب ﷺ، لما منَّ الله عليه به من جمال الظاهر والباطن، ورأى إخوته أن أباهم يحب يوسف وبنيامين أكثر منهم، وأبوهم أعرف بحالهم وحاله وسلوكهم وسلوكه.

فحقدوا على يوسف ﷺ، وإخوة يوسف ليسوا بمعصومين من المعاصي

والسيئات، فهم ليسوا بأنبياء، وهم وإن كانوا من الأسباط لكنهم غير الأسباط الذين ذكر الله ﷻ أنه أوحى إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [النساء: ١٦٣] إذ السبط يطلق على ولد الولد مهما نزل. كما يطلق على ولد البنت كذلك. وقد خصَّ الله تبارك وتعالى يوسف بسورة كاملة من القرآن قصَّ فيها قصته وقد ختم سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] إلخ، وقد ذكر في أبناء الرُّسل المذكورين في سورة هود ما لقي الأنبياء من قومهم من الأقارب والأباعد من الأذى ذكر في سورة يوسف وهو أحد الرسل العظام ما لقي من أذى إخوته له، ليعلم ما لقيه الأنبياء من أذى الأقارب والأجانب لما في ذلك من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتثبيت قلوب المؤمنين.

وقد اشتملت قصة يوسف ﷺ على الجليل من الأحكام والحكم والآداب وقواعد السوك وسير الملوك، وتفكير العلماء، وتدبير الخطط للوصول إلى المقاصد الصالحة، ورسم الوسائل الجميلة لنيل الأهداف السامية، ومكر النساء، وعدم صبرهن على ما قد يعرض لهن من الفتن. وبيان حسن عاقبة المتقين الصابرين، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا ما يطلعهم الله عليه منه.

وقد بدأ الله تبارك وتعالى قصة يوسف برؤياه التي رأى ﷺ وهو صغير السن، وختم قصته بأن ما آل إليه من العزة والكرامة كان تأويل رؤياه وتحقيقها، وفي رؤيا يوسف يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد فهم يعقوب ﷺ أن رؤيا يوسف هذه تدل على أنه أُعِدَّ لأمر عظيم من تشریف الله له، وإعزاز جنابه، واصطفاء الله له، وأنه يتم نعمته عليه وعلى أبيه يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، وطلب من يوسف أن يكتفم هذه الرؤيا عن إخوته لما يستشعره يعقوب من حقدهم عليه وبغضهم له، وأنه لو أخبرهم بقصة هذه الرؤيا لازدادوا حقدًا وكادوا له كيدًا.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَحْنَبُكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبُوتِكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٥ - ٦﴾، وقد فهم يعقوب من هذه الرؤيا كذلك أن ابنه يوسف سيكون طويل الباع في تعبير الرؤيا والأحلام، مما يبنيني على ذلك من رفعة شأنه وعلو منزلته، وتمكينه في الأرض، وعامة المفسرين على أن الأحد عشر كوكباً هم إخوة يوسف، وأن الشمس والقمر هما أبوه وخالته أو أبوه وأمه.

وقد وصف الله ﷻ ما كان من شأن يوسف وإخوته بأنه آيات للسائلين حيث يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أي عبر وعظات وعجائب وحكم للمستخبرين المستشرفين المعترين المتشوفين. وماذا يفعل الحسد بصاحبه، ونهاية حال الحاسدين، وآثار الصبر والعاقبة الحميدة للصابرين، وحنان الأب، وأنه مهما حرص الإنسان على حفظ ولده من السوء، فإنه لا يخلصه من قضاء الله، وأن الأب الصالح قد يلد الابن غير البار. وأن العفو عند المقدرة من شيم الكرام، وإثبات النبوة والرسالة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الدلالات والعبر مما لا يحيط به إلا الله ﷻ.

وكانت أول بادرة سوء من إخوة يوسف أن قالوا: ﴿لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ﴾ [يوسف: ٨] بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِثْلًا﴾ [يوسف: ٨]، فميله إليهما أكثر، وحنانه عليهما أعظم، وعطفه عليهما أشد مع أننا لقوتنا أعظم نفعاً لأبينا، ونحن مع كثرتنا يد واحدة، إن أبانا لمخطئ في هذا الحب، بعيد عن الرشد والصواب، قال بعضهم لبعض: لا بد من صرف يوسف عن وجه أبيه فاقترح بعضهم قتله، واقترح بعضهم رميه في أرض بعيدة تفترسه الوحوش أو يموت في تلك الأرض ونكون صالحين بعد ذلك، واقترح بعضهم إبعاده عن أبيه مع محاولة المحافظة عليه من أسباب الهلاك باللقاء في ﴿غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، وهي إحدى جوانب البئر المظلمة لئلا تلتقط، واستقر رأيهم على أن يجعلوه في مكان مظلم من بئر يردّها المسافرون إلى مصر من فلسطين، ولما بدؤوا في تنفيذ هذه الخطة قالوا

لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تسمح لنا باستصحاب يوسف معنا إلى ملاعبنا ومراعينا مع أننا نحبه ونصح له ونخلص مودته، ابعثه معنا غداً إلى الصحراء نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ونتسابق ويتدرب على رعي الماشية، ونؤكد لك أننا سنحافظ عليه من كل ما يسوء.

فأجابهم يعقوب عليه السلام بأنه لا يطيق فراقه، وأنه يحزنه بعده عنه، ويخشى عليه من الذئب في حالة لهوهم وغفلتهم عنه، فاستبعدوا أن يأكله الذئب؛ لأنهم عُصبة أي جماعة أقوياء يشد بعضهم أزر بعض، فلن يصل إليه الذئب بحال؛ لأنه لو وصل إليه الذئب مع قوتنا وكثرتنا فإنه لا خير فينا حينئذٍ ونكون هالكين عاجزين ضعفاء، فأخذوه من أبيه مع حذر أبيهم؛ لأن الحذر لا ينجي من القدر وتركوا بنيامين، وذهبوا به إلى الجُب فلما ألقوه في عَيْبَتِ الجُبِّ (غيابة الجب شبيهة (بيت الماكينة) في عصرنا الحاضر، يجذب بها الماء من البئر، ولو ألقوه في وسط البئر لمت) ألقى الله تعالى في قلبه الطمأنينة وأنه لن يهلك في هذه البئر، وأنه سيرى إخوانه الحسدة هؤلاء مرة أخرى، وأنه سيخبرهم بهذا الذي فعلوه معه في وقت يكون فيه عزيزاً وهم أذلاء، وكانوا قد جرّدوه من قميصه قبل إلقائه في الجُب، فوضعوا على قميصه دماً كذباً، أي دماً مكذوباً مفتعلاً ليس بدم يوسف، ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وما أنت بمصدق ما نقول ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يصدقهم يعقوب عليه السلام في أكل الذئب له ولا أنه قتل ليقينه أنه سيكون ليوسف شأن، ولذلك قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

ذكرت في الفصل السابق ما كان من إخوة يوسف ﷺ وكيدهم له، والاحتيال على أبيهم في أخذهم يوسف منه وإلقاءه في العُجْب، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِنَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارِٖٔ ﴿١٠﴾ أي بعض المسافرين المارين من القوافل، والسيارة جمع سيار، أي الكثير السير المبالغ فيه» ﴿١١﴾ إِنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿يوسف: ٧ - ١٠﴾. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَيْرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ [يوسف: ١١ - ١٨].

وكان موقف يعقوب ﷺ عندما أخبره بنوه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف مع يقينه بكذب بنيه هؤلاء وأن يوسف قد تعرَّض لامتحان عسير كان موقف يعقوب ﷺ هو هذا الموقف الكريم من الصبر على البلاء، وتفويض الأمر لله وعدم الجزع، وفي ذلك قدوة لكل عبد صالح يُبتلى ويُمْتَحَن.

ولذلك روى البخاري أن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين الحصان الرزان

عائشة رضي الله عنها لما رُميت بالإفك قالت: «والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]».

وقد وصف الله تبارك وتعالى ما حدث ليوسف بعد أن ألقاه إخوته في الجُب بما يفيد أن وحشته في الجُب لم تطل، وأن الله تعالى هياً له قوماً من المسافرين نزلوا قريباً من الجُب، وبعثوا واردهم، أي شخصاً يرد الجُب ليستقي لهم، فألقى دلوه في الجُب فتعلق بها يوسف عليه السلام، فلما أحسَّ به الوارد أخرجه وقال: يا فرحتي هذا غلام، واتفق في السر مع بعض رفقته أن يزعموا أنه عبد استبضعناه لبعض أهل المال القريبين من الجُب لنبيعه لهم في مصر، وكأن يوسف عليه السلام رأى أنه لا يستطيع رد دعواهم هذه في عبوديته، فاستسلم، وكان الذين جعلوه بضاعة أحسوا بأنهم أمام إنسان كريم، لا ينبغي أن تتداول مثله الأيدي، ورأوا أنه لا يصلح أن يضعوه إلا عند كبير وزراء ملك مصر تكراً له، فما إن قدموا مصر حتى قدّموه لعزیزها وباعوه له بثمن «رمزي» ﴿بِثْمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، يقيناً منهم أن هذا الإنسان الكريم حريٌّ أن يستقر في بيت العزيز على أي حال، وأنهم ليسوا أهلاً لجعله تحت أيديهم أو أيدي سواهم ممن دون العزيز، وبدأت مراحل التكريم والإكبار والإجلال والإعزاز تترادف على يوسف عليه السلام، وكانت فرحة العزيز به غامرة، وقال ﴿لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ وأنزليه أحسن المنازل ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْفَعَهُ وَوَلَدًا﴾، وهكذا فرَّب ضارة نافعة، فقد انتقل من شظف العيش في البادية إلى أكبر القصور المتحضرة، وكان إلقاؤه في الجُب سبباً لوصوله إلى مصر وتنقله في أطوار الكرامة حتى صار ملكها، فرحم الله به العباد والبلاد وبخاصة في سني القحط والجذب، حتى امتد ما أفاء الله به بسببه إلى أبويه وإخوته، وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، ولكن الفرج قريب، فسأجعل لك حُسن العاقبة والتمكن منهم، وكذلك فعل الله صلى الله عليه وسلم، فلم يطل الأمر حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبعد سنين قريية من سني ابتعاد يوسف عن أبيه فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد أثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل مكة

الذين آذوه وأخرجوه: «ما تظنون أنني فاعلٌ بكم؟» قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وقد وصف الله تبارك وتعالى انتقال يوسف إلى بيت عزيز مصر بأنه تمكين له في الأرض، وقد بلغ فيه أشدّه، وآتاه الله الحكيم والعلم، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِمَّا يَعمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ﴾ «أي باعوه» ﴿بِشْمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ «كان زهدهم فيه زهد إجلال وإكبار لا زهد ازدراء واحتقار» ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٢].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن زوجة العزيز أنها تعلق قلبها بيوسف، وقد ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حبه شغاف قلبها، أي غلافه أو حجابها أو حبه أو سويداءه، فصار في قلبها كأنه ملك وهي أمته، تبذل كل ما تطيق لإسعاده وإعرازه وإكرامه، حتى بلغ بها الحال أن فكرت في مخالطته، فبذلت كل ألوان الإغراء بها أمامه، وهو منصرف عنها غير عابئ بتصرفاتها، فلما أيقنت أن مراودتها له لم تصرف وجهه إليها رأت كما قيل:

فما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

وأن التلويح لم يفدها بشيء وأنه لا بد من التصريح ليوسف بحاجتها، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تهيئت وتجملت من أجلك أنت فأقبل عليّ، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أتحصن بالله وأستجير به من أن أرتكب جريمة الزنا، وهي أفحش الجرائم، وقد أحسن الله إليّ كثيراً وهيئاً لي المنزل الحسن والمرجع الكريم فكيف أقابل إحسانه بمعصيته، والزناة لا يسعدون ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد الزناة، فإن الزنا مجلبة لزوال النعمة في الدنيا وعذاب الله في الآخرة،

ولما كان الطيش والثورة الجنسية قد بلغت بالمرأة كل مبلغ فلم تعبأ بامتناعه واعتصامه عن السوء فأقبلت عليه، ولولا أن الله تعالى يعصم أنبياءه ورسله من السوء لأقبل عليها، ولكن يوسف عليه السلام قد تجلت له نعم الله عليه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، وخرج إلى جهة الباب هارباً منها، فلحقته وأدركت قميصه من خلفه فجبذته فانقطع القميص من دبر «أي من خلف»، لكنه تمكن من الباب، وكان العزيز عند هذا الباب، فسارعت إلى إلصاق التهمة بيوسف، وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدافع يوسف عن نفسه وقال للعزيز: ﴿هِيَ زَوَدَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فأنطق الله شاهداً من أهلها فقال للعزيز: انظر القميص إن كان قطعه من جهة صدره فهي بريئة؛ لأنها تكون قطعه وهي تدافع عن نفسها وهو مقبل عليها، وإن كان القميص قطع من جهة الخلف فهو بريء؛ لأنها قطعه وهو يحاول الفرار منها وهي تلاحقه، فلما رأى أن قطع القميص كان من الخلف أيقن ببراءة يوسف عليه السلام.

ومن الملاحظ هنا أن الشاهد بدأ بالنظر في قطع القميص من أمام ليكون ادعى لمحاولته براءتها حتى لا يتهم بمحاباة يوسف عليه السلام، وإن كان هذا الشاهد من أهلها، كما أن ذلك يكون أوقع في قبول شهادته عندهما، وهذا شبيه بما قال مؤمن آل فرعون لفرعون وقومه في موسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨]. فإن هذا المؤمن بدأ بفرض المسألة باحتمال أن يكون كاذباً، وثنى باحتمال أن يكون صادقاً ليكون كلامه أوقع في قلوبهم، وأقرب لتصديق نصحه لهم، ولم يسم الله تبارك وتعالى امرأة العزيز ولم يسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يقولون فيها: زليخاء أو زليخاء أو راعيل، ولما لم يكن لتعيين اسمها كبير فائدة لم يسمها الله صلى الله عليه وسلم لنا، وإنما ذكر الأمر المهم الدال على رفعة قدر يوسف ونزاهته بأنه في بيتها، وأنها غلقت الأبواب، وأنها قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأنها ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: ٢٤] ومع ذلك صرف الله عنه ﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

وفي ذلك كله يقول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ

الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
 الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ
 رَاوَدتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ
 مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى
 قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا
 وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله وَعَبَّكَ من محاولة العزيز استكتام قصة مراودة زوجته ليوسف عليه السلام، وأنه طلب منها أن تستغفر الله لذنبيها، وأنها من الخاطئين، حيث قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

غير أن استكتام هذه الحادثة لم يتم، فتناقلته بعض الألسن، وتحدثت به نسوة في المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء، وطعنَ على امرأة العزيز وعيبتها وبشعن عملها، وشنعن عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له وتشوقن لرؤيته، فلما سمعت بتشنيعهن عليها، والتنقص لها، وعيبتها ومدميتها بحب مولاها، ولم يعرفن أن جمال يوسف يفتن ذات اللب، فأحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى لا وجود لمثله في الفتيان، فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، وأعدت لهن ضيافة، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يُقَطَّع بالسكاكين كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، فلما بدأن بتقطيع ما بأيديهن بالسكاكين أمرته بالخروج عليهن، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، فلما رأينه أعظمته وأجللته وهبته واندھشن لرؤيته وبهرهنَّ حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن به، وجعلن يقطنن ويحززن في أيديهن بالسكاكين بدل تقطيع الفاكهة ولا يشعرن بالجراح، وظننَّ أنه لا وجود لمثل هذا في بني آدم، ﴿وَقُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، أي معاذ الله أن يكون هذا من بني آدم، ما هذا إلا ملك كريم.

وأهل مصر يومها وإن كانوا وثنيين إلا أنهم كانوا يقرون برب السموات والأرض كمشركي قريش وغيرهم، وإن كانوا يعبدون غير الله، وعندئذٍ أبرزت

امرأة العزيز مكنون ما في قلبها من عشقه والهيام به، و﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وأظهرت عفته وبراءته التامة، وقالت: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ «أي امتنع وأبى» ﴿وَلَيْنَ لَمَّ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ولا شك أنها كانت قد وصلت من الهيام به والجنون فيه إلى حد أنها أصبحت تصرح بهذا الذي قالته عند هذا الملام من الناس، فلما سمع يوسف ﷺ ما توعدته به من السجن ومذلتته إن لم يخضع لما تريده منه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ «أمل إليهن» ﴿وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فإنه لا يصرف عني السوء أحد سواك يا أرحم الراحمين، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، فإنك إن وكلتني لنفسي وكلتني إلى عجز وضعف، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، فاعصمني من السوء واحفظني من الشر، وحطني بحولك وقوتك يا رب العالمين، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

واستحق يوسف ﷺ أن يكون بهذا على رأس السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فمنهم رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين.

وبعد أن ذاع وشاع براءة يوسف ﷺ رأى العزيز وزوجته أنه من المصلحة سجن يوسف؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وليغالبا الناس بأنه هو الذي راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان السجن أحب إلى يوسف من مخالطتها، وأبعد له عن معاشرتهم وقربهم.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١) ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾

الضَّغِيرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٧﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٩﴾ [يوسف: ٣٥ - ٣٠].

وقد قيَّض الله ﷻ ليوسف الصديق أن دخل معه السِّجْنَ فَيَتَانِ، فلما رَأَى يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه وما كساه الله ﷻ به من الجلال والبهاء، وأبصرا في سلوكه النجابة والكرامة وكثرة عبادته لله وإحسانه إلى خلق الله، فكان سلوكه أفصح دعوة إلى الله، فتعلق قلبهما به، وقد رأى كل واحد منهما رؤيا، ورأيا أن خير من يعبر لهما رؤياهما هو يوسف الصديق، فأقبلا عليه وقص كل واحد منهما عليه رؤيا، قال أحدهما: إني أراني أعصر عنبا لأتخذه خمرا، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي سلة خبز وأن الطير تأكل من هذا الخبز، ففسر لنا رؤيانا وعرفنا بحقيقة ما تدل وتؤول إليه هذه الرؤيا، إنا نرى في وجهك الخير والعلم والمعرفة والإحسان. وقبل أن يفسر لهما رؤياهما، استغل فرصة إقبالهما عليه هذا الإقبال الصادق، فدعاهما إلى الله ﷻ إلا أنه قبل دعوتهما إلى الله تعالى بدأ بتعريفهما بنفسه وبمنة الله تعالى عليه وعلى آبائه، فأخبرهما أنه عليم بتعبير الرؤى والأحلام، فمهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول، وأخبركما بما يأتيكما من طعام قبل مجيئه، وليس هذا مني، إنما هو من الله الذي علمني، وقبل أن يجرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ سلك أجمل الطرق في الدعوة إلى الله بترك عبادة الأصنام والأوثان، وأنه لا يجوز لأحد أن يتعلق بها فقال: ﴿رَبِّيَ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٨]، وأن أفضل ما يُعطى العبد ترك عبادة الأصنام والأوثان ومعرفة حق الله ﷻ، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

ولما وصل إلى هذا المقام جرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ فقال: ﴿يُصَلِّحِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٠].

وَبَيَّنَ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَكِمَ لغيرِ شرعِ الله، فلهذا الخلق والأمر، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبعد أن دعاهما إلى الله فسّر لكل واحد منهما رؤياه، وأن الذي رأى أنه يعصر خمراً سيخرج من السجن ويسقي سيده خمراً. وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه فإنه يُصلب فتأكل الطير من رأسه، ولكنه لم يحدد لهما مَنْ الذي يُصلب؟ بل قال: أحكما يسقي ربه خمراً والآخر يُصلب فتأكل الطير منه. وتم تعبير رؤياكما، يعني: فليصبر الذي قُضِيَ عليه بالصلب وليشكر الذي سينجو من السجن، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي﴾ [يوسف: ٤٢] عند الملك واذكر أني مظلوم، والظن قد يأتي بمعنى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠]. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤٦﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤ - ٥].

وقد أنسى الشيطان الناجي بعد خروجه من السجن ذكر يوسف السجين المظلوم، فمكث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين، أي عدداً من السنين، والبضع قيل ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى الخمس أو من أربع إلى تسع أو هو سبع، وقد قص الله تبارك وتعالى ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأٌ بَدِيعٌ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأٌ بَدِيعٌ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ حُمْقٌ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ يَصْجِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْأَخْرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٣﴾ [يوسف: ٣٦ - ٤٢].

هذا وقول يوسف عليه السلام: ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يدل على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، وقد زعم بعض الناس أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] عائد على يوسف، وأنه إنما عُوقِبَ بلبثه في السجن بضع سنين لطلبه الفرج من غير الله، وهذا كذب على الله وعلى يوسف عليه السلام، وأما ما ذكره ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طويلاً، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». فإن هذا الخبر لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى نسيان الناجي من صاحبي سجن يوسف ﷺ ذكر شأن يوسف للملك، وقد أسند الله ﷻ أمر هذا النسيان إلى الشيطان حيث قال: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

وهذا الأسلوب في إسناد الشر إلى الشيطان قد كرر الله تبارك وتعالى ذكره في القرآن العظيم حيث قال في قصة أيوب: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ وذلك لأن كل شر وضير يصيب الإنسان إنما هو بسبب الشيطان الذي أخرج أبويننا من الجنة، وهو من الأدب مع الله ﷻ في إسناد الخير إليه وإسناد الشر إلى الشيطان وإلى النفس الأمارة بالسوء؛ مع الاعتقاد الجازم بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الكل من عند الله، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وعندما أراد الله ﷻ إعلاء شأن يوسف وتثبيت كرامته في قلوب ملك مصر وعموم شعبها رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان وسبع بقرات هزيلة، وأن السبع البقرات الهزيلة تأكل السبع السمان، كما رأى في منامه سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، وقد اهتم الملك بأمر رؤياه هذه وطلب من أشرف قومه ومن يظن فيهم المعرفة بتأويلها أن يؤلّوها ويعبروها له ويفتوه فما تقتضيه هذه الرؤيا، فقالوا: هذه أخلاط منامات وأضغاث أحلام، وأصل الضغث قبضة الحشيش المختلط الرطب باليابس، أي هذه رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها، ونحن غير قادرين على تعبيرها، وغير عارفين بتفسيرها، وعندئذٍ تذكّر الناجي من صاحبيه في السجن بعد هذه المدة الطويلة، وقال: أنا آتيكم بتفسيرها وتعبيرها من الخبر بذلك يوسف السجين، فأرسلوني إليه، فأرسلوه إلى يوسف ﷺ، وبمجرد

ما عرض عليه الرؤيا سارع إلى تفسيرها، ففسّر السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بسبع سنوات رغيدة مخاصيب، وفسر السبع البقرات العجاف الهزيلة والسبع السنبلات اليابسة بسبع سنوات مجدبة، ولم يكتف بهذا التفسير العظيم لرؤيا الملك، بل وضع لهم خطة تجاوز محنة السبع السنوات المجدبة، فقال: تزرعون السبع السنوات مغتتمين فرصة رغدها وجودة محاصيلها دون تضييع شيء من هذه الفرصة، وإذا نضج الزرع فلا تدوسوه واتركوه في سنابله إلا بقدر حاجتكم الضرورية من الطعام منه، ولا تتوسعوا في النفقة وادخروا كل ما يمكنكم ادخاره في هذه السنوات المخصصة، حتى يبقى لكم ما تحتاجون إليه في السنوات السبع المجدبة، وبشرهم بأن الله سيغيثهم في أول عام بعد هذه السبع بخير كثير يغاث الناس ويذهب الجذب عنهم، وتعود معاصر الزيت ونحوه إلى عملها كما كانت قبل هذه السنوات.

ولا شك أن ما أشار به يوسف الصديق عليه السلام من حفظ الحبوب في سنابلها لا يزال محل إعجاب وتقدير من علماء الزراعة في القديم والحديث؛ فإن بقاء الحبوب في سنابلها أدعى لصيانتها من السوس والفساد وأبقى لها على طول الزمان دون حاجة إلى صوامع أو نحوها، وعندما سمع الملك بهذا التعبير عظم يوسف في قلبه وظهر له أنه في أمس الحاجة إلى قربه؛ فقال: ائْتُونِي بِهِ، فلما جاءه الرسول وعرفه أن الملك يدعوه لتكريمه وإجلاله لم يسارع إلى الخروج من السجن، بل طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويسأله عن خبر النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ليكون ذلك أظهر لبراءته وأعز لمكانته، وقطعاً لألسنة السوء، والله لا تخفى عليه خافية، وقد ذهب عامة العلماء إلى أن المراد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». أي لسارعت إلى الخروج من السجن دون تريث، ولأجبت رسول الملك في الحال وخرجت من السجن، وعلى أي حال فإن المقصود من هذا الحديث كما أشرت في سرد قصة إبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام هو بيان علو منزلة يوسف عليه السلام لا أنه أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من المتفق عليه عند العقلاء أن تواضع الرفيع القدر

لمن دونه لا يُنزل من قدره، ورسول الله ﷺ هو أفضل خلق الله قاطبة، فهو شيخ المرسلين وإمام الأنبياء، وهو العالي الدرجات المشار إليه في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فرسول الله محمد ﷺ في المرسلين سماء ما طاولتها سماء.

وقد سأل الملك النسوة اللاتي أخبرن أنهن قطعن أيديهن: هل رأيتن من يوسف شيئاً يسوء؟ ﴿فُلْنِ حَشَّ لِلَّهِ﴾ ما رأين عليه من سوء، ﴿قَالَتْ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ الْكُنَّ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ واتضح وبان وانكشف، ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٤١) ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي اعترف له بفضلته وهو غائب عني، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾، وقالت امرأة العزيز أيضاً: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعندما تأكد الملك أن يوسف سُجن ظلماً، وأنه أحد الأمناء الكرام، والعلماء العظام فلم يطق الملك صبراً، وقال: ﴿أَتُؤْنُونِي بِهِ؟﴾؛ ليكون خاصتي، فلما جاء يوسف وكلمه قال له الملك: ﴿إِنَّكَ أَيُّومَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فأراد يوسف ﷺ نفع البلاد والعباد، فقال للملك: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فمكّن الله ﷻ ليوسف في أرض مصر ينزل فيها حيث يشاء حراً كريماً سيداً مطاعاً من فضل الله عليه وعلى كل محسن، وهذا في الدنيا ﴿وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسُتُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعَرُّوفُونَ﴾ (٤٣) ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسُتُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَاكُتُونَ﴾ (٤٧) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْصِنُونَ﴾ (٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنُونِي بِهِ؟﴾

فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَلِّهْ مَا بَالُ الْبُحْرَانِ الَّتِي قَطَعَنَ أَيَّدِيَّ إِنَّ رَبِّي
يَكِيدُهُنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ «أي إن إلهي وخالقي وسيدي رب السموات والأرض لا تخفى
عليه خافية من كيد النساء ومكرهن الذي أوصلني إلى السجن» ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ
رَوَدُنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنَنْ
حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوَيْتُمْ بِهِ اسْتَحْضِرْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَلِيَّةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ [يوسف: ٤٣ - ٥٧].

وقد أورد بعض المفسرين هنا أحاديث باطلة، وأخباراً مردودة عاطلة في
تفسير بعض هذه الآيات يحمي الله تعالى أنبياءه ورسله عن مثل ما روي في هذه
التفاسير كمثل ما روي في قوله ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أنه حلَّ الهميان، أي تكة سراويله
وجلس منها مجلس الرجل من زوجته. وهذا والله الحمد لم يثبت بخبر عن
رسول الله ﷺ، وإنما هو قول مدسوس من اليهود وأخبار بني إسرائيل، وصریح
الآية علق الهمم بها على رؤيته برهان ربه بصيغة الماضي، فكأنه قال: ولولا أنه
رأى برهان ربه لهمم بها، ولكنه لم يهمم بها؛ لأنه رأى برهان ربه، وسياق الآية
يكذب ما زعموا، كقوله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْنَاهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. معطوفاً
بالفاء الدالة على التعقيب، وأنه بمجرد مرادتها له استعصم وهذا ظاهر.

وكذلك تفسيرهم لقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ بأنه أراد بربه عزيز مصر،
وهذا والله الحمد لم يثبت بخبر صحيح ولا حسن عن رسول الله ﷺ، والسياق
يدل على أن الذي رأى يوسف برهانه وأحسن مثواه هو رب العالمين.

كما زعموا أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ من كلام يوسف لامرأة
العزيز، وأن جبريل قال له: ولا حين هممت بها، أو أن امرأة العزيز قالت له
حينئذ: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف.

فهذا كله مفترى على يوسف الصديق وقد صانه الله وعصمه من كل سوء
كما عصم إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

بعد أن مكن الله ﷻ ليوسف وقرر ملكها جعله عزيزها، وأطلق له حرية التصرف في خزائن الأرض، واحتاج القاصي والداني إلى الميرة من عنده، وكانت الأقطار المجاورة لمصر ولا سيما أرض كنعان في حاجة شديدة إلى الطعام وقتئذٍ، فصاروا يجيئون إلى يوسف ﷻ يمتارون لأنفسهم وعيالهم وأهلهم. يحملون معهم إلى مصر ما عندهم من بضائع وأثمان، وكان يوسف ﷻ قد قرر أنه لا يُعطي أحدٌ من هؤلاء إلا مقداراً معيناً من الكيل في النوبة الواحدة، وله أن يرجع في وقت آخر في المستقبل ليأخذ مرة أخرى على الطريقة المعروفة في العصر الحديث، وفي بعض أمصار العالم بنظام التموين.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ليمتاروا عندما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتناضون بها طعاماً، وقد أبقى يعقوب ﷻ ولده بنيامين عنده، فلما وصلوا إلى يوسف ﷻ ودخلوا عليه عرفهم لأنهم عندما رموه في الجُب كانوا كباراً بالغين فلم تتغير صورهم؛ أما يوسف ﷻ عندما رُمي في الجب كان صغيراً، والصغير إذا شب وبلغ أشده لا يكاد يعرفه من رآه في الصغر فقط؛ لأنه في الغالب تتغير ملامحه؛ ولذلك لم يعرفه إخوته ولم يخطر على بالهم أنه يوسف الصديق، والظاهر أن يوسف ﷻ أخذ يسألهم عن أحوالهم وأهلهم ليصل من وراء ذلك إلى الاطمئنان على حال أبيه وأخيه بنيامين، فعرفوه بحالهم وأن لهم أخاً من أبيهم؛ وأن أباهم هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فأكرمهم يوسف ﷻ وأظهر العناية بهم، وأمر بجهازهم ووفى لهم كيلهم كأنه قال لهم: لقد شوقتموني إلى أحيكم من أبيكم وأنا حريص على رؤيته، ولن تحصلوا على كيل منا في المستقبل في النوبات القادمة إلا إذا جئتموني بأخيكم

من أبيكم ولكم مني زيادة في تكريمكم حينئذٍ بأني أزيدكم كيل بعير، وأضاعف لكم الميرة، وأوعز إلى غلمانه أن يدسوا في رحالهم جميع ما جاؤوا به من بضاعة زيادة في صلة رحمهم وإحساناً إليهم، وإبقاءً لثرواتهم معهم ليعودوا بها إلى يوسف تحتناً، وإنما لم يضع بضاعتهم في رحالهم علناً لأنه ربما يؤدي ذلك إلى امتناعهم عن أخذها.

وقد قالوا ليوسف ﷺ: سنبدل كل جهدنا في إحضار أخينا من أبنينا معنا في المرة القادمة، وسنحاول أباه في ذلك بكل ما نطيق، ولن نُقصّر في ذلك.

فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروه بقصتهم مع عزيز مصر وأنه قرر ألا يكيل لنا في المستقبل إلا إذا أحضرنا أخانا بنيامين معنا، فترجو أن ترسله معنا لنكتال، وسنحافظ عليه أشد المحافظة، قال يعقوب ﷺ: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وزعمتم أنكم ستحافظون عليه عندما قلت في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] لكن الله تعالى هو الحافظ له، وهو خير الحافظين، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَآ﴾ [يوسف: ٦٥] ما نريد؟ لقد أوفى لنا الكيل ورد إلينا بضاعتنا، وأحسن مثوانا فأرسل معنا بنيامين في المرة القادمة لنمير أهلنا أي نأتيهم بالميرة وهي الطعام، وسنحفظ أخانا ونزُدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ، ذلك العطاء الجزل سهل على هذا العزيز الكريم، فقرر يعقوب ﷺ أن يرسل معهم بنيامين بشرط أن يؤتوه عهد الله وميثاقه أن يحافظوا عليه، وأنهم لا يقصرون في حفظه إلا إذا بلوا بشيء لا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم على دفعه، فلما حلفوا له ووثقوا عهدهم أشهد يعقوبُ الله تعالى على عهدهم وميثاقهم و﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

ولما تقرر سفرهم للميرة نصحهم يعقوب ﷺ بأنهم لا يدخلون من باب واحد. وإنما يدخلون من أبواب متفرقة إما من خوف العين عليهم إذا كانوا مجتمعين وعُرف أنهم أبناء رجل واحد، وإما من خوف أن يحصروا جميعاً إذا كان أريد بهم شر، غير أن يعقوب ﷺ بيّن أن الحذر لا ينجي من القدر، وأن حرصه على سلامتهم لن ينفعهم إذا كان الله ﷻ أراد أن يضرهم، ففضاء الله

نافذ. وحكم الله غالب، والله وحده الحكم، وعليه أتوكل وأعتمد، ويجب على كل مؤمن أن يكون توكله على الله واعتماده عليه وحده لا إله غيره ولا رب سواه، وسارت القافلة ووصلوا إلى مصر، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ [يوسف: ٦٨] من الأبواب المتفرقة مع صدق ما قال يعقوب عليه السلام أنه ما يُغني عنهم من الله من شيء؛ لأن الله وحده هو الحافظ، لكن الله تبارك وتعالى نفعهم بما علمهم أبوهم، وقد علمه الله وَجَلَّ، فوصية يعقوب لابنه وصية حق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، والعين حق، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»، كما أخرج مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ما كان من مجيء إخوة يوسف إليه ودخولهم عليه، وما صار من جهة الكيل ودس البضاعة في أوعيتهم ورحالهم، وطلب أخيهم غير الشقيق، ورجوعهم إلى أبيهم. ومرادته في بنيامين حتى قرر إرساله معهم، ووصية أبيهم لهم عند دخولهم، وتقرير أن الأمر كله لله، وأن الحذر لا ينجي من القدر، والإشارة إلى أن العين حق، حيث يقول وَجَلَّ:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْأَخْتَرُونَ أَمْ أَتُنُونِي بِخَيْرٍ مِّنْ الْمُتْرَلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرَوْدٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَآ

تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٥٨ - ٦٨﴾.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه ومعهم أخوهم بنيامين وتلقاهم يوسف ﷺ بما يثلج صدورهم ويطمئن نفوسهم أسرَّ إلى بنيامين وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف، فلا تحزن بما أصابك من إختوتك بسبب الحسد، وأمره ألا يخبرهم بأن هذا العزيز هو أخوهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقية عنده، وأفهمه أن جمع جميع الأحية قريب، لما خططه يوسف ﷺ ودبره حتى يجيء إليه أهله أجمعون، وعلى رأسهم أبوه يعقوب ﷺ، وأنه لما جهَّزهم بِجَهَّازِهِمْ ووفَّى لهم كيلهم وزادهم كيل بعير دسَّ السَّقَايَةَ «وهو صواع الملك»، في رَحْلِ أَخِيهِ بنيامين دون أن يراه أحد من غلمانة أو غيرهم، ولما افتقد فتيان يوسف الصواع وشاع أنه سُرق نادى منادٍ: ﴿أَيُّهَا أَلْعَيْرُ﴾ يا أهل القافلة! ﴿إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ قال أهل القافلة بمن فيهم من إخوة يوسف وقد انزعجوا: ماذا ضاع منكم؟ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. ولم يكن يوسف ﷺ هو الذي نادى، ولا هو الذي أمر المنادي، وإنما المسؤول عن المحافظة على أمواله هو الذي نادى أو أمر المنادي، فلا يقول قائل: كيف يليق بيوسف ﷺ مع علو منصبه وشريف مرتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً بالسرقة وهم براء؟ لأن عمل يوسف ﷺ اقتصر على جعله ﴿السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهذه لا حرج فيها، أما المنادي أو الأمر بالنداء فلم يكن يوسف ﷺ، وقد قال أهل القافلة للمنادي بفقد الصواع: والله لقد علمتم أننا في أمس الحاجة للتردد عليكم، ومثلنا مع حاجته إليكم لا يفسد في أرضكم، ولا يسرق منها، فقال المسؤولون عن المحافظة على الغلال والأمتعة: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين في دعوكم أن الصواع ليس معكم، وثبت أن صواع الملك في رحل بعضكم؟ قالوا: جزاء من وُجد في رحله صواع الملك أن يؤخذ ويصير في خدمة الملك جزاء له على ذلك، كذلك النظام الذي نجازي به السارقين.

وهنا بدأ يوسف عليه السلام بالتفتيش والبحث في رحالهم قبل التفتيش في رحل أخيه ووعائه؛ لأنه لو بدأ برحل أخيه لخطر ببالهم أنها حيلة لأخذ أخيهم، فأخّر تفتيش رحل أخيه ليدفع هذه الخاطرة عنهم، ثم استخرجها من وعاء أخيه، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ﴾ أي كذلك ألهمنا إخوة يوسف أن يحكموا على من سرق الصواع بأن يؤخذ به كما ألهمنا يوسف بدس الصواع في رحل أخيه، وهذا الذي فعله يوسف عليه السلام من الكيد المحبوب الذي يحبه الله ويرضاه، ولكن الله عز وجل يرفع من يشاء من عباده درجات، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والثلاثون

تابع: يوسف الصديق ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما كان من تدبير يوسف ﷺ لاستبقاء أخيه بنيامين عنده وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَابَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٦].

ولما رأى أخوة يوسف أن الصراع وُجد في رحل بنيامين أطلقوا ألسنتهم بسبه وسب يوسف، وقالوا: إن يكن قد سرق الصواع فقد سرق أخ له من قبل، وكأنهم أرادوا أن يوسف سرق قلب أبيه منهم، أو أنهم لبغضهم ليوسف ﷺ بسبب حب أبيه له رموه وسبوه ولم يتركوا الإساءة إليه؛ ولذلك قال يوسف ﷺ في نفسه وسيره عن إخوته هؤلاء: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴿٧٦﴾ إِنْ أَخَانَا هَذَا لَهُ أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَطِيقُ فِرَاقَهُ ﴿٧٧﴾ فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ ﴿٧٨﴾ وَأَعْطَانَا بَنِيَامِينَ لِنُوصِلَهُ إِلَىٰ أَبِيهِ، فَقَالَ يُونُسُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ ﴿٧٩﴾ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ ﴿٨٠﴾ إِنَّا إِذَا لَوَاضَعُوا الْأُمُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَيُوسُفَ ﷺ لَا حَاجَةَ لَهُ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِوَىٰ بَنِيَامِينَ، فَلَمَّا يَسُّوا مِنْ تَخْلِيصِ بَنِيَامِينَ الَّذِي قَدْ التَزَمُوا لِأَبِيهِ بَرْدَهُ إِلَيْهِ وَعَاهَدُوهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿٨١﴾ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴿٨٢﴾ أَيُّ

انفردوا عن الناس ليتناجوا فيما بينهم: ماذا يفعلون؟ فقال أسنهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَافِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠] برده إليه إلا أن يحاط بكم، فأنا سأبقى في هذه البلدة قريباً من بنيامين حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني أو يحكم الله لي، أي أو أن يقضي الله لي قضاء إما بموتي أو تخليص أخي والله خير الحاكمين.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون ذلك عذراً لهم فيقولوا له: إن ابنك نسب إلى السرقة وأخذ بذلك. وما شهدنا إلا بما علمنا وشاع عند جميع من حولنا من أهل العير والقرية، وما كنا ندري أنه سيقع في هذا الأمر؛ لأننا لا نعلم الغيب، واسأل القافلة التي أقبلنا فيها والقرية التي كنا فيها، وإنا لصادقون، فوصلوا إلى أبيهم وأخبروه بما نصحهم به أخوهم الكبير، فأجابهم يعقوب عليه السلام بمثل ما أجابهم به حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب وقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ورجا الله عز وجل أن يرد عليه يوسف وبنيامين وأخاهم الكبير، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، وأعرض يعقوب عن هؤلاء عليهم السلام وقال: ﴿يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ﴾ [يوسف: ٨٤]، واشتد حزنه حتى ابيضت عيناه من الحزن، إذ جدد حزن الأخيرين حزن يوسف، لكنه كظم غيظه وسكت عن الشكوى لغير الله عز وجل، ومع ذلك فقد هيج حزنه على يوسف كوامن حقدهم فقالوا: تالله لا تزال ولا تبرح تذكر يوسف ولا تنسى حبه حتى تكون حرضاً أي مشرفاً على الموت والهلاك، أو تكون من الهالكين، قال إنما أشكو بثي أي عظيم حزني وغمي إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، من أن يوسف حي وقد يكون في مصر، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واطلبوا خبرهما، ولا تيأسوا من روح الله أي لا تقنطوا من رحمة الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فانطلقوا مرة أخرى إلى مصر بحثاً عن يوسف وشكوى إلى عزيز مصر مما أصابهم من الضر وطلباً للميرة؛ فلما دخلوا على يوسف قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أي مدفوعة لا يقبلها أحد لردائها، فأحسن إلينا من فضلك، وأوف لنا وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين.

فقال لهم يوسف ﷺ: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وقت جهلكم، فلما سمعوه يذكر ما فعلوه بيوسف تفرسوا فيه، ووقع في نفوسهم أنه يوسف ﷺ فقالوا: إنك لأنت يوسف، قال: أنا يوسف وهذا بنيامين أخي قد منَّ الله علينا بالإعزاز والإكرام، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فأظهروا الندم على ما كان منهم، وقالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وفضلك، وإنا كنا خاطئين آثمين فيما فعلناه بك. قال: لا عتب ولا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وقد علم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن فقال لإخوته: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين. وهذا يدل على أن الحزن يؤثر على العين ويؤذيها، وأن السرور يؤثر على العين صحة وعافية؛ ولذلك قالت الخنساء في صخر عن نفسها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وبمجرد خروج العير من أرض مصر ومعهم قميص يوسف شم يعقوب ريح يوسف ﷺ، فقال لمن حضره من بنيه وأولادهم: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تنسبوني إلى السفه لصدقتُموني، قالوا تالله إنك لفي ضلالك وهيامك القديم في حب يوسف. فلما جاء البشير بالقيمص وألقاه على وجه يعقوب ﷺ رجع بصيراً. وقال لهم: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فطلبوا من أبيهم الصفح عنهم، وأن يستغفر الله لهم، وأنهم أخطؤوا في حق أبيهم وأخيهم. فوعدهم بأنه سيستغفر لهم ربه إنه هو الغفور الرحيم. ثم توجهوا جميعاً إلى مصر وجمع الله شملهم.

فلما دخلوا على يوسف ضم إليه أبويه أي أباه وخالته أو أباه وأمه على القول بأنها عاشت إلى ذلك الحين، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، وأجلس أبويه على سريريه، وسجدوا لله جميعاً شكراً من أجل يوسف على ما منَّ به الله عليهم وما أعز به يوسف. وقال يوسف لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد تفضل عليّ إذ أخرجني من السجن وجاء بكم

من البدو من بعد أن نزع الشيطان، فأفسد قلوب إخوتي عليّ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وقد تمت على يوسف النعمة وآتاه الله الملك، وطلب من الله وَعَلَىٰ أَنْ يَلْحَقَهُ بالصالحين. وفي ذلك يقول:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْحًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَمُوا ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَاصُوا بَعِيثًا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِیْضًا عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْتَجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَيْ نَتَّقُكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَاطَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَفْتَدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بُصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا بَنَاتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ [يوسف: ٧٧ - ١٠٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والثلاثون

شعيب عليه السلام

نتحدث إليكم عن شعيب نبي الله ورسوله الموصوف بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأكثر أهل العلم ينسبونه إلى إبراهيم خليل الرحمن عليهما الصلاة والسلام، وبعضهم يذكر أنه من العرب العاربة، وقد بعثه الله ﷻ إلى قومه مدين، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت، على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام، كما هي على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد؛ كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط ﷻ، وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة؛ وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والأراك، كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعدياً على الأموال، يطففون في المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ويسلكون كل سبيل معوجة، وينحرفون عن الصراط المستقيم، وقد سماهم الله ﷻ مدين باسم قبيلتهم، كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة، وقد تَوَهَّم بعض الناس فزعم أن شعيباً أرسل إلى أُمَّتَيْنِ هما مدين وأصحاب الأيكة، وهذا قول مردود، وفهم غير سديد، وإنما مدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال الله ﷻ: ﴿وَأِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال في أصحاب الأيكة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. ولم يقل أخوهم؛ لأنه لما ذكر مدين - وشعيب في نسبها - قال: أخوهم، ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيب غير مشارك معهم في أيكتهم قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم وهُم هُم، وجملة الأوصاف

التي وصف الله ﷻ بها أهل مدين هي جملة الأوصاف التي وصف الله ﷻ بها أصحاب الأيكة، وقد بعث الله ﷻ إلى مدين أصحاب الأيكة شعيباً ﷺ، وهو من أهل بيت هم أعز بيوت مدين، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأمرهم أن يوفوا الكيل والميزان. وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يتركوا الإفساد في الأرض، وأن لا يقطعوا الطريق، وأن يستغنوا بالحلال من رزق الله عن الحرام، وأن يتركوا الظلم ويلتزموا بالعدل في معاملاتهم، وأن ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين، وبيّن لهم أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ولا يسألهم عن نصيحته لهم عوضاً، وأنه يخاف عليهم إن كذبوه أن يحل بهم ما حل بالمكذبين بالرسول، وتهدهم إن شاقوه أن يصيبهم ﴿مَثَلُ مَا أَصَابَ قَوْمٌ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود: ٨٩]، وذكرهم بما أصاب قوم لوط لما كذبوا لوطاً ﷻ، وهم غير بعيدين عنهم، يعلمون ما حل بهم.

وقد ساق القرآن قصة مدين بعد قصة قوم لوط مباشرة في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سورة الحجر، وفي سورة الشعراء، كما ذكرهم شعيب ﷻ بنعمة الله عليهم في أنفسهم وبلادهم، وكيف كانوا قليلاً فكثروهم، فما كان جواب قومه إلا أن سخروا منه، واستهزؤوا به وبصلاته. وقالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، و﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، تماماً كما قال الكفار لرسول الله محمد ﷺ ولإخوانه الأنبياء من قبله، وقالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التي عبدها أبائنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صلاتك تقيد حريتنا في التصرف في أموالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو ربا أو رشوة أو تطفيف الكيل والميزان، كنا قبل دعوتك نظنك حليماً رشيداً، وجعلوا أن رسل الله صلى الله عليه وسلم قد اتفقت دعوتهم على أنه يجب صيانة النفس والمال والعرض والعقل مع صيانة الدين، وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ من مال غيره شيئاً من غير طريق مشروع، كما جهل هؤلاء أن طيب المطعم أو خبثه له أثر خطير على سلوك الإنسان استقامة أو انحرافاً، وقد أجابهم شعيب ﷻ بأن الله تفضل عليه وهداه إلى هذا الدين الذي يسلك بهم سبل السلام ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

والسعيد من سارع إلى اتباعه والعمل بما يرسمه، وهذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنا أول المؤمنين الملتزمين بهذا الدين، ولن ﴿أَخَالِفْكُمْ إِلَى مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ﴾، ولا أريد لكم إلا الخير. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد هذا البيان الواضح والدعوى المشرقة من شعيب عليه السلام قالوا له: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾، ولا ندري حكمة هذه الأوامر والنواهي التي جئت بها، وأنت رجل ضعيف نستطيع القضاء عليك، إلا أننا من أجل رهطك وعشيرتك تركناك ولم نرجمك، ولن ترى منا بعد اليوم كرامة ولا إعزازاً، فقال لهم شعيب: أمقام رهطي أهيب في قلوبكم من الله المحيط بكم الآخذ بنواصيكم الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، ومع ذلك لم تخافوه ولم تعظموه وهو رب كل شيء وسيده ومليكه المحيط بأعمالكم، وقد أجابه إلى الله تبارك وتعالى جماعة من قومه فأغاظ ذلك الكافرين وهددوا شعيباً والمؤمنين بطردهم من البلاد إذا لم يرجعوا عن هذا الدين وحاولوا التلبيس على المؤمنين فقالوا لهم: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. فأجابهم شعيب والمؤمنون معه: كيف تطلبون منا أن نرجع من النور إلى الظلمات ومن الهدى إلى الضلالة، وقد تفضل الله علينا فهدانا إلى صراطه المستقيم. ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَالِحِينَ﴾، وسيد الحاكمين، وخير الناصرين، وليس في قوله تعالى عن شعيب والمؤمنين: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا﴾. دليل على أن شعيباً كان على ملتهم، بل المراد بالعود هنا الصيرورة، أي إن صرنا في ملتكم بعد أن صاننا الله عن الوقوع فيها. وكذلك ما حكاه الله عن قوم شعيب في قولهم له وللمؤمنين به: ﴿تَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا، فكلمة عاد قد تستعمل بمعنى صار، وقد بلغ الحال بقوم شعيب أن استعجلوا عقوبة الله وطلبوا من

شعيب أن يأتي بها وأن يُسقط عليهم كسفاً من السماء إن كان من الصادقين . فبين لهم شعيب أن عقوبتهم بيد الله وحده يأتي بها إن شاء متى شاء، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه عليم بأقوالكم واستهزائكم ولن تفلتوا من عقوبته، ثم تحداهم ﷺ وقال لهم: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ أي ابدلوا كل جهدكم وطاقنكم لمقاومة عذاب الله إذا نزل بكم، وأنا عامل على طاعة الله أبدل كل جهدي في مرضاته، وسترون قريباً لمن تكون العاقبة الحميدة، وانتظروا وإني منتظر، وستندمون حيث لا ينفعكم الندم، ولما جاء أمر الله نجى الله تعالى شعيباً والذين آمنوا معه برحمة من الله، وسلط الله تبارك وتعالى على الكافرين من قومه العذاب؛ فجاءتهم رجفة وزلزلة من تحتهم، وصيحة زلزلت قلوبهم، ووظلة أمطرتهم كسفاً من عذاب الله، وقطعاً من النار، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، فأصبحوا في بلادهم وديارهم جاثمين صرعى هالكين كأن لم يغنوا في هذه الديار ولم يقيموا فيها، وألحقهم الله ﷻ بالكافرين المكذبين، فبعداً لمدين كما بعدت ثمود، هذا وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم، فذكر قصتهم في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الشعراء، وذكرها على سبيل الإيجاز في سورة العنكبوت وفي سورة الحجر.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والثلاثون

تابع شعيب عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم؛ فذكرها في سورة الأعراف حيث يقول:

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَفْقَوْمِ اَعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَاقُوْا اَلْكَیْلَ وَاَلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوْا النَّاسَ اَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوْا فِى الْاَرْضِ بَعْدَ وِصْلٰهَآ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوْا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُوْنَ وَتَصُدُوْنَ عَن سَبِيْلِ اللّٰهِ مَنْ ءَامَنَ بِهٖ وَتَبْغُوْنَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوْا اِذْ كُنْتُمْ قَلِيْلًا فَكَذَّبْتُمْ وَاَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِيْنَ ﴿٨٦﴾ وَاِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوْا بِآلٰى ذٰى اُرْسِلْتُ بِهٖ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوْا فَاصْبِرُوْا حَتّٰى يَخْرُجَ اللّٰهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحٰكِمِيْنَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَاُ الَّذِيْنَ اَسْتَكْبَرُوْا مِن قَوْمِهٖ لِنَخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَّالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مَعَكَ مِن قَرْيٰنَا اَوْ لَنُعَوِّدَنَّ فِى مَلِيْنٰنَا قَالَ اَوْلُوْا كُنَّا كَرِهِيْنَ ﴿٨٨﴾ قَدْ اَفْتَرَيْنَا عَلٰى اللّٰهِ كَذْبًا اِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ اِذْ بَجَّعْنَا اللّٰهَ مِنْهَا وَمَا يَكُوْنُ لَنَا اَنْ نَّعُوْدَ فِيْهَا اِلَّا اَنْ يَشَآءَ اللّٰهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلٰى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَاَنْتَ خَيْرُ الْفٰضِلِيْنَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَاُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِن قَوْمِهٖ لِيْنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا اِنَّكُمْ اِذَا لَخِيْرُوْنَ ﴿٩٠﴾ فَاَخَذْتُمْ الرَّجْفَةَ فَاصْبَحُوْا فِى دَارِهِمْ جٰثِمِيْنَ ﴿٩١﴾ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا شُعَيْبًا كَاَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيْهَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا شُعَيْبًا كَاَنُوْا هُمُ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٩٢﴾ فَنُوَلّٰى عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَوْمِ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسٰلَتِ رَبِّيْ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاَسٰى عَلٰى قَوْمٍ كٰفِرِيْنَ﴾

[الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَفْقَوْمِ اَعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا نَنْقُصُوْا الْمِكْيَالَ وَاَلْمِيزَانَ اِنِّىْۤ اَرٰكُمْ بِخَيْرٍ وَاِنِّىْۤ اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيْطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَفْقَوْمِ اَوْفُوْا الْمِكْيَالَ وَاَلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوْا

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلَوْتَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَنِيَّ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَدَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا يَنْعَمُونَ فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَنِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ ﴿هود: ٨٤ - ٩٥﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَحْصَبَ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٧٦ - ١٩١﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿العنكبوت: ٣٦ - ٣٧﴾.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمَارٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ - ٧٩].

كما قرن ذكر مدين بمجموعة من الأمم التي كذبت رسلها وأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد حيث يقول في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠] وكما قال في سورة ق: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرِّيسِ وَثَمُودُ ﴿١٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

وفي قوله تعالى في قوم لوط وقوم شعيب: ﴿وَإِنَّهُمَا لِيَآمَارٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]. أي إن قرى قوم لوط وأهل مدين على طريق مشهور مسلوك يعرفه المسافرون إلى تلك الجهات، ويتوارث العلم به جيل بعد جيل، فلا يزال الناس إلى اليوم يعرفون قرى قوم لوط وأرض مدين.

وقد وهم كثير من المنتسبين للعلم فزعموا أن شعيباً هو الشيخ الكبير الذي زوج موسى ﷺ ابنته لما توجه موسى إلى أرض مدين هارباً من فرعون والقوم الظالمين قبل أن يبعثه الله ﷻ نبياً رسولاً، ويفسرون بذلك قوله تعالى عن موسى ﷻ:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٢﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجْجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سِتْرًا إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ

عَلَىٰ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٩﴾ [القصص: ٢٠ - ٢٩].

فإن شعيباً عليه السلام متقدماً على موسى عليه السلام بقرون كثيرة وأزمان متباعدة، ولا يلزم من ورود موسى أرض مدين ووجود شيخ كبير صالح فيها يزوج موسى إحدى ابنتيه أن يكون هذا الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام. ولم يرد خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن الرجل الذي صاهر موسى بمدين هو شعيب عليه السلام، بل القرآن يشير إلى أن الله تعالى بعث موسى بعد قرون متطاولة من إهلاك قوم شعيب، حيث يقول عز وجل في سورة الأعراف بعدما ذكر قصة شعيب مع قومه وهلاكهم: ﴿تِلْكَ الْأَفْرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠١ - ١٠٣].

وقال في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]. وقال شعيب لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

وقوم لوط أهلكوا في حياة إبراهيم خليل الرحمن، وبينهم وبين موسى أمم متطاولة وأجيال متباعدة، أما الذي زوج موسى عليه السلام ابنته فهو رجل مؤمن، من ذرية أحد المؤمنين الذين نجاهم الله من قوم شعيب. والله أعلم.

هذا وظاهر سياق القرآن لقصة قوم شعيب عليه السلام يشعر أن أكبر جرائمهم بعد الشرك بالله كان التطفيف في الكيل والميزان؛ مما ينبه الناس إلى الاحتراز من هذه الجريمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثامن والثلاثون

أيوب عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله قدوة الصابرين المضروب به المثل في الصبر على البلاء أيوب عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٤]. بناءً على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائداً على إبراهيم عليه السلام؛ لأن الكلام سيق من أجله، وقال بعض أهل العلم إنه ليس من ذرية إبراهيم وجعل الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ راجعاً إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور. على أن الله تبارك وتعالى قد حصر النبوة بعد إبراهيم في ذريته حيث قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأُمَمَ وَالْكِتَابَ﴾ [٢٧].

وقد اشتملت قصة أيوب عليه السلام في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على نقاط: منها ابتلاؤه وأنه مسه الضر، وأن هذا الضر أصابه في نفسه وأهله، فأحس بنُصْبٍ وعذاب، أي بتعب وألم ومشقة، ومنها أنه ابتلي فحلف على فعل شيء يؤلمه تنفيذه ويشق عليه، كما أنه ابتلي بالغنى الواسع والمال الوفير، ولم يثبت عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم تحديد نوع البلاء الذي أصيب به أيوب عليه السلام في جسمه؛ إلا أن القرآن العظيم يشير إلى أنه أُصِيب بنوع من الحمى الشديدة، إذ جعل الله تبارك وتعالى علاجه من مرضه أن يغتسل بماء بارد، وأن يشرب منه، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ أُصِيب بنوع من الحمى أن يغتسل بالماء البارد؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء»؛ وفي لفظ للبخاري من حديث

عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها كانت إذا أتيت بالمرأة قد حمت تدعو لها، أخذت الماء فصبته بينها وبين جبيها وقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نبردها بالماء.

وليس كل مرض أو كل حمى يعالجها التبريد بالماء، إنما هو نوع خاص من الحمى، إذ إن بعض أمراض الحمى قد يقتل المريض أن يغتسل بالماء.

والظاهر أن نوع المرض الذي أصاب أيوب عليه السلام كان غاية في الشدة والوجع والألم، وليس ذلك بغريب، فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُوعك وبعكاً شديداً، فمستته بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وبعكاً شديداً؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أجل إنني أوعك كما يوعك رجالن منكم» فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أجل»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

وقد أخرج الدارمي والنسائي في الكبرى وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». وقال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

أما ما يذكر من أن أيوب مرض وطال مرضه حتى عافه الجليس وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، وأن الدود صار يسرح ويمرح في جسده، وأنه تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، وأنه مر عليه في هذا المرض ثلاث سنوات أو سبع سنوات أو ثلاث عشرة سنة أو ثمانين سنة، وأنه كان له أخوان صديقان

فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب جزعاً شديداً إلخ. وأنه لما شفاه الله جاءت امرأته إلى المزبلة فلم تعرفه، فقالت له: أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ هذا القصاص المختلق لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ وعامة أهل العلم، على أن الله تبارك وتعالى يحمي أنبياءه من الأمراض المنفرة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى أعطى أيوب غنى واسعاً، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رجل جرادٍ من ذهب فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصته في موضعين من كتابه الكريم، فقال في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]. وقد عقب ذلك في هذا المقام ببيان أن الصبر من شيمة المرسلين فقال: ﴿وَلِسَمْعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وقد بين الله تبارك وتعالى في هذا المقام أنه تفضل على أيوب فاستجاب له وكشف الضر عنه وأعطاه أهله ومثلهم معهم رحمة من الله وذكرى للعابدين.

وقال في سورة ص: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْنَا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

وفي هذا المقام الكريم يسند أيوب الضر الذي أصابه إلى الشيطان تأدباً مع الله عز وجل في إسناد الشر إلى الشيطان؛ لأنه سبب كل بلاء يصيب ابن آدم في

الدنيا، حيث إنه هو المتسبب في إخراج آدم من الجنة وإهباطه إلى هذه الأرض للامتحان والابتلاء. وقد أشار الله تبارك وتعالى بقول: ﴿وَعُذِّبُكَ بِمَدِينَةٍ كَانَتْ إِذِهَا بُرْزُخُهَا فِي الْبُيُوتِ وَاتَّخَذْتُمْ فِيهَا مَكُنِّاتٍ لِّمَن يَخِفُ مِنْكُمْ حَشِيئَةً لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآية. والضغث قُبْضَةُ الحشيش المختلطة الرطب باليابس، وهو يشعر أنه حلف في حالة غضب أن يضرب حبيباً له عدداً معيناً، وقد أمره الله رَجَّكَ أن يبر بيمينه فيضرب من حلف على ضربه بهذه القبضة، مكافأة له على صبره وإحسانه؛ لأنه لو ضربه بسوط أو نحو لآلم ذلك الضارب والمضروب؛ ففرج الله كربته، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والثلاثون

إدريس وإلياس عليهما السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما إدريس وإلياس عليهما الصلاة والسلام، وقد أشار البخاري في صحيحه إلى أن إدريس هو إلياس، حيث قال: يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، كما أشار البخاري رحمته الله إلى اختلاف الناس في نسب إدريس عليه السلام، حيث قال في صحيحه: باب ذكر إدريس عليه السلام، وهو جد أبي نوح، ويقال: جد نوح عليه السلام، ولم يجزم البخاري بشي من نسب إدريس عليه السلام، ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ثابت يؤكد أن إدريس قبل نوح عليه السلام، وقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي رحمته الله إلى أن إدريس عليه السلام لم يكن جداً لنوح عليه السلام، وإنما هو من بني إسرائيل بناءً على أن إدريس هو إلياس، وأن إلياس من أنبياء بني إسرائيل، ومما يرجح ذلك الذي ذهب إليه ابن العربي ما رواه البخاري في صحيحه في حديث الإسراء والمعراج بلفظ: فلما مرَّ جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم بإدريس قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، فقلت: من هذا قال: هذا إدريس، وفي لفظ للبخاري من طريق قتادة: ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقبل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس. قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. فقوله: بالأخ الصالح، يشعر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من ذريته، ولو كان إدريس جداً لنوح لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذريته قطعاً، ولقال له كما قال له آدم وإبراهيم عليهما السلام في ليلة الإسراء والمعراج في هذا الحديث الصحيح: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

وكون إدريس عليه السلام قبل نوح أو بعده لا يتعلق به عظيم قصد، ولذلك لم يرد تحديد تاريخ وجوده وزمان بعثته في خبر ثابت صريح، وإنما المهم هو أنه من أنبياء الله تعالى، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وأنه كان صديقاً نبياً.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۗ﴾ (٥٦) ورفَعَنَّهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿[مریم: ٥٦ - ٥٧]. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَسْمِعِ لِدَرِيسَ وَذَا الْكَفَلِ كُلَّ مَنَ الصَّادِرِينَ ۗ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

وقد ذكر كثير من المفسرين والإخباريين كثيراً من الأساطير عن إدريس عليه السلام، فزعموا أنه طلب من أحد الملائكة أن يتوسط له عند ملك الموت أن يؤجل قبض روحه ليزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال له ملك الموت: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك.

كما زعموا له أوليات كثيرة فقالوا: إنه أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، وأول من خط بالرمل.

وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء: ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء. ١. هـ.

أما إلياس عليه السلام فظاهر القرآن الكريم يشير إلى أنه من ذرية نوح عليه السلام، حيث يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۗ﴾ (٨٤) وَرَكَرَبًا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿[الأنعام: ٨٤ - ٨٥]، فهذا يدل على أن إلياس من ذرية نوح سواء قلنا: إن الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود على نوح أو على إبراهيم؛ لأن إبراهيم؛ من ذرية نوح، فمن كان من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح لا محالة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إلیاس في سورة الأنعام كما ذكرت قريبا، كما ذكر قصته في سورة الصافات، وقد تضمنت هذه القصة صورة مشرقة من صور دعوته إلى الله ﷻ، ووجوب إخلاص العبادة لله وحده، وحض قومه على تقوى الله تبارك وتعالى وتحذيرهم من أسباب سخطه، وأنه لا ينجيهم من عذاب الله إلا الفرار إلى الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وسلوك صراط الله المستقيم، ونفّرهم من عبادة صنمهم «بعل»، وأشعرهم بأن هذا الصنم لا يستحق تقديساً ولا تكريماً، وأن الله تبارك وتعالى قد آيد إلیاس بالحق ونصره على قومه المكذبين، وأن الله تعالى قد جعل العاقبة الحميدة لإلیاس ﷺ ومن آمن به، وأنه ترك له ذكراً حسناً وثناً جميلاً وسلاماً في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ إِيْلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٣٢].

وفي هذه القصة تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وعبرة لأولي الألباب، وأن العاقبة الحسنة لعباد الله الصالحين، وأن عاقبة السوء للمكذبين المنحرفين، وإلیاس اسم عبراني، وقد تزايد في آخره ياء ونون، فيقال فيه: إلیاسين كما قالوا في إدریس: إدریسین، وقد قرأ أكثر القراء السبعة: سلام على إلیاسین. وهذا يحتمل أن المراد إلیاس وحده بزيادة الياء والنون على اللغة التي ذكرتها، ويحتمل أن المراد به: سلام على إلیاس ومن معه من المؤمنين، فجمِعوا معه تغليباً كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وللأشعري وقومه أشعرون بحذف ياء النسب، وقد قرأ نافع وعبد الله بن عامر: سلام على آل یاسین. وهذا يحتمل أن يكون اسم والد إلیاس یاسین، فكأنه قيل: سلام على إلیاس ولد یاسین، ويحتمل أن يكون یاسین اسماً ثانياً لإلیاس ﷺ، والمراد بآله رَهْطه وقومه المؤمنون معه ﷻ، فكأنه قيل: سلام على إلیاس ومن معه من المؤمنين، والعلم عند الله ﷻ.

هذا وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان بيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل، وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة، وبيننا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليه السلام. ١.١. هـ. كلام ابن كثير.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الأربعون

يونس بن متى عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله ذي النون يونس بن متى عليه الصلاة والسلام، وقد أرسل الله تبارك وتعالى يونس إلى أهل نينوى من الموصل بالعراق، فدعاهم إلى الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، وقد بذل لهم النصح، وبلغهم رسالة ربه، ولما لم يكن يونس عليه السلام من أولي العزم من المرسلين لم يتحمل ما يتحملة أولو العزم من الرسل من الصبر على تكذيب قومه له، وإيذائه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قومه أغضبوه، وأنه أحسنّ منهم الكفر، فتهددهم بعقوبة من الله وَعَلَىٰ تَحَلُّلِ بِهِمْ إن لم يؤمنوا به، وبدأت أمارات العذاب تظهر في جوهم، وأخذت مقدمات العذاب تتجه نحوهم، فظن يونس عليه السلام أنه قد أدى ما عليه من أعباء الرسالة، ما دام قد أوضح لقومه الطريق وعرفهم صراط الله المستقيم، وحذرهم من أسباب سخط الله وغضبه، وأن الله تعالى لن يضيع عليه إن هاجر من أرض قومه، وأن له أن يذهب حيث يشاء، فاتجه نحو البحر، وركب سفينة مشحونة، ويظهر أن أهل السفينة عندما رأوه، وشاهدوا ما علاه من الوقار والبهاء لم يحاولوا رده عن ركوب سفينتهم.

غير أن البحر لما هاج، اضطر ركاب السفينة إلى تخفيف حمولتها من الركاب، فعملوا قرعة ليلقوا في البحر من تقع عليه القرعة، فكان يونس عليه السلام : ﴿مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أي ممن وقعت عليهم السهام، فألقي في البحر وهو في كربه وغمه وهمه الذي فارق عليه قومه، فهياً الله وَعَلَىٰ له حوتاً أي سمكة فابتلعه الحوت، وصان الله تبارك وتعالى يونس من أذى الحوت فلم يكسر له عظماً، ولم يخذش له لحماً، وإنما صار بطن الحوت كالسجن المؤقت ليونس عليه السلام، وأحاطت به ظلمة بطن الحوت داخل ظلمات البحر، فصرخ يونس

ينادي ربه متوسلاً إليه بكلمة التوحيد التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل ومن أجلها يقام سوق الجنة والنار، وقد نزه الله ﷻ عن كل نقص، واعتذر إلى الله ﷻ من فراره من قومه، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاستجاب الله له، ونجاه من الغم، فأسرع الحوت إلى شاطئ البحر، وقذف بيونس في العراء، وهو مريض من شدة ما أصابه من الهول والكرب والهم والغم، وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين، واليقطين هو ما لا ساق له من النبات، ويقال لحمله القرع أو هو الدباء، وهو نوع من القرع.

وقد ذكر العلماء في حكمة إنبات اليقطينة على يونس ﷺ أن ورقة شجرة القرع في غاية النعومة، وأنه كثير، وأنه ظليل، ولا يقربه الذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نياً ومطبوخاً، ويؤكل بقشره ويبذره أيضاً، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ وللبدن إلى غير ذلك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتبع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ.

وقد ردَّ الله تبارك وتعالى ليونس كمال صحته، وأخبره بأن قومه آمنوا لما رأوا عذاب الله متجهاً نحوهم، وأن الله قبل منهم إيمانهم وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وأمره الله تبارك وتعالى بالرجوع إليهم والاستمرار في توجيههم إلى صراط الله المستقيم، فرجع إليهم يونس ﷺ، وكانوا أكثر من مئة ألف إنسان، وقد أفاض الله عليهم من الخيرات والبركات، فعاشوا آمنين في ظل شريعة الله التي بعث بها يونس ﷺ.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى جوانب من قصة يونس ﷺ في مواضع من كتابه الكريم، وقد ذكر في كل مقام منها مقاله الذي يناسبه، فذكر في سورة سُميت بكاملها سورة يونس أنه امتنَّ على أمة يونس بمنة تفردوا بها من بين الأمم السابقة، وأنه استثناهم بها من قاعدة: أن من آمن من الكفار عند رؤية العذاب لا

ينفعه إيمانه على حد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿[غافر: ٨٤ - ٨٥]. فقد استثنى الله تبارك وتعالى أمة يونس من هذه القاعدة، فإنهم عندما رأوا مقدمة العذاب مقبلة عليهم آمنوا بالله وصدقوا يونس عليه السلام وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَدَابَ الۡخِزْيِ فِي الۡحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ اِلَىٰ حِيۡنٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وفي سورة الأنبياء يقول عز وجل: ﴿وَذَا الۡنُوۡنِ اِذْ ذَهَبَ مُغۡضِبًا فَظَنَّ اَن لَّنۡ نَّقۡدِرَ عَلَيْهِ فَنَادٰۤى فِي الظُّلُمٰتِ اَنۡ لَّا اِلٰهَ اِلَّا اَنتَ سۡجِدۡنَاكَ اِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِيۡنَ﴾ (٨٧) فأستجبتنا له ونجينا له من الغم وكذلك ننجي المؤمنين عليهم السلام [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]. فقوله تعالى: ﴿وَذَا الۡنُوۡنِ﴾ أي واذكر في المرسلين صاحب النون، والنون الحوت والمراد به يونس عليه السلام، فقد لقبه الله تعالى بصاحب النون وصاحب الحوت لالتقام الحوت له، ورحمته به، وملازمته له فترة من الزمن، وتخليصه إياه من الغرق، حتى طرحه على الساحل، وقوله تعالى: ﴿اِذْ ذَهَبَ مُغۡضِبًا﴾ أي فارق قومه وهو ممتليء من الغضب عليهم لكفرهم به، وتكذيبهم له، فهو غاضب عليهم وهم عليه غضاب. وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ اَن لَّنۡ نَّقۡدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي فحسب أن الله تعالى لن يضيق عليه إذا فارق قومه الكافرين بعد أن بلغهم رسالة ربهم، وكان هذا عن اجتهاد منه عليه السلام، فمعنى نقدر: نصيق على حد قوله تعالى: ﴿وَيَكٰنَكَ اللّٰهُ يَبۡسُطُ الرِّزۡقَ لِمَنۡ يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِ وَيَقۡدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿اِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ الرِّزۡقَ لِمَنۡ يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا ينبغي أن يخطر ببال مسلم أن عز وجل ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ هنا بمعنى يستطيع، فإن أحاد المؤمنين من غير الأنبياء لا يخطر بباله أن الله يعجز عن شيء ولا يستطيعه، إذ هو على كل شيء قدير.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والأربعون

تابع: يونس بن متى

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَدَا الْتُونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أما قوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. أي فصرخ مستغيثاً بربه في ظلمات بطن الحوت في البحر اللجج متوسلاً إليه بكلمة التوحيد، مُنْزَهاً الله تعالى عن كل نقص، واصفاً له بكل كمال، مستغفراً لله عَلَيْهِ السَّلَامُ من مفارقة قومه دون إذن من الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يدل على أنه ارتكب ذنباً أو أتى معصية، فقد ثبت أن نوحاً رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأحد أولي العزم من المرسلين لما قال: ﴿وَوَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعَنَّ لِي إِنَّكَ بَصِيرٌ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] أي فأجبنا يونس لما دعانا وهو في بطن الحوت، وخلصناه من الغم والهم والحزن والكرب الذي وقع فيه، فوضعه الحوت على ساحل البحر، وأتمنا عليه النعمة، وكذلك ننجي كل مؤمن يقع في غم وكرب فيلتجئ إلينا فإننا نخلصه مما هو فيه من الغم والكرب ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٣٩) إِذْ أُنْبِئَ إِلَى

أَفْلَاكَ الْمَسْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَسْبُوحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّفِطِينَ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿[الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].﴾

وقوله تعالى: ﴿أَبَقَ﴾ أي ذهب بلا خوف أو استخفى ثم ذهب، وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي اشترك في القرعة مع ركاب السفينة، واقترع معهم فيمن يلقى من الركاب في البحر لتخفيف حمل السفينة ولتنجية من لم يقع عليه السهم من الركاب. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة ليلقى بهم في البحر.

وقوله: ﴿فَالْقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلع الحوت يونس عليه السلام، وهو مليم، أي معاتب نفسه على فراق قومه بلا إذن من ربه، أو وهو آت بما يلام عليه أي يعاتب عليه، فاللوم العذل والعتب، وكون بعض الأنبياء يفعل ما يعاتب عليه عن طريق الاجتهاد لا ضير فيه، وقد وقع ذلك لأكمل خلق الله وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر حينما استشار أصحابه فيما يفعله بالأسرى فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه باستبقائهم وقبول الفداء منهم، وأشار عليه عمر رضي الله عنه بقتلهم لإضعاف شوكة المشركين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فمال إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه وقبِلَ الفداء من الأسرى، فعاتبه الله تعالى على قبول الفداء، وقال صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كَذَّبَ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿[الأنفال: ٦٧ - ٦٩].﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَسْبُوحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]. أي فلولا أن يونس عليه السلام كان من الذاكرين الله كثيراً المسبوحين بحمده في السراء والضراء لجعلنا بطن الحوت مقبرة له، لكنه كان يتعرف إلى الله في الرخاء، ففرّج الله كربته في الشدة؛ ولذلك أثر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال لابن عباس رضي الله عنهما كما رواه أحمد وبعض أهل السنن: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. أي فأمرنا الحوت بطرحه على ساحل البحر في الفضاء، وكان قد سقم ومريض مما أصابه من الغم والكرب وبطن الحوت، و﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ليست للشك في عدد المرسل إليهم، بل هي للإضراب بمعنى بل، فقد أثبت مئة ألف، فاستقر هذا العدد الكثير في نفوس السامعين، ثم ذكر أنهم يزيدون على ذلك، فيكون زيادة في تعظيم عدد المرسل إليهم، وهو أبلغ من قول القائل: أرسل إلى أكثر من مئة ألف، وأجمل وأفصح وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما من الله تعالى به على يونس عليه السلام، والزائد من عدد هؤلاء عن مئة ألف لا يعلمه إلا الله إذ لم ينقل عن المعصوم صلى الله عليه وسلم تحديد لهذه الزيادة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا فَمَتَّعْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي فاستمروا على إيمانهم، وازدادوا إيماناً بما رسمه لهم يونس عليه السلام، ففتح الله عليهم من البركات والخيرات مدة استمسكهم بالدين الذي جاءهم به يونس عليه السلام.

وقال تعالى في سورة (ن): ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [٤٨ - ٥٠] وفي هذا المقام الكريم من مقامات ذكر يونس عليه السلام يبدأ الله صلى الله عليه وسلم بأمر حبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه له مهما كان منهم، لأنه سيد أولي العزم من المرسلين، ثم نبهه إلى أنه لا ينبغي له أن ينفذ صبره كما نفذ صبر أخيه يونس عليه السلام بعد أن امتلأ كرباً وغمماً من أذى قومه له، فإن يونس عليه السلام ليس من أولي العزم من المرسلين، فهو من جملة النبيين المرسلين من غير أولي العزم، وقد قال الله تعالى في واحد منهم وهو أبوهام آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ قَنُوسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وقال لشيخ المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهذا لا يمنع أن يقتدي رسول الله ﷺ بإخوانه النبيين فيما جاؤوا به من الهدى بما فيهم يونس عليه السلام؛ ولذلك لما ذكر الله تعالى جملة من النبيين والمرسلين في سورة الأنعام وفيهم يونس عليه السلام قال الله لرسوله ﷺ بعد ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والأربعون

تابع: يونس عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس عليه السلام من سورة «ن»: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ ثَمُودِ﴾ [القلم: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] ليس داخلاً في حيز النهي، فإن نداء المكظوم ودعاءه ربه محبوب مطلوب، ومعنى إذ نادى وهو مكظوم، أي دعا ربه وهو ممتلىء كرباً وغماً، حيث قال وهو في بطن الحوت، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، أي لولا أن أدركته رحمة الله وعنايته لطح بالأرض الفضاء وهو ملوم، وما دام قد أدركته رحمة الله فقد ألقاه الحوت على الساحل غير ملوم، وكان الله تبارك وتعالى تفضل على يونس عليه السلام فلم يؤاخذه باجتهاده في فراق قومه حين ذهب مغاضباً بلا إذن من ربه، كما تفضل على محمد عليه السلام حينما لم يؤاخذه على قبول فدية الأسارى يوم بدر حيث قال: ﴿لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] و﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، فقد امتنع جوابها هنا لوجود شرطها، وكل من لم تدركه رحمة الله مذموم، لكن يونس لم يذم؛ لأنه أدركته رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] زيادة في فضل الله تعالى على يونس عليه السلام أن الله تعالى اجتباه، أي أعلى درجته في المصطفين الأخيار، وجعله من الكاملين في الصلاح، وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة تُشعر بفضل يونس عليه السلام وتنهى عن تفضيل سيد الأنبياء وشيخ المرسلين محمد عليه السلام على يونس بن متى، وهي محمولة على أنها من باب تواضعه عليه السلام كما أشرت في قصة إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام إلى أن تواضع الرفيع القدر لا ينزل من قدره،

وقد جاء صريح القرآن في تفضيل بعض الأنبياء على بعض حيث يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولا شك عند أهل العلم أن أولي العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم جميعاً وسلم، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسبباً لإثارة الشر وإلحاق الضرر بالمسلمين، فإنه ينبغي الكف عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فإن الأصنام والأوثان تستحق السب، لكن إذا كان سبُّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه نُهي عن سبها لذلك.

وكذلك التفضيل على وجه الفخر أو الحمية أو العصبية، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع تفضيله على موسى أو يونس بن متى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما يهودي يعرض سلعة له، أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه، قال: لا، والذي اصطفى موسى ﷺ على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول والذي اصطفى موسى ﷺ على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسوله الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إن لي ذمّةً وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟». قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى ﷺ على البشر وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرف الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى ﷺ أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى». وقوله ﷺ في هذا الحديث عن

موسى عليه السلام: «فأكون أول من بُعث فإذا موسى عليه السلام أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي» لا يدل على أن موسى أفضل من محمد عليه السلام، إذ القاعدة عند أهل العلم أن المزية لا تنافي الأفضلية. أي إن ثبت لأحد مزية على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أفضل من الآخر، ومثال ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال! حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي، وفي لفظ لمسلم: «فإني سمعت الليلة» وفي لفظ له بدل «دف نعليك» «خشف نعليك» والدف الحركة الخفيفة، والخشف الحركة الخفيفة أيضاً، فالدف والخشف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من حديث بريدة رضي الله عنه في حديث بلال هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا بلال! بم سبقتني إلى الجنة؟» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالاً أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه المزية.

ولعل أحداً يحسب أنه خير من يونس بن متى عليه السلام عندما يسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ويجهل أن المقصود من هذا الذكر الكريم تنبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أسلفت - إلى التأسى في باب الصبر بأولي العزم دون التأسى بمن ليسوا من أولي العزم في هذا الباب، وينسى كذلك أن الله أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالافتداء بالأنبياء والمرسلين بما فيهم يونس عليه السلام في باب الاهتداء إلى الصراط المستقيم كما جاء في سورة الأنعام كما أشرت؛ ولذلك كله حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من أي خاطر شيطاني في هذا الأمر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه، وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير

من يونس بن متى». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». سلام على يونس في المرسلين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والأربعون

اليسع وذو الكفل عليهما السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما اليسع وذو الكفل عليهما الصلاة والسلام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى اليسع في كتابه مرتين، فذكره في جملة الأنبياء الذين أعطاهم الله تعالى الحجة على قومهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم، فقال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦]، ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذكر اليسع مرة أخرى في جملة الأنبياء الذين أمر رسوله محمداً ﷺ أن يتأسى بهم في الصبر على أذى قومه له، فقال تعالى في سورة «ص»: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وبعد سياق قصة داود قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وبعد سياق قصته ذكر من كان أشد منهما ابتلاء وهو أيوب عليه السلام، وقال في آخر قصته: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. ثم ذكر ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] ثم قال: ﴿وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

واليسع اسم يمكن أن يكون عبرانياً، ويمكن أن يكون عربياً، قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير سورة الأنعام: وقرأ الجمهور واليسع كأن أُلْ أدخلت

على مضارع وسع، وقرأ الأخوان «يعني بهما حمزة والكسائي» والليّسع على وزن فيعل نحو الضيغم، واختلف في: أهو عربي أم أعجمي، فأما على قراءة الجمهور وقول من قال إنه عربي فقال: هو مضارع سمي به ولا ضمير فيه. فأعرب ثم نُكّر وعُرّف بآل، وقيل: سمي بالفعل كيزيد ثم أدخلت فيه آل زائدة شذوذاً كاليزيد في قوله: رأيت اليزيد بن اليزيد مباركاً. ولزمت كما لزمته في الآن. ومن قال: إنه أعجمي فقال: زيدت فيه آل ولزمت شذوذاً، وممن نص على زيادة آل في اليسع أبو علي الفارسي، وأما على قراءة الأخوين فزعم أبو علي أن آل فيه كهي في الحارث والعباس؛ لأنهما من أبنية الصفات، لكن دخول آل فيه شذوذ عما عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجيء فيها شيء على هذا الوزن، كما لم يجيء فيها شيء فيه آل للتعريف، وقال أبو عبد الله بن مالك الجياني: ما قارنت آل نقله كالمسمى بالنضر أو بالنعمان أو ارتجاله كاليسع، والسموئل فإن الأغلب ثبوت آل فيه، وقد يجوز أن يحذف، فعلى هذا لا تكون آل فيه لازمة؛ واتضح من قوله أن اليسع ليس منقولاً من فعل كما قال بعضهم ١٠١هـ.

ثم قال أبو حيان: وهذه الأسماء الأعجمية لا تجر بالكسرة ولا تنون إلا اليسع فإنه يجرب بها ولا ينون، وإلا لوطاً فإنه مصروف لخفة بنائه بسكون وسطه وكونه مذكراً وإن كان فيه ما في إخوته من مانع الصرف وهو العلمية والعجمة الشخصية ١٠١هـ.

هذا وكون اليسع هو ابن أخطوب أو ابن العجوز أو كان اسمه الأسباط ابن عدي من ذرية يوسف بن يعقوب عليه السلام، أو هو ابن عم إلياس، وكان مستخفياً معه بجبل قاسيون، وأنه خلف إلياس في قومه أو كان ببانياس من أرض الشام فإن هذه الأقوال كلها لا تستند إلى دليل صحيح، وفيما ذكره الله تعالى عنه في محكم كتابه كفاية. والعلم عند الله تعالى.

أما ذو الكفل فقد ذكره الله تبارك وتعالى كذلك مرتين في كتابه الكريم، فذكره في سورة الأنبياء في جملة من المرسلين بعد قصة أيوب عليه السلام ليتأسى بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذى قومه، فقال تعالى: ﴿وَأَسْمِعِمْ لِدَرِيْسَ

وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّادِرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَأَدَخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨٦﴾
[الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

كما ذكره الله ﷻ في سورة «ص» بعد قصة أيوب أيضاً حيث قال ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِزْهَبِهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرَ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ [ص: ٤٥ - ٤٨].

وقد زعم بعض الناس أن ذا الكفل لم يكن نبياً، ونسبوا هذا القول المردود إلى بعض السلف، معتمدين على أخبار مذبوبة إسرائيلية، لم يصح منها خبر عن رسول الله ﷺ، والمتبادر من سياق القرآن العظيم يثبت أنه من الأنبياء العظام الذين أمر الله رسوله ﷺ أن يتأسى بهم، إذ قرنه في سورة الأنبياء بجملة من عظماء المرسلين، ثم قرنه في سورة (ص) بجملة من هؤلاء السادة المرسلين بعد أن أمر محمداً ﷺ بالصبر تأسياً بهؤلاء، ومنهم ذو الكفل ﷺ، والقاعدة عند الأصوليين أن الأصل وجوب العمل بظاهر اللفظ حتى يرد دليل يصرفه عن هذا الظاهر، ولم يرد دليل صحيح يثبت أن ذا الكفل لم يكن من جملة الأنبياء.

أما ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد بأن اليسع ﷺ استخلفه بعد أن كبر اليسع واشترط عليه أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، وأنه كان تزدرية العين، وأنه وقى بما اشترطه عليه اليسع. فهذا من أساطير بني إسرائيل، وكذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري بأنه خطب فقال: لم يكن ذو الكفل نبياً، فهو خبر في سنده اضطراب وعليه الشنينة المعروفة عن بني إسرائيل.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد من طريق أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر أنه سمع من رسول الله ﷺ سبع مرات أو أكثر قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، وأنه جاءته امرأة محتاجة، وأنه أعطاها ستين ديناراً ليقارفها، وأنها بكت عندما جلس منها مجلس الرجل من زوجته، فقام وتاب وأعطاها الدنانير،

وأنه مات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل». وقد رواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر، فهو كذلك من دسائس بني إسرائيل ضد أنبياء الله ورسله، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: هو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والأربعون

موسى ﷺ

نتحدث إليكم عن كبير أنبياء بني إسرائيل، أحد أولي العزم من المرسلين، كليم الله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وعمران والد موسى ﷺ من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وليس هو عمران المذكور في سورة آل عمران المسماة باسمه، حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإن عمران هذا هو والد مريم أم عيسى ﷺ، وقد بين الله ﷻ ذلك في قوله بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) إِذْ قَالَتْ أَمْرًاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٤ - ٣٦].

وبين عمران والد موسى وعمران والد مريم قريب من ألفي سنة.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى الحالة التي كانت سائدة بمصر عند ميلاد موسى ﷺ، إذ كان ظلم فرعون وبغية على بني إسرائيل وفساده في الأرض قد بلغ أقصى حدود الطغيان، فجعل أهلها شيعاً، يقرب بعضهم، ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستعمل معهم صنوف الذلة، وأنواع الهوان والعذاب، وأراد الله ﷻ أن يُمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وكانوا يوماً محصورين في مصر، وأن يبدل خوفهم أمناً، وأن يُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وأن يجعل منهم أئمة هدى، ويجعلهم الوارثين، وقد كان الحقد والبُغْضُ لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقى في روعهم أن زوال ملكهم، وتدميرهم سيكون

على يد رجل من بني إسرائيل، ولكن الحذر لا ينجي من القدر، فأراد الله ﷻ أن يرِي ﴿فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [التقصص: ٦].

فَوَلَدَ موسى ﷺ في هذا الجو الخائق، وخافت أمه أن يذبحه فرعون؛ لأن ميلاد موسى ﷺ صادف إحدى النوبات التي يقوم بها فرعون بتذبيح أطفال بني إسرائيل الذكور، فأوحى الله تعالى إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خشيت عليه من فرعون أن يذبحه فاصنعي له صندوقاً محكماً كأنه سفينة، وضعيه في الصندوق وألقيه في نهر النيل، وأبعدي الخوف عن نفسك فلا تخافي ولا تحزني، فإن الله ﷻ سيحفظه لك، ويرده عليك، وسيكون ولدك هذا من المرسلين، قال بعض أهل العلم: المراد بالوحي هنا وحي إلهام أو منام. قلت: لا مانع أن يكون الله تبارك وتعالى أرسل لها ملكاً بهذا الوحي فأمنت به وصدقت بوعده. ولا يلزم من مجيء الملك لها بهذه النصيحة أن تكون نبية، فقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لو نؤ حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس، فمسحه فذهب عنه قدره، وأعطني لوناً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر، شك الراوي، فأعطني ناقه عشاء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع. فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني الذي قدرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطني شعراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطني بقرة حاملاً. قال له: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرُدَّ الله إليّ بصري فأبصر الناس؛ فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطني شاةً والدأ. فأنتج هذان وولد هذا؛ فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلغ به في

سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كبيراً عن كبير. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته. فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري. فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله عز وجل، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك».

فهذا الحديث الصحيح المتفق عليه يثبت أن الله قد يبعث ملكاً لأحد من عباده وليس بنبي ولا برسول، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة ترُبُّها عليه؟ قال: لا غير أنني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.

فهذا يثبت أن الله تعالى قد يرسل ملكاً إلى بعض الناس ويخاطبهم وليس بأنبياء.

وقد أرسل الله تعالى الملائكة لمريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَذْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣]، ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، ولم تكن مريم نبيّة وإنما كانت امرأة صالحة صديقة من القانتين.

وفي ميلاد موسى عليه السلام وبيان الجو الذي وُلِدَ فيه وما كان من طغيان فرعون وإذلاله لبني إسرائيل والإيحاء إلى أم موسى بالقاءه في اليم مع الوعد برده إليها،

يقول الله ﷻ: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعِ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ [القصص: ٣ - ٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والأربعون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما قصه الله ﷻ عن ميلاد موسى ﷺ وإيحاء الله تعالى لأمه أن ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وقد اشتمل هذا الوحي على أمرين ونهيين وخبرين، وقد أجمل الله تبارك وتعالى ذلك في سورة طه حيث يقول ممتناً على موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (٣٧) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه: ٣٧ - ٣٨]، ثم فصل ذلك الوحي المجمل فقال: ﴿أَن أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَيَلْقَاهُ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

وقد قامت أم موسى ﷺ بما أمرها الله تعالى به فألقت ولدها في اليم بعد أن وضعت في التابوت أي الصندوق. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن اليم ألقى بالصندوق وفيه موسى ﷺ إلى الساحل، أي شاطئ النهر أمام بيت آل فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] وفرحوا به لِمَا ألقى الله ﷻ على موسى من المحبة في قلب من يراه، غير أن فرعون خشي أن يكون من بني إسرائيل، وفكر في قتله، فقالت زوجته آسيا ﷺ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] أنهم التقطوا من يزول ملكهم على يديه، وأنه سيكون لهم عدواً وحزناً، فقبض الله له ﷻ أعدى أعدائه أن يربوه، وأن ينشأ في بيتهم على حد قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهياً الله تعالى له المرأة الصالحة آسيا زوجة فرعون عدو الله ورسله لتشرف على تربيته، غير أن الله ﷻ منعه من التقام أي ثدي غير ثدي أمه. فكلما قدموه

لمرضعة رفض الامتصاص من ثديها، وقد بلغ الحال بأم موسى مع شدة كظم ما بها من الخوف عليه أن أصبح فؤاها كالهواء، كأنها كادت أن تُجَرَّ لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأختها: تتبعي أثره وانظري ماذا يفعل به ملتقطوه، وإياك أن يعرفوا أنك أخته أو أنك تحاولين معرفة شيء عنه، فانظري عن بُعد وبطريقة جانبية لا يُعرفُ منها أنك مشغولة به، فقامت أخته بتنفيذ وصية أمها، ومروا بها يبحثون عن مرضعة له، فقالت: أنا أدلكم على مرضعة لعله يقبل منها، فجاؤوا به إلى أمه فالتقم ثديها ففرحوا فرحاً عظيماً. وجعلوا يترددون به عليها، وقد قرت عينها به وخلصها الله تعالى من الحزن عليه. وعلمت أن وعد الله حق، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه إذا أراد أمراً هياً له الأسباب وأزال الموانع. وقد استمر موسى ﷺ في بيت فرعون كأنه ولد لهم، يحوطونه بمحبتهم حتى بلغ أشده واستوى، وملاً الله قلبه حكمة وفقهاً وعلماً.

وفي هذا تشبث فؤاد رسول الله ﷺ والمؤمنين، وأن الله تعالى ينصر أوليائه، ويخلصهم من المحن وينجيهم من السوء.

وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى في سورة القصص: ﴿فَالنَّقْطَةُ ۗ ءَأَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ فَلَيْهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ [القصص: ٨ - ١٤].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾ طه: [٤٠]، وفي قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُ ۗ ءَأَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

لام العاقبة. أي ما دروا أنهم بالتقاطه ستكون العاقبة أن يكون لهم ﴿عُدْوًا وَحَزْنًا﴾، وكم من عمل يعمله الإنسان لأمر فتكون عاقبته على عكس ما أراد من عمله؛ لأن الأمر كله لله وحده.

والإنسان مهما ادعى القدرة والمعرفة فإنه يجهل عاقبة أمره.

وهامان هو وزير فرعون لعنهما الله، وفي نشئة موسى في بيت فرعون يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وبعد أن بلغ موسى ﷺ أشدّه وتم نضجه وشبابه وتكامل عقله وأفاء الله تعالى عليه من الحكمة والفقه والعلم، وأراد الله ﷻ أن يقيم على يديه سبباً يدعو للخروج من مصر، والهروب من آل فرعون والبُعد عن تقاليدهم وعاداتهم قدّر الله له أن يدخل وسط المدينة في وقت غفلة أهلها، إما في وقت نومهم أو في وقت اشتغالهم بلعبهم ولهوهم، حيث تكون الطرقات شبه خالية من المارة، فوجد فيها رجلين يتصارعان يريد كل منهما الفتك بصاحبه، وموسى ﷺ قد عرف أن أحدهما إسرائيلي وأن الآخر قبطي، وكأنه رأى أن القبطي أشد بأساً من الإسرائيلي؛ ولذلك استغاثه وطلب منه العون، فأراد موسى ﷺ أن يدفع القبطي عن الإسرائيلي، فوكزه بيده ودفعه بجُمع كفه ليدفعه عنه. ولم يكن موسى ﷺ يدري أن هذه الوكزة ستقضي عليه وتقتله؛ ولذلك أحسّ بندم شديد وأسند هذا الشر للشيطان فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦] وعزم على أنه لن يعود لمثلها وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَعَمَّتْ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] أي نصيراً لأحد من الكافرين المجرمين.

وقد أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] ماذا سيؤدي إليه قتل هذا القبطي، وهل سيعرفون أنه موسى فيأخذونه به، وبينما هو كذلك في طريق قريب من موضع قتل القبطي وإذا بالإسرائيلي الذي ساعده بالأمس (يستصرخه) ويستغيث به على قبطي آخر، فأجابه موسى ﷺ بأنك شديد الغواية بين الأذى، ولما أشار موسى ﷺ بيده إلى الإسرائيلي إشارة غضب مؤدباً له على سوء سلوكه

﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فعلم موسى ﷺ أن الخبر لا بد وأن يصل إلى فرعون من هذا القبطي، وأنهم لا بد قاتلوه، وفعلاً أعلم القبطي آل فرعون بأن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فتأمروا على قتل موسى ﷺ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والأربعون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن القبطي أخبر آل فرعون أن موسى ﷺ هو الذي قتل القبطي، وأنهم تأمروا عليه، وقد أحسَّ موسى ﷺ بغمٍّ شديد، وامتحان عسير وفتنةٍ شديدة، وقد سخرَّ الله تعالى لموسى ﷺ رجلاً قريب المنزل من آل فرعون يسكن معهم في أقصى المدينة كالعادة في القديم والحديث أن الأشراف يسكنون الأطراف، ويعرف أخبارهم، ويكنُّ لموسى ﷺ محبة قوية، فسارع يبحث عن موسى ﷺ حتى وجده في داخل المدينة، وأخبره أن آل فرعون يأترون بموسى ليقتلوه، وأمره أن يسارع بالفرار من مصر ليسلم من شرهم، وينجو من مكرهم، ويبيِّن له أن الحامل له على ذلك هو حُبُّه ونصحه له، فخرج موسى ﷺ مسرعاً متجهاً إلى سيناء وهو يدعو ربه أن ينجيه من القوم الظالمين الذين يقررون قتل من لا يستحقُّ القتل، وقد عزم ﷺ أن يتجه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ، غير أنه غير خبير بالطريق إليها، فتضرَّع إلى الله تعالى أن يهديه إلى طريقها، وأن يوفقه إلى سلوك طريق قصد وأن يرشده إلى سواء السبيل.

واستمر في سيره ﷺ حتى ﴿وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ووجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد أمامه قبل هؤلاء الجماعة الذي يسقون مواشيهم امرأتين تدفعان غنمهما حتى لا ترد الماء مع رؤية موسى ﷺ للغنم في حاجة إلى الماء، فقال موسى ﷺ للمرأتين ما شأنكما؟ لماذا تدفعان غنمكما عن الماء وهي في حاجة إليه، قالتا: نحن لا نحب أن نختلط مع الرجال الرعاء، ولنا أب شيخ كبير لا يستطيع أن يتولى سقي أغنامنا، فتقدم موسى ﷺ وسقى لهما دون أن يطلب منهما أجراً على ذلك، ولما سقى لهما أغنامهما تولى إلى ظل شجرة قريبة وجلس تحتها وناجى ربه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

فجاءته إحدى المرأتين والحياء بادٍ على محياها ومشيئها ﴿قَالَتْ إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ويكافئك على هذا الإحسان بالإحسان، فلما وصل موسى ﷺ إلى الشيخ الكبير وقصَّ عليه قصته مع آل فرعون قال له الشيخ الكبير: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. فطلبت إحدى المرأتين من أبيها أن يستأجر موسى ﷺ ليرعى الغنم، وأشعرت أباها أنه خير من يُستأجر؛ لأنه قوي أمين، يجمع أهم وأحسن وأوفى صفات الأجير، وكأنها عرفت ذلك من مراقبتها له وهو يسقي الغنم مع غض بصره وحسن سمته ﷺ، فقال الشيخ الكبير: إني أحب أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تشتغل عندي أجييراً ثماني سنوات، فإن أتممت في الخدمة عشر سنوات فهذا من عندك، ولا أشق عليك ولا أجهدك، فوافق موسى ﷺ على أن يتزوج إحدى المرأتين بمهر هو خدمة ثمانية أعوام، وإن شاء أتمها عشراً، ولا شك أنه مهر مرتفع، لكن حكمة الله واصطناعه لموسى ﷺ، حتى يكون هذا الأجل هو الباقي لموسى ﷺ حتى يبعثه الله رسولاً ويتم عليه نعمته ويجيء إلى الطور على قدر.

وإلى ذلك كله يشير الله ﷻ حيث يقول في سورة طه مبيناً ما أصاب موسى من الهم والغم بعد مقتل القبطي واستصراخ الإسرائيلي به في اليوم الثاني وهروبه إلى أرض مدين ومكثه بها ما شاء الله أن يمكث فيقول: ﴿وَقُلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَمْؤُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤٠ - ٤١].

ويقول الله ﷻ في سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَعَمَّتْ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي

أَسْتَنْصِرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَلًا يَا تَمْرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَبَاءَتْهُ إِحْدَهُمَا تَمَشَّىٰ عَلَىٰ أُسْتَحْيَاءِ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَتَأَتَّىٰ أُسْتَجِرُهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ أُسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنَّىٰ حِجَّجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُشِقَ عَلَيْكَ سِتْجَدِنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَكَيْلٌ ﴿[القصص: ١٥ - ٢٨].

وقد ذكرت في قصة شعيب ﷺ أنه لم يكن صهر موسى ﷺ، وأن الشيخ الكبير الذي زوّج موسى ﷺ ابنته في مدين هو رجل صالح من بقايا من آمن بشعيب ﷺ، وذكّرت ما يدل على ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى في هذا المقام.

هذا وأما ما اشتهر عند الناس من حديث الفتون الذي ذكره النسائي في كتاب التفسير من سننه المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها الذي رواه النسائي فقال: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هي؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبيرة فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى

ابن عباس لأتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فساق الحديث. قال ابن كثير في تاريخه بعد أن ساقه: هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون، والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، ثم قال: وفي بعض ما فيه نظر ونكارة. والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك. والله أعلم.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والأربعون

تابع: موسى ﷺ

بعد أن قضى موسى الأجل الذي التزم به وأدّاه على أكمل وجه، ألهمه الله ﷻ أن يتجه بأهله نحو مصر، وهو لا يعلم أن مراسيم السعادة تنتظره في الطريق، وأن الله ﷻ سيناديه ويكلّمه ويناجيه بالوادي المقدس طوى، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهاً إلى أرض مصر، وفي أثناء سيره مرّت به ريح باردة في ليلة مظلمة، لم يتمكن معها من مواصلة السير، إذ اشتد بهم البرد، ولم يعرف اتجاه الطريق، وفجأة لاح له نار أبصر عندها شجرة، فدخل عليه لذلك أنسٌ ومسرة، وقال لأهله: ﴿أَمْكُوثُا إِنِّي عَاسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] سأذهب إليها، لعلني أجد عندها من يرشدنا إلى الطريق السوي والصرراط المستقيم، أو آتيكم منها بقطعة من النار لعلكم تستدفئون بها، والظاهر أن زوجته ﷻ لم تبصر هذه النار، وأن النار إنما تجلّت لموسى وحده، كما يظهر أن موسى ﷺ لم يعرف اسم المكان الذي رأى النار فيه، ولم يدرك أنه الوادي المقدس طوى، وأنه سيجد عنده أعظم الهدى، وما إن اقترب موسى ﷺ من النار وبيده عصا حتى ﴿تُودِي مِن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِرِّ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤ - ١٦].

وبعد أن توجّ الله ﷻ موسى ﷺ بمراسيم السعادة سأله وهو العليم الخبير عما بيده، ليدخل عليه الأنس وليثبت قلبه، وليظهر له معجزة تبين له أن الله تعالى

سيؤيده وينصره ويجعل العاقبة الحميدة له ولمن آمن به، فقال ﷺ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ [طه: ١٧ - ١٨] ولم يقف موسى في الجواب إلى هذا الحد، فأخذ يبين بعض منافع عصاه زيادة في طول لذة المناجاة، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه: ١٨] ثم قال: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] لعله يسأله عن هذه المنارِب والمقاصد فيزداد لذة وتطول لذة المناجاة، فالحبيب يود أن لا ينقطع عنه صوت حبيبه على حد قول الشاعر:

ولا حسن إلا سماع حديثكم
ومشافهة يملئ عليّ فأنقل
وعلى حد قول الشاعر الآخر:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها
أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفريات البيض ودّ جليسيها
إذا ما انقضت أحداثها لو تعيدها

ولله المثل الأعلى، فأمره الله ﷻ بإلقاء العصا على الأرض، فألقاها فإذا هي حية تسير على بطنها في غاية السرعة كأنها جان. فلما رآها موسى ﷺ وهي تهتز وتتحرك مسرعة ولّى مُدْبِرًا ولم ينتظر من شدة الخوف. فناداه الله ﷻ: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]. وقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعُيْدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] فأخذها فعادت في يده عصا كما كانت أول مرة.

ثم أمره الله ﷻ أن يُدْخِلَ يده في جيبه أي في طوق قميصه فأدخلها، فلمّا أخرجها إذا هي بيضاء من غير برص ولا مرض، مع أن موسى ﷻ كان أسمر اللون آدم، فهذه آية أخرى.

وأمره الله ﷻ بالذهاب إلى فرعون الطاغية الذي يقول لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويطلبه وقومه بإخلاص العبادة لله وحده، وأن يُسلمه بني إسرائيل، ويخلصهم من العذاب المهين، وطلب منه أن يتلطف في دعوة فرعون إلى الله، وأن يقول: ﴿لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، فطلب موسى ﷻ من ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره، وأن يحلّل له عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يُرسل معه هارون أخاه ليُشد به أزره ويُشركه في

أمره؛ لأن هارون بن عمران ﷺ مشهور بالفصاحة بين قومه، فأجابه الله ﷻ لذلك كله، وبيّن له أن منّة الله عليه عظيمة، وليست هذه أول منة، وذكّره بمنة أخرى عند ولادته إذ أوحى إلى أمه أن تلقيه في اليم ليلتقطه آل فرعون ويربى في حجر عدوه، الذي يصونه ويرعاه مع أنه لا يفتأ يذبح أبناء بني إسرائيل.

وقد ذكر موسى ﷺ أنه يخاف من فرعون أن يقتله بالقبطي، فطمأنه الله ﷻ وعرفه أنه سيجعل له سلطاناً فلا يتمكن فرعون من قتله، وقال له: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِن أُنْبَعِ الْهُدَى ﴿طه: ٤٦ - ٤٧﴾.

وقد وصف الله تبارك وتعالى مجيء موسى إلى الوادي المقدس طوى وحدد المكان الذي تمت فيه المناجاة، وذكر ما ناجى به موسى ﷺ في مواضع من القرآن العظيم لِيُثَبِّتَ بِذَلِكَ فؤَادَ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وليكون آية بينة للعرب والعجم أن محمداً رسول الله ﷺ، فلم يكن رسول الله ﷺ ولا أحد من قومه يعرف هذه الأخبار الدقيقة الصادقة، وهو الأمي في القوم الأميين، فلم يكن محمد ﷺ بجانب الغربي إذ قضى الله إلى موسى الأمر، وما كان من الشاهدين، وما كان بجانب الطور إذ نادى موسى ﷺ ولكنها رحمة من الله للبشير النذير ولمن آمن به إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (٥١) وَنَدْبَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿مريم: ٥١ - ٥٣﴾.

ويقول ﷻ في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مَوْسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا

وَأَهْسُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَنَهَا فَإِذَا هِيَ
 حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ بِدَكَ إِلَى
 جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ءَايَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى
 فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ
 لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى
 ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسِجَاحَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ . [طه : ٩ - ٣٧] .

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والأربعون

تابع: موسى

نتابع في هذا الفصل ما ذكره الله ﷻ في سورة طه عن قصة مجيء موسى ﷺ إلى الوادي المقدس طوى، ومناجاة الله ﷻ له ومنته عليه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يُوْحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّمِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْتِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَاقْذِيفِيهَا فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهَا فِي الْيَمِّ ۗ وَاصْطَنَعْنَا آلُفَكًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْنَا لِنَفْسِیْ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِثَابِتِي وَلَا نِنْيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَلْعَلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ فِقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ ۗ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾].

ويقول ﷻ في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضْحِكُوا مِنِّي بِطُلُوقِ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِثَابِتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَاتَّبَعُوا فِرْعَوْنَ فَاقْذِيفِيهَا فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهَا فِي الْيَمِّ ۗ وَاصْطَنَعْنَا آلُفَكًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾].

ويقول ﷻ في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَلِمَاتُهَا مِنهَا يَخْرِقُ أَوْ آتِيكُمْ بِسَهَابٍ مِّن سَمَانٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يُعْمَسُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَالْقَىٰ

عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿النمل: ٧ - ١٢﴾.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنَادُكَ عِزْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِئْتِنَا أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَتْبَعِكُمْ أَلْعٰلِبُونَ ﴿القصص: ٢٩ - ٣٥﴾.

وقال ﴿يٰٓمُوسَىٰ﴾ في سورة النازعات: ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا ﴿١٨﴾ وَاهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْسِفُنَا ﴿النازعات: ١٥ - ١٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

أي إنَّ توجهك من أرض مدين إلى أرض مصر ليناديك ربك ويناجيك بالوادي المقدس كان أمراً مقدوراً قضاءه الله ﴿يٰٓمُوسَىٰ﴾، فحركك ووجهك وألهمك لتجيء البقعة المباركة وفق ما قضاءه الله ﴿يٰٓمُوسَىٰ﴾ في الأزل وقدره قبل خلق السموات والأرض، فكل شيء عنده بمقدار، وهو ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١١] الاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن، والجملة اعتراضية لبيان فضل الله

تعالى على خلقه، وأنه يعفو عن السيئات ويغفر ﴿لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فلا يحل لأحد أن ييأس من رحمة الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨] ﴿يَمْوَسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨ - ٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

في هذه الآيات المباركات دليل قطعي على إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وأنه يتكلم متى شاء وأنى شاء، وأن الله ﷻ جعل موسى ﷺ كليمة كما جعل إبراهيم ومحمدًا ﷺ خليلين، وقوله تعالى: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] أي إن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت. فقولك: من البيت ابتداءً الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، فذلك ليست الشجرة هي المتكلمة بل سمع موسى كلام الله من عند الشجرة، إذ ليست الشجرة هي القائلة: ﴿يَمْوَسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، بل قائل ذلك هو رب العالمين.

وقوله ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، معنى ﴿يَفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أي أن يعجل بعقوبتنا قبل سماع قولنا. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] أي أتمه وأداه ووفاه، فإن «قضى» قد تستعمل بمعنى أدى ووفى ومنه قول الشاعر:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول مُعنى غريمها

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ [القصص: ٣١] أي صارت العصا شبيهة بالجان، وهو حية بيضاء أكحل العين سريعة الحركة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] أي وَضَعَ يدك على صدرك ليزول ما بك من الرُّعب والفرع والخوف الذي أصابك.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والأربعون

تابع: موسى ﷺ

أرشد الله تبارك وتعالى موسى ﷺ أن يبرز إلى فرعون آية العصا وآية اليد. ولما وصل موسى ﷺ إلى مصر وانضم إليه أخوه هارون بن عمران ﷺ توجهوا إلى فرعون، وطلبا منه أن يُخْلِص العبادة لله وحده، وأخبراه أنهما رسولا رب العالمين، وقال له موسى ﷺ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْسِئُ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩] وتسعد في الدنيا والآخرة؟ ﴿لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، و﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] ومعجزة ظاهرة قاهرة. فآمن بالله، وأرسل معنا بني إسرائيل، قال فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِيئَتَ فِينَا مِّنْ عَمْرِكُ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] عديدة. ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩]، وأنت جاحد للنعمة التي أسديناها إليك. قال موسى ﷺ: لقد فعلتها وأنا غير قاصد، فلم أُرِدْ قتل القبطي عندما وكزته، ولعلمي أنكم لن تحكموا في هذه القضية بالحق فررت منكم لأنني خفتكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. ولقد أوحى إلينا يا فرعون أن العذاب على من كذب بآيات الله وأعرض عن دين الله وكذب المرسلين، ولا تتكبروا على الله رب العالمين. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، قال موسى ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤]، إن كان هناك شيء يُوقن به فهو رب السموات والأرض لظهور برهانه وبلوغ حجته، وهو الذي خلق كل شيء، وأعطى كل شيء من خلقه ما يتميز به عن غيره، ثم هداه بما فطره فيه من الجبلية إلى مطعمه ومشربه وبقاء نسله وغير ذلك، فالدواب والطيور والأسماك تعرف مساربها، وقد أودعها الله ﷻ من آياته وآلائه ما لا يحيط به إلا الله ﷻ، ففي العالم آيات ساطعات وبراهين قاطعات تشهد أنها من صنع رب العالمين، وقد أقام في كل شيء من الكون آية على حد قول الشاعر:

فيا عجباً كيف يعصى إلهه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولو بذلنا ما في الأرض من محابر لنشرح آيات الله في الإنسان والسموات والأرض وما بينهما وجميع ما وصلت إليه المدارك الإنسانية لعجزنا عن الوفاء بذلك؛ ولذلك اكتفى موسى ﷺ بقوله لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. قال فرعون لمن حوله وقد انبهر: ألا تستمعون إلى ما يقول موسى في دعواه وجود إله غيري؟ قال موسى ﷺ: الذي أرسلني وهو الذي خلق السموات والأرض هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، قال فرعون لمن معه من ملأته مستهزئاً منقطعاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فأجابه موسى ﷺ بأن الله الذي أرسلني هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] فسارعوا إلى الإيمان به قبل أن ينزل بكم عقوبته، فاشتد انقطاع فرعون عن المحاجة ولجأ إلى التهديد بالسجن لموسى ﷺ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، فلم يزد موسى ﷺ أمام هذا التهديد إلا نصحاً فقال: أتسجنني ولو جئتك بآية واضحة وحجة قاهرة على أني رسول الله رب العالمين، فازداد فرعون سفهاً وعُلوّاً وقال لوزير هامان: ﴿فَأَوْوِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الْأُطْمِينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] لأصعد عليه لعلني أنظر إلى إله موسى وأكلمه إن كان صادقاً أن في السماء إلهاً، وأراد بذلك أن يمؤه على قومه وأن يستخفهم حتى لا تتسرب إلى قلوبهم أنوار الحق الذي جاء به موسى ﷺ، وقال له موسى ﷺ: أتستمر يا فرعون على تكذيبك وإن ﴿جِئْتَكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]. قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١] فألقى موسى عصاه فإذا هي حية تجري على بطنها وتهتز مسرعة كأنها جان، وصارت تتضحّم وتكبر فكد قلب فرعون ينخلع، ثم أدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء من غير برص ولا سوء، فقال فرعون وقومه: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ [طه: ٦٣]، وهذا السحر يدل على أنه سحر ساحر عليم.

وطلب ملاً فرعون من فرعون أن يبعث في المدائن رسلاً يجمعون السحرة من سائر أنحاء بلاد مصر؛ ليجيئوا ويجتمعوا عند فرعون لمغالبة موسى ﷺ، وقال فرعون وملؤه لموسى ﷺ: ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٍ مِّثْلَهُ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴿طه: ٥٧-٥٨﴾ في مكان متفق عليه بيننا وبينك، قال موسى ﷺ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ ﴿طه: ٥٩﴾، وهو يوم عيدهم الذي يتزينون ويجمعون فيه، وأن يكون الاجتماع بيننا وبينكم وقت الضحى.

وفي مجيء موسى ﷺ وأخيه هارون ﷺ إلى فرعون وتبليغهما له رسالة الله وما كان من فرعون وملئه مع موسى ﷺ يتحدث القرآن العظيم في مواضع شتى فيقول الله ﷻ في سورة الأعراف وهو أصدق القائلين، وما يقصه هو أحسن القصص:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَا تَوَكُّبِكُمْ لِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿الأعراف: ١٠٣-١١٢﴾.

ويقول ﷻ في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتُونَنِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿يونس: ٧٥-٧٩﴾.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿هود: ٩٦-٩٧﴾.

وقال تعالى في سورة طه عن موسى وهارون أنهما قالَا لفرعون لما جاء إليه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقَىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ [طه: ٤٧ - ٥٤].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخمسون

تابع: موسى ﷺ

تابع في هذا الفصل إيراد ما ذكره الله ﷻ في سورة طه عما دار بين موسى وفرعون عند قيام موسى بدعوة فرعون إلى الله حيث يقول ﷻ في سياق ما استدل به موسى ﷺ على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيد ومليكه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۗ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۗ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۖ فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۗ﴾ ﴿٥٧﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ۗ﴾ [طه: ٥٥ - ٥٩].

وقال ﷻ في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۗ﴾ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ۗ﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۗ﴾ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۗ﴾ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۗ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۗ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ۗ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۗ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ نَأْخُذَكَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ۗ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلُو جُنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۗ﴾ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُ ۗ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۗ﴾ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ۗ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ ۗ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۗ﴾ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۗ﴾ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الدِّيَارَيْنِ حٰشِرِينَ ۗ﴾ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ ۗ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٣٧].

ويقول تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۗ﴾ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۗ﴾ [النمل: ١٣ - ١٤].

ويقول ﷻ في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْتَمُنُ عَلَيَّ الطِّينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَحُوْدُوهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: ٣٦ - ٣٩].

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٧].

وعندما أظهر موسى هذا الالتجاء العظيم إلى الله وحده، سخر الله ﷻ له رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتنم إيمانه، فبدأ في الدفاع عن موسى ﷻ، وأخذ ينصح فرعون وملاه بضرورة المسارعة إلى طاعة موسى ﷻ والدخول في دينه قبل أن يسلط الله على المكذبين عقوبته التي ينزلها بالمكذبين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صٰدِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذٰبٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بٰسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشٰدِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُ أُمَّةٌ مِّنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ غَاصِبٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنٰتِ فَمَا زَلَّمْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿٣٤﴾﴾

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
 سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
 مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرِحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ
 السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ
 وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوْمِ
 اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿غافر: ٢٨ - ٣٨﴾.

وعندما وصل فرعون إلى هذه الدرجة من البغي والطغيان صرح الرجل وأعلن
 إيمانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوْمِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
 وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَتَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي
 لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
 تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْتِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
 أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
 ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿غافر: ٣٨ - ٤٥﴾.

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾

[الزخرف: ٤٧].

وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِيَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
 وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ
 لَّمْ نُؤْمِنُوا لِي فَأَعْلَزُولُنَّ ﴿الدخان: ١٨ - ٢١﴾

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
 فَتَوَلَّىٰ رُكْبَتَهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿الذاريات: ٣٨ - ٣٩﴾.

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الْكُذَّبَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
 أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿النازعات: ٢٠ - ٢٤﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

جمع فرعون مهرة السحرة من جميع مدائن مصر، وقد كان السحر يومها هو أهم أهداف التعليم في بلادهم، وقد كانوا بلغوا فيه مبلغاً لم يصله أحد من قبلهم، ولم يُعرف أنه وصل إليه أحد من بعدهم، وقد جرت السُنَّةُ الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، ويعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر؛ ولذلك أرسل محمداً عليه السلام بالقرآن، وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد عليه السلام قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز.

وكما أرسل عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله؛ لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه، وقد وصف الله تبارك وتعالى ما كان من موسى والسحرة ومن فرعون وملئه، وكيف سارع السحرة إلى الإيمان بموسى عليه السلام عندما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى، وأنه أوجس وأحس في نفسه بالخوف. فطمأنه الله تعالى وأمره أن يلقي عصاه، فانقلبت حية هائلة وابتلعت جميع ما صنعوا، فأيقن السحرة أن هذا لا يقدر عليه إلا الذي خلق القوى والقُدْر، فخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسوله، صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضاة الله تعالى، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهَوَوْهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا

إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنفِقُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمْنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿الأعراف: ١١٣ - ١٢٦﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿يونس: ٨٠ - ٨٢﴾.

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّا أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمْنَا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَضِلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَأَمْنَا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿طه: ٦٠ - ٧٣﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَبِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَنْبِئَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِآجُرِّ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْعَلْبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَمْ قَبَلْ أَنْ ءَأَذَنْ لَكُمْ إِيَّاهُمْ
 لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ ۖ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّاكُمْ
 جَمْعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا ۖ إِنَّ
 كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ٣٨ - ٥١﴾.

وفي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ
 تَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا
 أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، إشعار بأن الله إذا أراد إظهار حجته
 هيئاً أسباب هذا الإظهار، ووفق موسى ﷺ إلى أن يطلب منهم أن يكونوا هم
 البادئين بالإلقاء، حتى إذا جاؤوا بهذا السحر العظيم الذي خوَّف الناس حتى
 موسى ﷺ، ثم ألقى موسى عصاه وهي واحدة فانقلبت حية هائلة تبتلع وتلقف
 جميع حبالهم وعصيهم التي انقلبت حياتٍ تجري هنا وهناك، ليكون ذلك أتم في
 باب إظهار هذه المعجزة القاضية على إفكهم وسحرهم وباطلهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَعُلبُوا هُنَاكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]. إشعار بما
 لحق فرعون وقومه من المهانة والذلة والصغار عند ظهور هذه المعجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] إشعار بأن هؤلاء
 السحرة قد سارعت إلى قلوبهم أنوار الحق فلم يترددوا في الانقياد لله والإذعان
 لدينه والإيمان برسله، وقد خالطت بشاشة الحق شغاف قلوبهم؛ لأنهم أعرف
 القوم بأن ما جاء به موسى ليس سحراً.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]
 إشعار بأن فرعون أيقن أن ما جاء به موسى هو الحق من عند الله، غير أن شقوته
 جعلته يحاول الإبقاء على بعض سلطانه حتى في إيمان من يشرح الله صدره
 للإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾
 [الأعراف: ١٢٣] وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] إشعار

بتخبط فرعون في إصاق التهم بهؤلاء المؤمنين لتضليل قومه ومحاولة صرفهم عن هذا الحق الأبلح، وما كيد فرعون إلا في ضلال.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن فرعون عندما رأى عصا موسى انقلبت حية وابتعلت ما قدمه السحرة من السحر العظيم، وآمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ولم تؤثر فيهم تهديدات فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، وثباتهم على الحق وسؤالهم الله عز وجل أن يفرغ عليهم صبراً ليتحملوا كل ألوان العذاب من فرعون في سبيل إيمانهم بالله، أيقن فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام حق لا مرية فيه، واستيقن هو وملؤه أن موسى رسول الله عز وجل، وقد أثر ذلك في نفس فرعون خوفاً من أن يصيب موسى بأذى، واكتفى بتهديد موسى ووعيده، ويظهر ذلك جلياً في قوله: ﴿ذُرُوفِي أَقْتَلْ مُوسَىٰ وَلِيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. فهل كان مربوطاً بحبل لا يتمكن بسببه من قتل موسى، لكنه التهديد الأجوف الدال على أنه يحس أن موسى رسول الله، غير أنه وقومه أصروا على تشديد العذاب على بني إسرائيل، وازدادوا في تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وصان الله موسى عليه السلام من أن تناله يد فرعون، كما صان محمداً عليه السلام من أبي جهل ومن معه من أن تنال أيديهم رسول الله محمداً عليه السلام، وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى وهارون أن يتبوأ لقومهما بمصر بيوتاً، وأن يجعلوا بيوتهم قبلة، وأن يقيموا الصلاة، وأن يستمر موسى عليه السلام في بشارة المؤمنين بنصر الله وتأييده، ولما أخذ فرعون يعلن عن تشديد العذاب المهين على بني إسرائيل وأنه لا بد من قهرهم، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۗ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال قوم موسى له: أودينا من قبل مجيئك بالرسالة ومن بعد مجيئك بها، قال لهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُّوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٢٩].

ولقد بدأت بشائر نصر الله لموسى ومن معه من المؤمنين فسَلَطَ الله على آل فرعون الجذب والقحط ونقص الثمرات لعلمهم يُفَيِّقُونَ من غيهم وضلالهم، لكنهم بدل ذلك صاروا يزعمون أن هذا الذي أصابهم هو بسبب مجيء موسى لهم واطَّيَرُوا به وبمن معه، وأجابهم موسى ﷺ بأن سبب بلائهم هو كفرهم وتكذيبهم رسل الله، وزعموا مرة أخرى أن هذا الجذب والقحط من سحر موسى، وأنهم لن يؤمنوا به أبداً، فسَلَطَ الله عليهم الطوفان، فغرقت مزارعهم وهلكت ثمارهم، ولما انتهى الطوفان وبدأت الأرض تُوْتِي ثمارها سَلَطَ عليهم الجراد، فأباد زروعهم وثمارهم، ثم سَلَطَ عليهم القُمَّل وهو صغار الذر، والدَّبَّاء الذي لا أجنحة له، أو شيء صغير بجناح أحمر، وشيء يشبه الحلم خبيث الرائحة، فصار هذا القُمَّلُ يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئاً إلا وجدوه فيه، ثم سلط الله عليهم الضفادع، فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم، ثم سلط الله عليهم الدم، فصاروا لا يتناولون شيئاً إلا وجدوه مغطى بالدم، وقد امتزجت به مياههم ومطاعمهم.

وقد كان من آيات الله ﷻ أن صان بني إسرائيل من كل هذه العقوبات، ولما اشتد هذا البلاء بفرعون وملئه ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، لكنهم كانوا كلما كشف الله عنهم الضرَّ إذا هم ينكثون، ومع يقينهم بأن هذه آيات مفصلات من الله ﷻ جحدوا بها وضحكوا منها.

وقال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فقال له موسى: لقد علمت أن هذه الآيات التسع وهي العصا واليد وما جاء بعدهما من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم كلها من الله ﷻ لعلكم تهتدون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً بسبب كفرك وضلالك، ودعا موسى ﷺ على فرعون وقومه فقال: ﴿رَبَّنَا

إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨] فبدل أن يشكروك عليها استعملوها في الصد عن سبيلك ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي أهلكها ﴿وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقد بلغ موسى ﷺ هذا الحال في الوقت الذي رأى فرعون أنه لا بد من إعلان الحرب على موسى، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يجمعون العُدَّة والسلاح والرجال للقضاء على موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل من المؤمنين باذلاً كل ألوان الإغراء بهم.

وقد أوحى الله ﷻ إلى موسى أن يخرج من مصر ليلاً ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء، وأعلمه أن فرعون وجنوده سيتبعونهم، فسارع موسى ﷺ إلى امتهال أمر ربه، فسرى ببني إسرائيل، ولما اجتمع جند فرعون سارعوا إلى اللحاق بموسى ﷺ يقودهم فرعون عليه لعنة الله، فأتبعوهم مشرقين، أي وقت شروق الشمس، وقد كان موسى ﷺ ومن معه وصلوا إلى مكان عسير، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم والجبال عن يمينهم وشمالهم، فلما تراءى الجمعان جمع موسى وجمع فرعون قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، أي سيكون هلاكنا على يد فرعون وجنده هنا؛ لأنه لا مفر لنا. فأجابهم موسى ﷺ وقال لهم: كلا لن يدركونا، ولن يصلوا إلينا؛ لأن الله وعدني بذلك، وأراد موسى ﷺ بذلك وعد الله له حيث أجابه عندما قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿طه: ٤٥ - ٤٦﴾، ولذلك لما قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] أجابهم بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله ﷻ إلى موسى ﷺ أن اضرب بعصاك البحر، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، فجعل الله لهم بذلك طريقاً في البحر يبساً لا يخاف دركاً ولا يخشى، وصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسة. على كل جانب من جوانب طريقهم جدار من الماء كأنه صخر منحوت، وعندما خرج موسى ومن معه من

البحر أمره الله ﷻ أن يترك البحر ساكناً حتى يدخل فيه فرعون وجنوده، فلما صار فرعون وجنوده في اليم غشيهم، من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى، ولما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فلم ينفعه هذا الإيمان، ولم يخلصه من عذاب الله، ورمى البحر بجثته ليراها من بقي من قومه؛ ليعرفوا قدرة الله عليه، وكان ذلك في يوم عاشوراء.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والخمسون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن غرق فرعون ونجاة موسى ﷺ كان في يوم عاشوراء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم موقف فرعون وملئه من موسى ﷺ وقومه بعد إيمان السحرة في مواضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الأعراف:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَجَّيْ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٨٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفْضَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٨٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلرَّسِلْنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَرَ إِلَىٰ أَجَلٍ لَهُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿الأعراف: ١٢٧ - ١٣٧﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَإِنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿يونس: ٨٣ - ٩٢﴾.

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرًا فِرْعَوْنُ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿هود: ٩٦ - ٩٩﴾.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿طه: ٧٧ - ٧٩﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ

مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَايِبُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٦٨].

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطُّعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَإِبرِجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأُنزِلُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُهُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٢].

وكما قال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطُّعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَإِبرِجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأُنزِلُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُهُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٢].

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْادَّعِ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الزخرف: ٤٦ - ٥٦].

وكما قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا
كُلِّهَا فَأَحَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١ - ٤٢] إلى غير هذا من الآيات.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

بعد أن نجّى الله تبارك وتعالى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم، وأغرق فرعون ومن معه من المكذبين، وجاوز الله ببني إسرائيل البحر انتهت متاعب موسى من فرعون وقومه، وبدأت متاعب موسى وهارون من بني إسرائيل، إذ إنهم بعد أن رأوا آية الله الكبرى في فلق البحر لهم وإغراق فرعون وجنوده وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، لكنهم ما إن رأوا بعد أن جاوزوا البحر قوماً يعبدون أصناماً لهم قد عكفوا عليها حتى قال بعضهم لموسى عليه السلام: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فأجابهم موسى عليه السلام بأن هذا الطلب جهالة منكم، كيف نسيتم نعمة الله في إنجائكم من عدوكم وإغراقه، وأنتم حدثاء عهد بها، إنكم لو كنتم تعلمون لزدتكم إيماناً بالله وحده وكفرتهم بجميع ما سواه من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي هالك فاسد ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلبون منه خيراً، فكل عبادة غير الله باطلة، ولا تصح العبادة إلا لله وحده، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره ردّه وشركه وأحبط عمله، ﴿قَالَ أَعْرَبَ اللَّهُ أَيُّكُمْ إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أي أطلب لكم شيئاً تعبدونه غير الله، وهذا الاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ، ثم بيّن لهم موسى عليه السلام أن الله فضلهم على عالمي زمانهم، إذ بعث إليهم رسوله وكليمه عليه السلام فآمنوا به، فلا يليق ببعضهم أن يطلب معبوداً غير الله وَعَلَىٰ لِيَشَابَهَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةَ الْأَصْنَامِ، ولم يكن كل بني إسرائيل قد طلب إليها آخر، وإنما هو طلب بعض جهلتهم، وفي ذلك يقول الله وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ

قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْفِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

وقد ذكر كثير من المفسرين وعلماء السيرة النبوية خبراً من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ حَنِينٍ فَمَرَرْنَا بِسَدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكَفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكَفَّارُ يَنْوِطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسَدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! هَذَا كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَإِنْكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: أوردته ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعاً ١٠١ هـ.

قلت: قال الحافظ ابن حجر في التقریب: كثير بن عبد الله بن عمرو المزني المدني ضعيف من السابعة، منهم من نسبه إلى الكذب ١٠١ هـ. فإن صح هذا الخبر حُمِلَ عَلَى أَنَّهُ قَوْلُ وَاحِدٍ مِنْ حَدَثَاءِ الْعَهْدِ بِالْجَاهِلِيَّةِ كَمَا جَاءَ مُصْرَحاً بِهِ فِي رَاوِيَةٍ عَنْ أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيِّ، قَالُوا: وَقَدْ كَانَ لِكُفَّارِ قَرِيْشٍ وَمِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَرَبِ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ خَضْرَاءُ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ يَأْتُونَهَا كُلَّ سَنَةٍ فَيَعْلِقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا وَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا يَوْمًا.

قال أبو بكر الطرطوشي المالكي: فانظروا - رحمكم الله - أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها.

هذا وقد كان موسى ﷺ عندما بعثه الله إلى فرعون إنما بعثه بأصول الدين من التوحيد وإقامة الصلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بالبعث بعد الموت، ولم يكن قد أنزل عليه التوراة، فلما انتهت مهمة موسى ﷺ الخاصة بفرعون وملئه وأغرق الله فرعون وجنده، وخلص موسى إلى سيناء وصار مختصاً ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم، هياً الله ﷻ موسى ﷺ ليُلْقِيَ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْأَحْكَامِ الَّتِي تَسْلُكُ بِأَهْلِهَا صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَحَالَةَ مُوسَى ﷺ هَذِهِ تَشْبَهُ حَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ قَبْلَ

الهجرة وبعدها، فإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت، أما القرآن المدني فإنه زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولة الإسلامية والمجتمع السعيد وما يحتاجه كل فرد لصالح معاشه ومعاذه.

ولذلك ساق القرآن العظيم ما أوصى الله به موسى ﷺ عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت، حيث يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ [طه: ١١ - ١٦]، وقال ﷻ: ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَاقِي رَبَّهُ فَلَئِن لَّا يَرَىٰ إِلَهَ إِلَّا أَنَا تَزَكَّىٰ ﴿١٧﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

ولمَّا أغرق الله فرعون ونجَّى بني إسرائيل صار لموسى ﷺ دولة، فهو في حاجة إلى النظام الشامل والنور الذي يسلكه ليهتدي به هو والمؤمنون إلى الصراط المستقيم، وقد واعد الله تعالى أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المتنطعين أن يُريهم الله جهرَةً، وأن يسأل ربه ذلك، وعندما جاء الميقات قال موسى لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم، ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدةً واحذر دُعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وما إن انطلق موسى ﷺ لتلقي الشريعة عند الطور حتى أضل السامريُّ بني إسرائيل، فصنع لهم عجلًا من الذهب له خوار؛ أي صوت يُسمع وصلصلة شبيهة بصوت الثور، وقال لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨] فعبده جلة من بني إسرائيل، وحاول هارون ﷺ صرفهم عن عبادة العجل، وكان اللين يغلب عليه ﷺ وخشي إذا شدد عليهم أن يتفرقوا، وقد بارزه عبَادُ العجلِ العداوة، وكادوا يقتلونه عندما كان يُحذرهم من عبادة العجل، ولم يكن مأذونًا له في قتالهم، فانتظر مجيء موسى ﷺ بالشريعة من عند الله.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الخامس والخمسون

تابع: موسى ﷺ

عندما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلاً لهذا الميقات، فلما انتهوا إلى الجبل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن كان هذا الطور لا يَنْهَدُ إذا تجلَّى الله له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله ﷻ أن يضرب لموسى وغيره مثلاً على أن الله ﷻ قد احتجب بالنور عن خلقه؛ لأنهم لم يُهَيِّتُوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه إذا ماتوا على الإيمان في الدار الآخرة، فإن المؤمنين لن يروا ربهم حتى يموتوا، وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ نَرِنِي﴾ دليل على استحالة الرؤية؛ بدعوة أن (لن) تفيدهُ تأييدَ النفي، وجهلوا أن الله ﷻ قال في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ثم قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٥] مع أنهم يتمنون الموت وهم في جهنم، إذ ينادون مع نظرائهم من الكفار: ﴿يَمْنَاكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ولما تجلَّى الله تعالى للجبل ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ أي مذكوكاً مستويّاً بالأرض ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْفًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولما رأى موسى ﷺ أن السبعين الذين معه لا يزالون في صعقتهم دعا الله ﷻ أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله ﷻ بأنه أراد أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين سألوه أن يريهم ربهم جهرة، وقد أجاب الله تعالى دعوة موسى ﷻ وأفاق السبعون من صعقتهم، وقال الحق لموسى ﷻ: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وأعطاه الألواح وقد كتب له فيها كل شيء ﴿مَوْعِظَةً

وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ [الأعراف: ١٤٥] يحتاجه بنو إسرائيل في معاشهم ومعادهم، وقد كان موسى ﷺ عندما أقبل على مكان المناجاة سارع إلى جانب الطور الأيمن، فسبق السبعين الذي كانوا معه، فقال له العليم الخبير: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ [طه: ٨٣ - ٨٤].

ومن ثمرات هذا السؤال والجواب تقرير أن المسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى مرضاة الله من الأمور المحبوبة شرعاً وليس في كل عجلة ندامة، وبعد أن أعطى الله تعالى موسى التوراة أخبره أن قومه عبدوا عجباً صنعه لهم السامري، فرجع موسى بالتوراة إلى قومه غضباناً حزيناً على ما فعله قومه، وأخذ يؤنبهم ويوبخهم على عبادة العجل، وقال لهم: ﴿ بَلِّسَمَا حَلَفْتُمُونِي مِن بُعْدِي ﴿ [الأعراف: ١٥٠] ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴿ [طه: ٨٦] بإنزال التوراة نوراً لكم، أفضالت غيبتى عليكم أن أحببتهم أن ينزل بكم غضباً من ربكم فأخلفتم وعَدكم إياي بالثبات على الإيمان وإخلاص العبادة لله وحده وكأنكم استعجلتم عقوبة الله؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما قَدَرُوا على ردِّ ضلال السامري، فإنه سَوَّلَ لهم ما سَوَّلَ وَعَلَبَ على عقولهم وزعم لهم أنه إله موسى، وأن موسى نسي أنه ربُّه فذهب يطلب ربه عند الجبل. وكان هارون ﷺ قد حذر قومه من عبادة العجل وكان قد قال لهم: ﴿ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩٦﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَن مَّعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٦﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿ [طه: ٩٠ - ٩٣] بأن تقضي على سبيل المفسدين، وقد بلغ الغضب بموسى ﷺ مبلغاً فأخذ الألواح وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليه، فقال هارون: ﴿ ابْنُ أُمِّ إِنْ أَلْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٥٠]، وقال هارون ﷺ لموسى ﷺ: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنَّ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي ﴿ [طه: ٩٤].

وأراد ﷺ استعطاف موسى بقوله: يا ابن أم مع أنه أخوه لأبيه وأمه، وهذا شبيهه بقول رسول الله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي

بعدي»، إذ الرابطة بينهما الإسلام، وفاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وقد حاول بعض أهل الأهواء أن يستدلوا بهذا الحديث على أن علياً رضي الله عنه هو خليفة رسول الله ﷺ، وهذا الاستدلال باطل من وجوه: منها أن هارون مات قبل موسى، ولم يكن خليفة من بعده، بل الذي كان خليفة بعد موسى هو يوشع بن نون، ومنها أن هذا الحديث ليس نصاً في كون علي رضي الله عنه هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وسبب الحديث يوضح مراد رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ لما خلف علياً رضي الله عنه في المدينة المنورة حينما أراد الذهاب إلى تبوك قال بعض المنافقين، في المدينة: إنما خلف علياً لأنه يستقله ولا يحبه، فلما علم علي رضي الله عنه بذلك أخذ سيفه ولحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، وأخبره بقول المنافقين فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وكان النبي ﷺ يبين لعلي رضي الله عنه أن استخلافه على المدينة كاستخلاف موسى لهارون حينما ذهب موسى ﷺ لميقات ربه، ولم يكن استخلاف موسى لهارون عن البغض أو الاستئصال له كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كما أن الحنان الذي يحس به موسى لهارون فيه معنى يوجد شبيهه بين رسول الله ﷺ وبين علي رضي الله عنه، إذ إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تحته، وحوث رسول الله ﷺ عليها وعلى زوجها وبنيتها لا يحتاج إلى دليل.

وبعد أن سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها أي في نصها وجملتها وتعاليمها هدى ورحمة للذين يخافون الله ﷻ ويهتدون بما أنزل من الكتاب، وفي مواعدة موسى لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً للذهاب معه، واستخلاف موسى لهارون على بني إسرائيل مدة غيبته هذه، ووصايا موسى لهارون ﷺ، وعبادة بعض بني إسرائيل للعجل الذي أضلهم به السامري، وسؤال موسى ﷺ ربه أن ينظر إليه، وجواب الله ﷻ له، وصعقة موسى والسبعين الذين معه واندكك الجبل لما تجلّى الله للجبل، وإخبار الله ﷻ لموسى أن قومه عبدوا العجل من بعده ورجوعه ﷻ إلى قومه غضبان أسفاً، وأخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، وفي اعتذار هارون واستعطافه، وما

عاقب به موسى عليه السلام السامريّ الذي صنع العجل، وما فعل موسى عليه السلام بعجل السامري، من تحريقه ونسفه وتذريته في البحر، في هذا كله أنزل الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذكر ذلك في كتابه الكريم في مواضع من الذكر الحكيم.

الى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والخمسون

تابع: موسى ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر في مواضع من كتابه الكريم قصة مواعده لموسى ﷺ لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً من بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى ﷺ، وما حدث لموسى وللذين معه من الصعق، وما كان من عبادة قومه للعجل من بعد ذهابه لتلقي التوراة، ورجوعه إلى قومه غضبان أسفاً، وما كان بين موسى وهارون في ذلك، وعقوبة السامري، وتحريق العجل ونسفه في اليوم، ففي سورة البقرة يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِقَوْمِي أَنفُسِكُمْ أَفَأْتَاكُمْ الْعِجْلَ فَنُؤَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١ - ٥٦].

ويقول في نفس السورة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢ - ٩٣].

ويقول تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ
 مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ
 الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا
 سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
 جَسَدًا لَهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾
 وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ
 بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ
 اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ
 رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 الْعِجَلَ سَيُنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ
 عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ
 عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾
 وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَلَّتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ
 مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتَمَلَّكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
 تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [الأعراف: ١٤٢ - ١٥٥].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ فَدَٰ أُنَجِّبَنَّكُمْ مِنْ عَذَابٍ وَّوَعَدْنَاكَ جَانِبَ
 الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَزَرَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَ وَالسَّلْوَٰى ﴿٨١﴾ كُؤَا مِنْ طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ
 فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨٢﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٣﴾ وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَعَجَلْتُ
 إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ

إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ
 أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
 بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
 عَجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ
 إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا
 فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى
 يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَأَلَّا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي
 ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
 فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
 فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ نُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى
 إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ
 اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿طه: ٨٠ - ٩٨﴾.

ويقول ﷺ في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ
 بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا
 فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَابَتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا
 مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
 مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿القصص: ٤٣ - ٤٦﴾.

هذا وقد قص الله تبارك وتعالى كثيراً مما لقبه موسى ﷺ من بني إسرائيل
 من الأذى، والتنطع والتشدد، كعدم رضاهم باليمن والسلوى وطلبهم بدلها بقولاً
 وثوماً وقتاءً، وعدساً وبصلاً، وكقولهم لما رأوا موسى ﷺ حياً ستيراً لا يرى
 من جلده شيء استحياءً، فأذاه من آذاه منهم بقولهم فيه: ما يستتر هذا التستر إلا
 من عيب بجلده إما برص وإما أذرة وإما آفة، ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ
 وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل السابع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى بعض ما لقيه موسى عليه السلام وأخوه هارون عليهما السلام من تنطع بني إسرائيل وأذاهم حتى قال موسى عليه السلام كما حكى الله وَعَلَىٰ ذَٰلِكَ: ﴿يَقَوْمٌ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ آتِيَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر».

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن موسى كان رجلاً حَيَّيًّا سَتِيرًا، لا يُرَى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستُّر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرِّته مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجْرٌ ثوبي حَجْرٌ حتى انتهى إلى ميلا من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].»

ومن أمثلة شح نفوسهم أنهم لما استسقى موسى لهم أمره الله وَعَلَىٰ أَنْ

يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد أسباطهم، ولو كانوا أهل إحسان وتراحم لكفتهم عين واحدة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وكما قال ﷻ: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ومن أمثلة تعنتهم أنهم قد امتنَّ الله عليهم باليمن والسلوى طعمائين، شهيين بلا كلفة ولا مشقة فما رعوها حق رعايتها، والسلوى طير شهية الطعم سمين، واليمن شبيه بعسل النحل، يجدونهما عند رؤوسهما في الصباح والمساء، ومع ذلك قالوا لموسى ﷺ: لن نصبر على طعام واحد نريد بقلًا وقثاء وثومًا وعدسًا وبصلًا، فأجابهم ﷻ: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِهِمْ وَجِدْ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد اغتنم موسى ﷺ فرصة حرصهم على البقول والقثاء والثوم والعدس والبصل فأمرهم أن يدخلوا بيت المقدس ليطهروه من الكافرين، فقالوا إن فيها قومًا جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وهذا من أبرز أمثلة جبنهم وذلتهم، حتى ورث هذا الجبن من بعدهم ذرياتهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَا يُفْلِحُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولم يزل هذا الخلق الذميمة تمتلئ به جوانحهم إلى اليوم، وهم لم ينتصروا

على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا وحبل من الناس، فإنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، وفي امتناع بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وعصيانهم لموسى عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ - ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] أي بدّل أن يقول حطة قالوا حبة في شعرة وقالوا حنطة، ودخلوا يزحفون على أستانهم بدّل أن يدخلوا الباب ساجدين، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٥].

وقد عاقبهم الله تعالى على هذا العصيان بالتيه في الصحراء أربعين سنة حيث يقول تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

ومن أمثلة تنطعهم أنهم لما قتل واحد منهم نفساً وتدافعوا وتخاصموا فيمن

قتلها حيث لم يُعَرَفِ القاتل، فأمرهم موسى ﷺ بذبح بقرة بأمر من الله ﷻ، فكان أول ردّ منهم على موسى كليم الله أن يقولوا: أتستهزئ بنا؟ فلما عَرَفَهُمْ أن الاستهزاء بالناس جهل لا يليق بعبد صالح قالوا: ما سئها؟ فأجابهم موسى ﷺ: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وحضّهم على المسارعة إلى الامتثال، فتنطعوا وقالوا: ما لونها، فأجابهم بأنها ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]، فتنطعوا وقالوا: بيّن لنا ما هي أسائمة أم عاملة إن البقر تشابه علينا، فأجابهم موسى ﷺ بأنها ﴿بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧١] أي غير مدلّلة بالعمل فلا تنفع لحرث الأرض ولا لسقي الزرع، خالية من العيوب واختلاط الألوان. وهنا انقطعوا وكادوا يعجزون عن الحصول عليها، ولو أنهم عندما أمرهم أول مرة سارعوا فذبحوا أي بقرة لكفتهم.

وفي قصة بقرة بني إسرائيل يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا حُرُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ سَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَيْفَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والخمسون

تابع موسى عليه السلام

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوماً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب ومن لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ، وأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فرقد موسى واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١] فأمسك الله عن الحوت جريرة الماء فصار مثل الطاق، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْبَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]، فكان للحوت سرباً ولهما عجباً، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَيَّ ءَأَثَارُهُمَا قِصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذ رجل مسجى بثوب، فسلم موسى فرد عليه فقال: وأنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، أتيك لتعلمني ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكهُ الله لا أعلمه، قال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٨﴾ [الكهف: ٦٧ - ٦٨] إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كَلَّمُوهُم أَن يَحْمِلُوهُم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوق على حرف السفينة فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر، إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً قال: فلم ينجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٨١﴾ [الكهف: ٧١ - ٧٣] فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مروا بسلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا كأنه يقطف شيئاً، فقال له موسى: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٨٢﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٣﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰجِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٨٤﴾﴾ فانطلقا حتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقُصَ ﴿٨٥﴾ [الكهف: ٧٤ - ٧٦] مائلاً، أو ما بيده هكذا كأنه يمسح شيئاً إلى فوق قال: قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم ﴿لَوْ شِئْتُمْ لَنُخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا ﴿٨٦﴾﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾ [الكهف: ٧٧ - ٧٨] قال النبي ﷺ: «وَوَدِدْنَا أَن مُوسَى كَانَ صَبِرًا، فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا» وفي لفظ قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى لو كان صبر يُقَصُّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».

ثم ساق البخاري رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إنما سُمِّيَ الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء.

وقد ساق الله ﷻ قصة موسى مع الخضر ﷺ في محكم كتابه حيث يقول في سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ

لِفَتْهُ ءِإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ آلِهَتِي وَمَا أُنسِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعُ فَارْتَدَّ عَلَيَّ ءِآثَارُهُمَا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِأَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٨﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴿٦٩﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٠﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٩﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِئًا وَبَيْنَا وَمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨١﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٢﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٣﴾ فَارْتَدَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨٤﴾ [الكهف: ٦٠ - ٨١].

هذا وقد فتن كثير من الصوفية فادعوا لأنفسهم علماً إلهياً غير ما جاء به رسول الله ﷺ ويسمون العلم اللدني، وهذا برهان قاطع على جهلهم بشريعة الله، واللغة العربية، فإن قولهم العلم اللدني لا معنى له في اللغة العربية، وهم لجهلهم بها وانحرافهم عن دين الإسلام يحسبون أن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ يدل على علم غير شرعي، وينحتون له هذا الاسم، وهو فهم عاطل باطل فاسد كاسد، فإن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ معناه أعطيناه علماً من عندنا، والعلم الذي أعطاه الله تعالى للخضر هو علم شرعي آتاه الله الخضر ﷺ واختصه به؛ ولذلك قال الخضر لموسى ﷺ: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

ولا تدل هذه القصة على أن الخضر أفضل من موسى، إذ لا شك عند أحد ينتمي للعلم أن موسى هو من أكابر أولي العزم من المرسلين، وإعطاء الخضر علماً خاصاً به وهو ليس من أتباع موسى ﷺ لا يدل على أنه أفضل من موسى؛ فالمزية لا تنافي الأفضلية، كما ذكرت في فصول سابقة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى موسى في مقامات كثيرة يُنوه فيها بفضله كقوله تعالى وهو يذكر جملة من الأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْبَلِيِّينَ مِنْ بَدْوِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٤].

وكقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وكقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

استمر موسى عليه السلام في نشر النور والهدى الذي أنزله الله تعالى عليه في التوراة، يعاونه هارون عليه السلام، إلى أن قبض الله وَجَلَّ جلاله هارون عليه السلام في حياة أخيه موسى عليه السلام وهما في التيه مع بني إسرائيل .

وقد حج موسى عليه الصلاة والسلام البيت العتيق في مكة المكرمة، فقد روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بوادي الأزرق فقال: «أَيُّ وادٍ هذا؟» قالوا: وادي الأزرق، قال: «كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جُؤازٌ إلى الله وَجَلَّ جلاله بالتلبية». حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «أَيُّ ثنيةٍ هذه؟» قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقه حمراء، عليه جبة من صوف خظام ناقته خُلبَةٌ - يعني ليفاً - وهو يلبي» .

وقد ذكرت عند الحديث عن الخليل إبراهيم عليه السلام بعض صفات موسى عليه السلام، وأنه كان آدم أي أسمر، جعد الشعر جسيماً طويلاً كأنه من رجال أزد شنوءة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت ليلة أُسري بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة» .

كما روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له الدجال، وأنه مكتوب بين عينيه كافر أو (ك ف ر) فقال: لم أسمعها ولكنه قال صلى الله عليه وسلم: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعده آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه انحدر في الوادي» .

وقد حضرت الوفاة موسى عليه السلام قبل أن يدخل الأرض المقدسة، غير أنه طلب من الله وَجَلَّ جلاله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُرْسِلَ مَلَكُ الموتِ إلى

موسى ﷺ، فلما جاءه صَغَّه فرجع إلى ربه رَجَّكَ فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال فالآن، قال: فسأل الله رَجَّكَ أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

ثم قال البخاري رَحْمَهُ اللهُ: قال: وأخبرنا مَعْمَرٌ عن همام حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وروى مسلم في صحيحه من طريق همام بن مَنبِه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها، وقال رسول الله ﷺ: «جاء مَلَك الموت إلى موسى ﷺ فقال له: أجب ربك، قال: فَلَطَمَ موسى ﷺ عين مَلَك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يَدُكَ من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رميةً بحجر»، قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

وقد استشكل بعض من ينتمي إلى العلم هذ الحديث وكأنه استغرب كيف يضرب موسى ﷺ مَلَك الموت وكيف يفقأ عينه؟ ولا غرابة في ذلك؛ لأن موسى لم يعرف أنه مَلَك الموت كما لم يعرف خليل الرحمن أبوه إبراهيم ﷺ الملائكة الذين استضافوه، وقال لهم لَمَّا لم يأكلوا طعامه: إنكم قوم منكرون، ولا سيما أن ملك الموت جاء موسى ﷺ على طريق لم يُقبض على مثلها الأنبياء، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبض روح نبي من أنبيائه إلا بعد تخبيره، كما أثر أنه ما من نبي قبض إلا خَيْرٌ، ولذلك لما خَيْرَ رسول الله ﷺ اختار الرفيق الأعلى، أما استغراب فقء عين الملك فهو مبني على تعريف الملائكة بأنهم لا تحكم عليهم الصورة،

أي لو تصور الملك في صورة رجل أو غيره ثم أريد قتله أو قطع عضو منه فإنه لا تتأثر صورته بذلك، ولا يتمكن منه بخلاف الجنّي، فإن الصورة تحكم عليه، فلو تصور الجنّي في صورة حيوان وقتل هذا الحيوان قُتِلَ الجنّي، وبالنظر إلى أن هذا التعريف لم يثبت به خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فإنه لا يحل لمسلم أن يرُدَّ به الخبر الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ.

وقد رأيت كثيراً من أهل الأهواء المعادين لأصحاب رسول الله ﷺ وللبخاري ومسلم وغيرهما من أئمة أهل السنة والجماعة يدندنون حول هذا الحديث الصحيح للنيل من أصحاب رسول الله ﷺ وشيوخ أهل الحديث، وقد علمت أنه لا شبهة في صحة هذا الخبر عن رسول الله ﷺ الصادق الأمين.

هذا وقد حرّف اليهود التوراة بعد موسى ﷺ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أن اليهود يدّعون أن التوراة كتبها موسى ﷺ بيده، وهي مكونة عندهم من أسفار خمسة، وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، أو الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية، وقد جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية في الفقرة الخامسة منه: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب؛ وفي الفقرة السادسة ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، فتبين بما لا مجال للشك فيه أن هذا السفر مكتوب بعد موسى ﷺ، إذ كيف يكتب موسى بيده أنه مات ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، ومما يؤكد تحريفهم أنه جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية في الفقرة ٢٤ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها - ٢٥ - أمر موسى اللاويين حاملتي تابوت عهد الرب قائلاً: ٢٦ - خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم - ٢٧ - لأنني عارف تمردكم ورقابكم الصُّلبة هو ذا وأنا بعد حيٍّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحريّ بعد موتي - ٢٨ - اجمعوا إليّ كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض - ٢٩ - لأنني عارف أنكم بعد موتي تُفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم.

هذا وليست اليهودية هي دين موسى ﷺ بل دينه الإسلام، واليهودية محدثة بعد موسى؛ ولذلك لم يرد في خبر صحيح أن موسى ﷺ سماهم يهوداً، وقد تكون اليهودية مأخوذة من الهُود، بمعنى التوبة على حد قوله موسى ﷺ ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد وهو الترجيع بالصوت في لين والتطريب، وقد كان أحبار اليهود إذا قرؤوا على العامة أتوا بنغمات مع غنة شديدة ومد بالخياشيم. ويمكن أن تكون نسبة إلى يهوذا أحد رؤوس أسباط بني إسرائيل، ويكون إطلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيل التغليب، وهو بالدال أو الذال كما جاء في القاموس المحيط، يقال: يهوذا ويهودا، كما يقال يهودي ويهودي.

ولم يرد اسم اليهود في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله ﷺ على سبيل المدح قط، وكل ما ورد عنهم في عهد موسى ﷺ كان باسم بني إسرائيل، كما أن ما ورد في كتاب الله عنهم كان باسم أهل الكتاب وقوم موسى وبني إسرائيل، ولم يذكر اليهودية إلا في مقام الذم، والعلم عند الله، والسلام على موسى وهارون.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الستون

داود وسليمان عليهما السلام

نتحدث عن النبيين الرسولين المليكين الكريمين داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وكان أول ذكرٍ ثابتٍ لداود عليه السلام هو ما قصه الله تبارك وتعالى عن قتل داود لجالوت في الحرب التي دارت بين طالوت وجالوت في فلسطين، والظاهر من سياق القرآن الكريم لقصة هذه الحرب يفيد أن بني إسرائيل قد حاربهم جماعة من الوثنيين، وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وكان على رأس هؤلاء الوثنيين جالوت لعنه الله، وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي بعث الله ﷻ لهم نبياً آخر، يشرح لهم التوراة، ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيروه وحرفوه وبدلوه من الكلام عن مواضعه على حدّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (أي انقادوا لأمر الله) ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (أي صاروا يهوداً) ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي»، فكان أنبياء بني إسرائيل كعلماء أمة محمد ﷺ سوى أنه كان يوحى إليهم، فلما اشتدت الحرب على بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته أعداء الله من الوثنيين، فأخبرهم نبيهم ﷺ أنه يخشى عليهم أن ينكلوا عن القتال إذا فرّض عليهم ولا يفوا بما التزموا به، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، فأخبرهم نبيهم ﷺ أن الله قد عين لهم ملكاً منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يُعين الله علينا طالوت ملكاً ولم يكن في آباءه من ملك، فنحن أحق بالملك منه مع أنه فقير

قليل المال، فأجابهم نبيهم ﷺ بأن الله ﷻ قد اختاره عليكم وفضله من بينكم، وقد أعطاه الله ﷻ بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشؤون الحروب وتدبير الأمور، وأشد منكم قوة وصبراً وجلداً لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تتعنتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعينه ملكاً عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم: إن الله تبارك وتعالى جاعل لكم آية على صحة ملك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عجزتم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يُطلب منكم بذل مجهود في استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة فيه طمأنينة لبني إسرائيل، ودلالة ظاهرة على أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فَصَدَّقُوا وَعَدَّ اللَّهُ وَسَارَعُوا إِلَى طَاعَةِ طَالُوتِ وَأَمَّنُوا بِمَا أَخْبَرْتَكُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ ﷻ، ولما انقادوا لذلك وتهيئوا لقتال جالوت وجنوده تحت راية طالوت ﷺ، وكان من بينهم داود ﷺ أخبرهم طالوت ﷺ أن الله ﷻ سيختبرهم، حيث يمرون بنهر وهم عطاش وهو يمنعهم من الشرب منه لما يعلمه الله ﷻ أن الشرب منه يضرهم، والعجيب أنه لا يزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرمون على جنودهم أن يشربوا في أثناء زحفهم على عدوهم، لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم، إلا أنهم يجيزون لهم أن يبلُّوا ريقهم بَلًّا خفيفاً، ولذلك أذن طالوت لجيشه بأنه لا مانع أن يغترف الواحد منهم عُرفَةً بيد تَبَلُّ ريقه، ولا تعتبر شرباً، وهذا من آثار بسطة علم طالوت ﷺ، وقد حذرهم طالوت وعرفهم أن من شرب من هذا النهر لا يصحبه في قتال أعداء الله من الوثنيين أتباع جالوت، ولا يجاوز النهر، غير أنه عندما وصل هذا الجيش إلى النهر عصوا طالوت وشربوا منه سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت ﷺ.

وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً بعدد أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب

محمد ﷺ ممن شهد بدماءً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاث مئة، قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلاث مئة. وفي لفظ للبخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاث مئة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن. ولما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوهم جالوت قد حشد جنوداً وأعد عدة عظيمة، فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت: لا طاقة ولا قدرة لنا اليوم على قتال هذا العدو الكثير، كأنهم استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم، فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق وأن النصر من عند الله ليس بكثرة العدد وقوة العدد، وأنه ينبغي للمسلم أن يرغب في الاستشهاد ولقاء الله في سبيل الله قائلين لهم: ﴿كَمْ مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُودِهِ ﴿٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٠] سألوا الله ﷻ أن ينزل عليهم الصبر، وأن يُثبت أقدامهم في لقاء الأعداء، وأن ينصرهم على القوم الكافرين، فاستجاب الله دعاءهم ونصرهم على أعدائهم، وقتل داود جالوت ملكهم، وسارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود، وبعث الله ﷻ داود نبياً رسولاً، وجعله ملكاً كريماً على بني إسرائيل، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على طالوت ووصفه بأوصاف كريمة، أما ما زعمه بعض المفسرين والإخباريين من أن طالوت حسد داود وأصيب بالجنون وهام في الصحراء فإنه زعم باطل لا دليل عليه من خبر ثابت، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة طالوت وحربه لجالوت وتمليك داود حيث قال:

﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَيْنَا فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ

اللَّهُ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ بِيَدِهِ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِكَنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

[البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

بعد أن مكّن الله لداود في الأرض وآتاه الملك والنبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه ما يحتاجه هو وبنو إسرائيل من المنهج القويم، وقد يسّر الله عز وجل لداود قراءة الزبور وخفّفه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسرج دوابّه، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى محمد صلى الله عليه وآله، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «خُفّف على داود صلى الله عليه وآله القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابّه، ولا يأكل إلا من عمل يده»، والمراد بالقرآن هنا الزبور الذي أنزله الله على داود صلى الله عليه وآله حيث يقول: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، كما يطلق القرآن على القراءة، يعني قراءة الزبور، وقد كان داود صلى الله عليه وآله قد منحه الله عز وجل صوتاً جميلاً يتغنّى به وهو يقرأ الزبور ويترنم، ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله ترنمه بالزبور بصوت المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «يا أبا موسى! لقد أوتيت مزاميراً من مزامير آل داود». وروى أحمد في مسنده قال: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود».

وقد التزم داود صلى الله عليه وآله بأنه لا يأكل إلا من عمل يده، كما اتخذ منهجاً في الصيام والصلاة هو أحب المناهج التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحض عليها في التطوع، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفطر إذا لاقى»، وفي لفظ للبخاري

من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث المقداد بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده».

ولقد تفضل الله تبارك وتعالى على داود فألأن له الحديد وعلمه صنعة لبوس لصيانة المقاتلين المؤمنين، فكان أول من صنع الدروع التي قد تسمى الزرد، وقد أرشده الله ﷻ إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حلقاً بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره ﷻ أن يعملها سابغاتٍ تغطي كل جسم لابسها ويجرها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طويلاً وعرضاً فيعم نفعها جميع المقاتلين، وأن يقدر في السرد، أي في نسج الدرع؛ وهو إدخال الحلقات بعضها في بعض ولا تجعل المسامير غلاظاً فتكسر الحلقة، ولا دقاً فتتقلقل فيها، ولا تزداد في متانتها فتثقل على المقاتل، وهذه نعمة جزيلة لفت الله المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

كما سخر الله ﷻ لداود الجبال والطير إذا سبَّح؛ سبحت معه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُنْجِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ - ٨٠].

ويقول ﷻ في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُولِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١٠) ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقَدَرَ فِي السَّرْدِ وَعَامَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١) [سبأ: ١٠ - ١١].

ويقول تعالى: في سورة «ص» أمراً شيخ المرسلين محمداً ﷺ بالاعتداء في الصبر بداود ﷺ: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (١٩) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْكُتَابَ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].

وقد افترى اليهود على داود عليه السلام أكاذيب كثيرة، كما كذبوا على أنبياء الله من قبله ومن بعده، وقتلوا بعض الأنبياء، فقد ادعوا أن داود خرج يتمشى على سطح بيت الملك مساءً، فوجد امرأة جميلة تغتسل، فأرسل رجالاً فأخذوها وجاؤوا بها إلى داود، فدخلت عليه فاضطجع معها وحبلت منه، وأنه عمل على قتل زوجها، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني الذي بأيديهم في الفقرة الثانية منه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك؛ فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. وفي الفقرة الثالثة فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي؟ وفي الفقرة الرابعة: فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وفق الفقرة الخامسة: «وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلت»، وبعد أن يسوق سفر صموئيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل، بعد ذلك يقول السفر في الفقرة ٢٦: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجُلها نذبت بعلها، وفي الفقرة ٢٧ ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب. ثم يتابع السفر المذكور سرد معاتبه الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت به بثشبع، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها فتحبل وتلد ولداً اسمه سليمان، والعجيب الغريب أن هذه الأكذوبة انطلت على بعض من ينتمي إلى علم التفسير ففسروا بها قوله الله وعلى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ففَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِيَ نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِفَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١ - ٢٥].

وتفسير هذه الآيات بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا هذه المرأة الواحدة، ومجيء ملكين في صورة متخاصمين لداود لتنبئيه على قبح ما فعل: أقول: إن تفسير هذه الآيات الكريمات بهذا هو تفسير عاطل باطل فاسد كاسد، وإفك مفترى مبتدع ياباه لنفسه السوقة والرعا، ومكر يهودي مخترع تمججه الأسماع وتنفر منه الطباع؛ ولذلك أثر أن علياً عليه السلام قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، كما أثر أن رجلاً صالحاً من أهل العلم كان جالساً مع عمر بن عبد العزيز بالمسجد وبالقرب منهما رجل يقص على الناس هذه القصة المخترعة على داود، فقال الرجل الصالح: يا هذا! إن كان الأمر على خلاف ما تزعم فقد افتريت على نبي الله داود، وإن كان على ما تزعم وستر الله على نبيه داود وكنى وقال نعجة ولم يقل امرأة فما يحل لك أن تفضح نبي الله داود، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن تفسير من فسر قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُوا أَلْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] إلى قوله: ﴿وَحَرَ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] بأن داود عشق امرأة أوريا وفهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وتفسير النعجة في الآية بأنها المرأة، قلت: إن هذا تفسير عاطل باطل فاسد كاسد وإفك مبتدع يأباه لنفسه السوقة والرعاغ، ومكر يهودي تمجه الأسماع، وتنفر منه الطباع، وأذكر هنا أن سياق القرآن يأباه، فإن الله تبارك وتعالى ذكر في مقدمة هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجَلٌ لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. ما لقيه رسول الله ﷺ من أذى قومه وتمالئهم عليه واستهزائهم به، فأمره الله ﷻ بالصبر على ما يقولون، وأمره بأن يذكر قصة العبد الصالح الأواب داود ﷺ، ثم قصة سليمان ثم قصة أيوب، وما أصابهم من الضيق فصبروا، فجاءهم الفرج من عند الله، والمعروف أن القرآن العظيم كالدرا النظيم، كل آية مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها وبما بعدها، فهل يأمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بالصبر اقتداءً بداود العبد الصالح الأواب، ثم يصف هذا الأواب بأنه العاشق الطامع في زوجة رجل مؤمن ليس له غيرها، ولداود تسع وتسعون امرأة، إن ذلك لمنكر من القول وزور، وإنما يأمر الله رسوله محمداً ﷺ في هذه الآيات بالصبر على أذى قومه له، ويذكره بما كان من أخيه العبد الصالح الأواب داود عندما تسور عليه المحراب - أي القصر - متخاصمون، ففزع منهم وخاف أن يغتالوه، ولما طمأنوه بأنهم لم يجيئوا للإلحاق أذى به وإنما جاؤوا متخاصمين. وتقدم المدعي وقال مشيراً إلى المدعى عليه: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي شاة من الغنم، ولي نعجة واحدة، أي شاة من الغنم واحدة، وأنه رحمني في أول الأمر

عندما رأني أسرح بها وحدها، فطلب مني أن يجعلها مع نعاجه لترعى معها دون مشقة عليّ. فلما مضت مدة وجئت لأطلبها منه أنكر حقي فيها وقهرني، ووجد أن تكون لي عنده شاة وادعى أنها ملكه، فلما سمع داود عليه السلام الدعوى ولم يسمع من المدعى عليه إنكاراً لما يقول المدعي حكم داود على المدعى عليه وقال للمدعي: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن هذا دأب الخلطاء الذين لا يخافون الله بخلاف المؤمنين الصالحين وهم قليل، فلما انصرفوا من عنده راضين بحكمه عاتب نفسه على الفزع منهم، وظن أنه فُتن بسبب فزعه منهم عندما رآهم يتسورون المحراب، فخرّ لله راکعاً وأتاب فغفر الله ما وقع منه.

وكأن الله تعالى يقول لشيخ المرسلين وإمام المتقين وسيد أولي العزم محمد عليه السلام: إياك أن تفزع من تهديدات قريش لك، واذكر قصة أخيك العبد الصالح الأواب داود عليه السلام عندما تسور عليه المحراب متخاصمون ففزع منهم؛ فاعتذر إلى الله من هذا الفزع وظن أنه لا يليق بالنبين والمرسلين، فأنت أولى أن لا تفزع من قريش مهما تمالؤوا عليك وهددوك، فإن العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة لك، والله يعصمك من الناس، وليس في قصة داود في سورة ص ذكر حب وغرام واعتداء على امرأة رجل مؤمن في عصمة زوجها؛ بل لا ذكر للمرأة أبداً في هذه القصة، وإنما فيها ذكر النعجة، والعرب - كما ذكرت في مقدمة هذا الكتاب قصص الأنبياء في الفصل الثاني - لا يسمون المرأة نعجة، وإنما يطلقون النعجة على أنثى الضأن أو بقر الوحش فقط، ولا ترضى المرأة أبداً أن تُشبهه بأنثى الضأن، ولكنها ترضى أن تشبهه بنعاج الفلأ، أي بقر الوحش، فإذا شُبّهت المرأة بالنعجة فإنما يراد بها المَهَا، وهي بقر الوحش على حد قول الشاعر في امرأتين:

هما نعجتان من نعاج تباله لذي جوذرين أو كبعض دُمى هَكَر

وتباله مكان بين بيشة والنماص كانت توجد فيه بقر الوحش بكثرة، وجوذرين تشية جوذر، وهو ولد البقرة الوحشية، ودُمى هَكَر: الدُمى جمع دُمية وهي صورُ الرخام، وهَكَر موضع فيه هذه الصورة، ويقال هو دَيْرٌ رومي أو قصر؛

فالمراة تفرح إذا شبهت ببقر الوحش لجمال عيونها؛ وحسن عنقها ولذلك قال الشاعر:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
وقال الآخر:

إن العيون التي في طرفها حور قَتَلْنَا ثم لم يحين قتلتنا
يَصْرَعَنَّ ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنساناً

والمعروف أن بقر الوحش لا يسرح تحت كفالة راع، فإطلاق النعجة على المرأة ليس بالوضع العربي، وإنما يأتي على سبيل التشبيه ببقرة الوحش لا بأنثى الضأن.

قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] قال: والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكتفى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، ثم قال أبو حيان: والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم طائفاً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، وأن داود عليه السلام ظن أن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنفاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، ولذلك أشار بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ ولم يتقدم سوى قوله: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ويُعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جَوَزْنَا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم. ا.هـ.

أما قول البخاري رحمته الله في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه: يقال للمرأة نعجة، ويقال لها أيضاً شاة، فقد أشار الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أنه استقى ذلك من أبي عبيدة معمر بن المثنى حيث قال: قال أبو عبيدة في قوله: ﴿وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي امرأة، قال الأعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالتها

والمعروف عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أنه كان يتأول بعض ألفاظ القرآن على أن ذلك من مجاز القرآن، وقد أنكر عليه كثير من الأئمة في هذا السبيل، وهو ليس من الثقات في نقل الأخبار، وإطلاق الأعشى لفظ الشاة على المرأة إنما أراد بالشاة البقرة الوحشية تشبيهاً لها بها، وقد قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ لما ذكر أبا عبيدة معمر بن المثنى: وليس هو بصاحب حديث، بل سبق قلبي بكتابه. ١. هـ.

وقد قال ابن كثير في قصة داود من البداية والنهاية: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليّات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

وقال في تفسيره بعد سياق الآيات: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله وَعَلَى.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

أجزل الله تعالى لداود النعمة فاتاه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ووهب له العبد الصالح والملك الكريم والنبى العظيم الأواب سليمان بن داود، وقد نشأ سليمان عليه السلام في حجر داود، وترعرع في بيت النبوة والملك، وعندما بلغ الحلم ملأه الله حلماً أي أناة وعقلاً، وكان يحرص على مجالس حكم أبيه داود عليه السلام، ليشهد قضاءه بين الناس، وقد كان يشير أحياناً على أبيه بأنه لو كان هو القاضي في هذه القضية لحكم بغير ما حكم أبوه، وقد ذكر القرآن العظيم صورة من صور هذه القضايا، فذكر الله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء قضية الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، أي انتشرت فيه ليلاً بلا راع فأفسدت الزرع، فيذكر أن داود قضى بالقيمة لصاحب الزرع، فقال سليمان عليه السلام: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير ذلك، فقال أبوه داود عليه السلام: بم كنت تقضي يا بني، قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الزرع فينتفعون بألبانها ومنافعها، ويقوم أصحاب الغنم بإصلاح الحرث حتى يعود كما كان، فيردُّ إلى أصحابه وتردُّ الغنم إلى أصحابها، ففضلَّ الله تبارك وتعالى حكم سليمان، وذكر أنه فهمه الحكم في هذه القضية، ولا يحط ذلك من قدر داود عليه السلام؛ لأن فرحه بتوفيق ابنه للحكم في القضية لا يقل عن فرحه لو كان فهمها هو كذلك، ولذلك مدح الله تعالى داود وسليمان معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وليس حكم داود هنا خطأ، ولكن حكم سليمان في هذه القضية أولى منه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون

مؤيدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». ١. هـ.

كما قص رسول الله ﷺ صورة من صور حكم داود، ثم أظهر سليمان ﷺ أنه لو كان القاضي في هذه القضية لقضى بغير ذلك، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى؛ فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاها فقال: ائتوني بالسكين أشقهُ بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى».

وقد استمر داود في حكمه وملكه ما شاء الله تعالى، فلما أدركه الموت أرسل الله ﷻ سليمان ﷺ وجعله ملكاً كريماً ورسولاً عظيماً، وعلمه منطق الطير، وجعله أحد الأئمة من الرسل الذين أمر رسوله محمداً ﷺ بالافتداء بهم.

وقد بدأ بذكر داود وسليمان بعد ذكر نوح عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٤].

وبعد أن ذكر مجموعة من المرسلين قال لحبيبه محمد ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرُ بِهَا هُنَّ لِآئِنَّا فَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أُمَّتَهُ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠]، ولذلك سجد رسول الله ﷺ في سورة «ص» لما قرأ سجدة داود، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سألت ابن عباس (يعني عن سجدة ص) من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ

وَسَلِّمْنَ ﴿ۙ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود ﷺ فسجدها رسول الله ﷺ.

وفي قيام سليمان ﷺ بعد أبيه بالملك والنبوة يقول تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنطَقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥ - ١٦]، إذ المراد بالميراث هنا هو ميراث الملك والنبوة لا ميراث المال، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

وكما أن اليهود كذبوا على داود ﷺ واختلقوا عليه أشياء كثيرة، فقد أكثروا من الكذب على سليمان ﷺ واتبعوا في ذلك الشياطين، وزعموا أن سليمان ﷺ كان يحكم بواسطة خاتمه السحري وأنه كان ساحراً، وأنه كان إذا دخل بيت الخلاء دفع الخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم، فذهب الشيطان وجلس على كرسي الملك يحكم في بني إسرائيل، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته: هات الخاتم، فقالت: قد خرج سليمان قبلك وأخذه، وأنكرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عند صياد، فكان الصياد يعطيه أجرته عن كل يوم سمكتين، كان يبيع سمكة يشتري بثمانها خبزاً، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوماً، ثم إن بني إسرائيل قاموا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهرب منهم - ولا أدري كيف لم ينفعه الخاتم - وألقى بالخاتم في البحر فابتلعه سمكة، ثم وقعت في شباك الصياد، فلما دفع لسليمان أجرته سمكتين باع واحدة ويطبخ الأخرى وهي التي كان في جوفها الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه، فلبسه ورجع إلى ملكه.

والعجيب أن هذا الإفك تسرب إلى بعض أكابر أهل العلم فصدقوه حتى تجد أكثر كتب التفسير في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص: ٣٤] يقولون شيطاناً، وانتشر على السنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان، وخواصه، مع

أن الله تبارك وتعالى نبّه في سورة البقرة إلى كذب اليهود على سليمان اتباعاً للشياطين في هذا الباب حيث يقول ﷻ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية، مع أن رسول الله ﷺ فسّر فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسیه بأنه: حلف ليطوفن على مئة من نسائه فتحمل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، فأخذ وألقي على كرسیه فاعتذر إلى الله ﷻ فقبل الله معذرتة، وأنه ما طلب الولد تكثراً وافتخاراً وإنما ليقاتلوا في سبيل الله فقبل الله منه وأبدله ﴿الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرِ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والستون

تابع: داود وسليمان

ذكرت في ختام الفصل أن رسول الله ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] بقصة حلفه على أن يطوف على مئة من نسائه لتحبل كل واحدة منهن وتأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحبل إلا واحدة جاءت بشق ولد فأخذ وطرح على كرسيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته». وفي لفظ للبخاري: «فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه»، فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»، فأعجب كيف ترك بعض العلماء هذا التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ لفتنة سليمان وأتوا بأكاذيب اليهود والشياطين.

قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير، واقتصرنا ها هنا على مجرد التلاوة. ١. هـ.

وقد تفضل الله تبارك وتعالى على سليمان فمنحه الكثير من أسباب القوة، وعوّضه ما يزيد في قوته عن مئة ولد مجاهد فسخر له ﴿الرَّيْحَ نَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ (٣٧) وَمَاخَرَيْنِ مُفْرَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَأَمَنْ

أَوْ أَمْسِكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٦﴾ [ص: ٣٦ - ٣٩]. وكما أن الله أعزَّ منزلة سليمان في الدنيا فإنه أعد له في الآخرة درجة عالية وحسن مآب، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَدْعاً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٠﴾ [ص: ٣٤ - ٤٠].

وقد وصف الله تبارك وتعالى الريح التي سخرها لسليمان بما يفيد أنها تخضع لإرادة سليمان ﷺ، فإن أحب أن تكون لينة هادئة صارت كذلك، وإن أحب أن تكون عاصفة شديدة سريعة تقطع في الغداة أي من أول النهار إلى الزوال ما يقطع بالسير المعتاد في شهر، وتقطع في الرواح أي في الزوال إلى الغروب ما يقطع بالسير المعتاد في شهر أي ما يقارب ثمانين وأربع مئة ميل في رحلة الصباح ومثلها في رحلة المساء، وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرًا وَّرَوْاحهاً شَهْرًا﴾ [سبأ: ١٢].

وكما أن الال الحديد لداود فقد أسال عين القطر لسليمان ﷺ، أي أذاب له عين النحاس والحديد، فصار النحاس والحديد يخرج من معدنه كالعين الجارية من الماء دون أن يُشعلَ عليه ناراً؛ تيسيراً له ومدلاً في أسباب قوته، كما سخر له الشياطين وهم مردة الجن فمن دونهم، يعملون بين يديه بأمر ربه خاضعين لا يجرؤ واحد منهم على الهرب من خدمة سليمان، ولو أراد الهرب لعجل الله بعقوبته، يعملون لسليمان ما يشاء من محاريب - أي قصور عالية مُمرَّدة من قوارير - فالمحراب القصر، وإطلاقه على ما يعرف باسم القبلة، وهي في العادة تجاوبف في جدار المسجد من جهة قبلته للتعريف بها إطلاق المحراب على ذلك من الإطلاقات المحدثه التي لا يعرفها العرب، ومن الأخطاء الفاحشه كتابة قوله

تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] على هذه التجاويف فإنها غير مرادة من هذه الآية الكريمة، كما كانت الجن تعمل لسليمان ما يشاء من التماثيل أي زخارف الجدران من صور الأشجار والزهور ونحوها، كما كانوا يصنعون قصاعاً كباراً كأنها الحياض يقدم فيها الطعام، كما كانوا يعملون له قدوراً لطبخ الطعام ثابتة لا تحرك من مكانها لضخامتها، كما كانت الجن تقوم بأعمال الغوص لاستخراج الجواهر، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُغْوِصُونَ لِمَا يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

ويقول في سورة سبأ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنُ رِيَّةٍ وَمِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ يَنْزِعُ مَثْقَلَهُمْ عَنَّا نُرِيهِمْ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

ويقول في سورة (ص): ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧) وَءَاخِرِينَ مُفْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ [ص: ٣٧ - ٤٠].

وكما سخر الله لداود الطير محشورة تُرَوَّبُ وتسبح الله بتسبيحه فكذلك سخر الطير لسليمان يجمعها متى شاء ويعلم لغاتها ولغات الحشرات، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٦ - ١٧] (أي يُجْمَعُونَ عنده ويسيرون بسيره ولا يتقدم أحد على مرتبته ولا يشدون عن إرادته).

وقد قصَّ الله تبارك وتعالى قصة إحدى هذه المسيرات، فذكر أنه مر بجنوده هؤلاء على وادي النمل، فسارعت نملة إلى نصح جماعتها بالدخول في مساكنهم والابتعاد عن مسيرة سليمان وجنوده حتى لا يحطموهم دون علم منهم، فعرف سليمان لغتها وسمع نصحتها لقومها فضحك، وسأل الله تعالى أن يُوزِعَهُ شكر

نعمه التي أنعم بها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سَيِّمُنُ وِجُودُهُمْ وَهُمَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَّ ضَاجِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴿١٩﴾ (أي ألهمني) ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

وفي قصة النملة لفت انتباه الناس إلى آيات الله في الكون، وما في العالم من أُمم، وما لهذه الأمم من المعارف والسلوك، وما يكون في هذه العجماوات من التناصح وحب الخير لبعضها، فإن هذه النملة قد أمرت وحذرت، واعتذرت عن سليمان وجنوده بأنهم لا يتعمدون الإضرار بأحد، ولا شك أن الدارس لأخلاق النمل والنحل وغيرها من العوامل يجد آياتٍ شاهدةٍ بأنه رب كل شيء وسيده ومليكه، وأنه لا ينبغي الاعتداء على شيء من خلق الله بلا حق، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهَلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةً».

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

كان سليمان عليه السلام شديد العناية بجنوده من الجن والإنس والطير، وكان يتفقدهم ولا يغفل التفيتش عليهم ليطمئن على انضباطهم، وفي أثناء التفيتش تفقد الطير ولم يجد الهدهد فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ شيء يستره عني أم هو غير حاضر؟ فلما تأكد أنه غير موجود قال: لأعذبه عذاباً شديداً دون قتله أو لأقتله إلا إذا جاء بعذر مقبول يدفع العقوبة عنه، ولم تَطُلْ غيبته الهدهد حتى حضر إلى سليمان عليه السلام وبادره بقوله: علمتُ ما لم تعلم وجئتك من أرض اليمن من مملكة سبأ بخبر عظيم قاطع لا شك فيه ولا ريب، إني رأيت امرأة تتولى مملكتهم، وقد أعطيت جميع أسباب ما يرغب في اقتنائه الملوك المقتدرون من الرغد والسعة والأبهة، ولها عرش فاخر، وجدتها مع قومها سبأ أبناء يشجب بن يعرب يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، وقد زخرف الشيطان لهم طريق الشرك، فصدتهم عن الحق وحال بينهم وبين إخلاص العبادة لله وحده الذي لا يجوز لأحد أن يعبد شيئاً سواه، فهم بالرغم من انفتاح الدنيا عليهم وتقلبهم في نعماء الله لا يهتدون إلى توحيد الله، يا حسرة عليهم لماذا لا يسجدون لله وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء فيها، ولو كانت الخبيثة مثقال ذرة في السموات أو في الأرض يأتي بها الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

وفي تهجين الهدهد لما تفعله ملكة سبأ هي وقومها من عبادة غير الله لفت انتباه الناس إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الخلق وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الهدهد في هذا السبيل أعقل من كثير من الناس وأهدى. ولم يسارع سليمان عليه السلام إلى تصديق الهدهد أو تكذيبه، بل توقف في قبول خبره حتى يقف على حقيقة هذا الأمر، وكتب كتاباً فيه: ﴿مِنْ سُلَيْمَانَ﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأمر الهدهد أن يكون هو الحامل لهذه الرسالة إليهم، فذهب الهدهد وألقى الرسالة على الملكة، ووقف يراقب: ماذا يكون من جوابهم على هذه الرسالة؟ وماذا استحدث من أثر فيهم، وكان ذلك بإرشاد سليمان ﷺ، فلما قرأت الملكة الكتاب جمعت أمراءها ووزراءها وكبار مستشاريها و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٠].

وقالت ملكة سبأ أيضاً: يا أيها الملأ اشيروا عليّ بما ترونه في هذا الأمر، فإني لا أقطع برأي ولا أستبد في أمر دون مشورتكم وأخذ رأيكم، فأجابوها بأنهم جميعاً يدّ واحدة أقوياء أشداء في الحروب، ورأيك مطاع وأمرك نافذ، فانظري أيّ رأي ترغيبين فيه فنحن نسارع إلى طاعتك، ولا نعصي لك أمراً، فأخبرتهم أنها تميل إلى مصانعة سليمان، والتلطف معه ومحاولة اكتساب رضاه؛ لأن الملوك الأقوياء إذا تمكنوا من بلد واستولوا عليها بالحرب حصل على أهلها ذلّة وصغار وتخريب ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، وانتظر الجواب منهم مع رسلي الذين أرسلتهم بالهدية، فلما وصل رسول ملكة سبأ بالهدية وعرضها على سليمان ﷺ وكانت أموالاً جزيلة، فردها سليمان ﷺ ولم يقبلها و﴿قَالَ أَمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] فما أنعم الله عليّ به من النبوة والمُلْك خير من جميع ما بأيديكم من زخارف الحياة الدنيا، إنما يفرح بما يقدم إليه من مثل هديتكم من كان من أهل المفاخرة والمكاثرة بزخارف الحياة الدنيا، وقد أعطاني الله ﷻ ما لم يعطه لأحد من ملوك الدنيا المعاصرين لي وغيرهم، ثم أمر رسول ملكة سبأ بالرجوع بهديتها، وأعلمه أنه سيغزو بلادهم بجنود لا طاقة لأهل سبأ بها، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم ينقادوا لأمر الله ويأتوني مسلمين قبل توجهي بجنودي نحو بلادهم، وأراد سليمان ﷺ أن يضرب لها مثلاً محسوساً على قدرته بإذن الله عليها، فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَيْتُم بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، فأجابه عفريت من الجن قائلاً: أنا أتيك به قبل أن ينفض مجلسك هذا وإني عليه لقادر فلا يعجزني حملي، وأمينٌ فلن أضيع شيئاً مما فيه من الجواهر، والعفريت هو القوي النافذ في

الأمر المبالغ فيه مع دهاء. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ والظاهر أنه جبريل عليه السلام؛ لأنه رسول الله بالكتاب إلى الأنبياء وهو يقرؤه عليهم قال: ﴿أَنَا إِلَيْكَ بِهٖ﴾ في وقت أسرع، وهو أن أحضر لك عرش الملكة قبل طرفة عين، وفي الحال رأى سليمان عليه السلام العرش مستقراً أمامه، فأقبل سليمان على شكر الله تعالى والثناء عليه و﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وأراد سليمان عليه السلام أن ينبه العباد إلى أنه يجب عليهم شكر الله عند تجدد النعم، وأنه لا يجوز لأحد أمده الله بأسباب القوة أن يخطر على باله بأن يثبت لنفسه حولاً أو قوة، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. وهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي يا جاري. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ولما علم سليمان أن ملكة سبأ توجهت إليه أمر بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على العرش ليختبر ذكاءها وفطنتها، فلما جاءت ورأت العرش قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢] ولم يقل: أهذا عرشك؟ لأنه لو قيل: أهذا عرشك فقالت: نعم؛ لم يكن نصاً في نجاحها في الاختبار، فلما قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أي أهو شبيه بهذا العرش، فأجابت إجابة الفطن الواعي ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] فلم تثبت ولم تنف، ولكنها أكدت شدة الشبه بعرشها.

وفرح سليمان والمؤمنون بذلك وشكروا الله على أنهم أسبق منها بالعلم والإسلام، وكان قد صدها عن معرفة الله تعالى ما كان عليه قومها من عبادة غير الله، إنها كانت من قوم كافرين، فأمرها سليمان عليه السلام بدخول الصرح، وكان قصراً مملساً بالزجاج، وأرضه مملسةً به حتى يحسبه من لا يعرفه ماءً كثيراً يحتاج إلى رفع الثياب عن الساق حتى لا تبتل الثياب، ولذلك رفعت الملكة ثيابها وكشفت عن ساقها، فأخبرها أنه ليس ماء وأنه ﴿صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فأيقنت أن ملكها الذي أوتيت فيه من كل شيء ضئيل بالنسبة إلى ما أعطاه الله لسليمان، وأعلنت إسلامها وانقيادها إلى أمر الله وطاعة سليمان عليه السلام، وأقرت بأنها ظلمت نفسها عندما سجدت للشمس وعبدت غير الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل السادس والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

ساق الله تبارك وتعالى قصة تفقد سليمان الطير وما كان من الهدهد، وقصة ملكة سبأ، ورسالة سليمان عليه السلام إليها بواسطة الهدهد، وما كان بينها وبين قومها من حوار في الجواب، وما كان في شأن عرشها، ومجيئها إلى سليمان، وقصة الصرح الممرد بالقوارير، ودخولها في الإسلام حيث يقول عجل في سورة النمل:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُقِينِ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبُّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُكَ بِكَبِيرٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحْتُمْ وَنَحْنُ بِالْهَدِيَّةِ أَهْلَاءٌ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرِيْتُ مَنْ لَجِنَا أَنَا وَإِنَّكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ

مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعَلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٢٠ - ٤٤].

كما ذكر الله تبارك وتعالى صورة أخرى من صورة اهتمام سليمان بآلات الحرب، فذكر حرصه على تفقد الخيل لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَأَشَارَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَنَّهُ قَدْ عُرِضَ عَلَى سُلَيْمَانَ فِي وَقْتِ الْعَيْشِيِّ وَهُوَ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ الْخَيْلُ الصَّافِنَاتُ، وَهِيَ الَّتِي إِذَا كَانَتْ وَاقِفَةً قَامَتْ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ مِنْهَا، ثُمَّ جَعَلَتْ الرَّابِعَةَ مِنْ قَوَائِمِهَا - أَيِ يَدَيْهَا وَرَجْلَيْهَا - عَلَى طَرَفِ الْحَافِرِ اسْتِعْدَادًا لِلْجَرِيِّ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْخَيْلُ كُلُّهَا مَخْتَارَةً مِنَ الْجِيَادِ السَّرِيعِ السَّوَابِقِ، فَأَخَذَ سَاسَتَهَا فِي عَرْضِهَا عَلَى سُلَيْمَانَ، وَبَدَأَتْ مَسِيرَةَ أَوْلَئِهَا مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى غَابَ آخِرُهَا عَنْهُ إِذَا بِسَبَبِ انْتِهَاءِ الْبَصَرِ أَوْ بِسَبَبِ حَاجِزٍ آخَرَ مِنْ جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَقَالَ لِسَاسَتِهَا وَالْمَسْئُولِينَ عَنْ رِعَايَتِهَا وَمَلَا حِظَّتِهَا: رَدَّوْهَا عَلَيَّ، فَرَدَّوْهَا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ قَدْ أَصَابَهَا الْغُبَارُ وَظَهَرَ فِي سَوْقِهَا وَأَعْنَاقِهَا؛ لِأَنَّهَا يَكْثُرُ فِيهَا الْعِرْقُ فَيَلْصِقُ بِهِ الْغُبَارُ، فَأَخَذَ سُلَيْمَانَ ﷺ مِنْ شِدَّةِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَحِرْصِهِ عَلَيْهَا وَلِتَنْبِيهِ النَّاسَ إِلَى فَضْلِهَا؛ «لِأَنَّهَا مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرِ»، أَخَذَ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ سَوْقِهَا وَأَعْنَاقِهَا لِيُبْعِدَ الْغُبَارَ عَنْهَا، وَكَانَ قَدْ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ عِنْدَ عَرْضِ الْخَيْلِ عَلَيْهِ: إِنِّي أَحْبَبْتُ الْخَيْرَ حُبًّا شَدِيدًا عَنْ ذِكْرِ رَبِّي، أَيِ أَحْبَبْتُ الْخَيْلَ حُبًّا عَظِيمًا بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى لِي عَلَيْهَا وَمَدَحَهَا لِي وَنَبَهَنِي إِلَى فَضْلِهَا، وَالْخَيْلُ يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ الْخَيْرِ، لِكَثْرَةِ خَيْرِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْطُرَ عَلَى بَالِ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَهُ: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] أَنَّهُ

أحب الخيل، على صلاة العصر وكان قد ضيَّع صلاة العصر بسبب عرضه للخيل، فهذا كذب مفترى على سليمان عليه السلام، وأنت قد تقول: أنا أحببت أبا بكر عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعني أنك أحببت أبا بكر رضي الله عنه بسبب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وعن طريق ذكره وثناؤه عليه رضي الله عنه فلا يخطر ببال مسلم أنك تريد أنك تحب أبا بكر أكثر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هذا المعنى لا يخطر ببال مسلم.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة عرض الخيل على سليمان في سورة (ص) حيث يقول: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ [ص: ٣١ - ٣٣] أما إرجاع الضمير في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ إلى الشمس أو أنه طلب من الملائكة إرجاع الشمس حتى يصلي العصر مع أنه لا ذكر للشمس ألبتة في هذا السياق الكريم، فهو من دسائس اليهود، وقولٌ على الله بلا علم.

هذا وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن التسلط على الجن قد اختص الله تعالى به نبيه سليمان عليه السلام إجابة لدعوته حيث قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ [ص: ٣٥ - ٣٧] فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرددته خاسئاً».

وقد استمر سليمان بن داود عليه السلام في تسخير الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، وأراد الله تعالى أن يبطل دعوى بعض الناس أن الجن يعلمون الغيب، وأنهم قادرون على التسلط على الناس، حتى كان بعض أهل الجاهلية إذا نزلوا وادياً استعاذوا بشيوخ الجن من سفهائهم، يقولون نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، كما قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] أراد الله تعالى أن يضرب مثلاً على أن الجن لا يعلمون

الغيب، فقبض سليمان بن داود عليه السلام وهو قائم يراقب أعمال الجن بين يديه، وقد اتكأ على منسأته أي عصاه، وقد مات وهو قائم ممسك بعصاه، والجن في أشغاله الشاقة بين يديه لا يعلمون أنه مات، حتى أراد الله إظهار موته فسلط دابة الأرض وهي الأرضة فأكلت العصا من أسفلها، فلما سقط على الأرض أيقن الإنس والجن أنه مات، وعلمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق، وفي ذلك يقول الله وَجَلَّ جَلَلُهُ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] سلام على سليمان في المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والستون

زكريا ويحيى

نتحدث إليكم عن رسولين كريمين من رسل الله المسارعين في الخيرات الداعين إلى الله رغباً ورهباً، الخاشعين لله وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، وقد أورد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ذكر زكريا ويحيى بعد سنين قليلة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث صدر بهما سورة مريم، وقد نزلت قبل هجرة جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى الحبشة، كما أورد الله تبارك وتعالى ذكر زكريا ويحيى في سورة الأنبياء. وهي مكية أيضاً، كما ذكرهما في سورة الأنعام في جملة المرسلين، وسورة الأنعام من السور المكية كذلك، كما ذكرهما الله تعالى في سورة آل عمران وهي مدنية، وقد دار ذكرهما في سورة مريم والأنبياء وآل عمران لإظهار قدرة الله تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن نواميس الكون تجري بإرادته لا بطبائعها، إذ هو ربُّ كل شيء وسيده ومليكه والمهيمن على شؤون عباده، يؤيد أوليائه، ويستجيب دعاءهم، وينصرهم على أعدائهم ويجعل العاقبة الحسنی لهم؛ ليثبت بذلك فؤاد رسول الله ومن معه من المؤمنين، إذ إنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى من غير أب، وأعطى إبراهيم ولداً وهو شيخ كبير من زوجته العجوز التي تجاوزت سنَّ اليأس ولا تحمل امرأة مثلها في العادة، كما أنه منح عبده الصالح زكريا ولده يحيى وكان زكريا قد بلغ من الكبر عتياً، أي قطع في الشيخوخة شوطاً كبيراً، وقد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً، وهو مظهر من مظاهر تحول الإنسان من القوة إلى الضعف على حد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] وعلى حد قول ابن دريد في مقصورته:

أما ترى رأسي حاكي لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجا

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا

ومع أن زكريا قد صار إلى هذا الحال من الكبر فإن زوجته كانت عاقراً في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها وقد صارت عجوزاً تجمع بين السبين المنافين للحمل عادة، والظاهر من سياق القرآن العظيم يشعر أن زكريا عليه السلام كان مشتغلاً بالقلب بذكر صلاح بني إسرائيل، وأنه كان يرى تعنتهم كشأنهم مع الأنبياء والمرسلين، وأنه كان يخشى أن يشتد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد وفاته، وقد وهن عظمه، وبلغ من الكبر عتياً، ولم ير في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعده، ونظراً إلى أن زوجته كانت عاقراً فمن غير المعتاد أن تلد مثلها، فاهتم بذلك اهتماماً شديداً، وقد كانت زوجته أخت مريم ابنة عمران والدة عيسى ابن مريم أو كانت خالتها، وقد مات والد مريم، وتخاصم بنو إسرائيل فيمن يكفلها بعد أبيها، واقتروا على ذلك فوعدت لزكريا عليه السلام. فكفلها زكريا، ووضعها في قصره، وقد لاحظ عليه السلام أنه كلما دخل على مريم في مكانها من قصره ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وسرعان ما تداعت معاني هذه الحقيقة في نفسه مع ما يتمناه من أن يُمّن الله عليه بولد صالح يسوس بني إسرائيل، وإن كانت أسباب ولادة ولد له من زوجته الصالحة هذه مفقودة، فهو شيخ كبير وامرأته عاقرة، غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولداً مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقال في دعائه: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، وقال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، وقد عودتني أن تجيب دعائي ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفت وأشفقت على بني إسرائيل أن يفسدهم من يتولى أمرهم من بعدي، وكانت امرأتي في شبابها عاقراً وأنت على كل شيء قدير، فهب لي من عندك وامنحني ولداً يرث النبوة والحكم من بعدي، كما يرث ذلك من آل يعقوب، واجعله رب رضيعاً، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سمياً، يكون مصدقاً بكلمة من الله

وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، قال: كيف يجيئني الولد وأنا وزجتي بهذا الحال، قال كذلك الله يخلق ما يشاء، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئاً، قد جئت إلى بطن أمك نطفة لا أثر فيها لصورة الإنسان.

فسأل الله ﷻ آية يعرف بها أن الولد قريب الحصول، قال: آيتك أن تعجز عن النطق لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سوي، فخرج على قومه من المحراب؛ فأشار إليهم أن سبحوا الله بكرة وعشيماً، ومنحه الله يحيى، وسرعان ما شب يحيى ﷻ وأعطاه الله الحكم صبياً، وتفضل الله عليه بمنح كثيرة، ومنحه السلام عند ولادته وعند موته وعند بعثه، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة مريم:

﴿كَهَيْصَ ١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ٢ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ ﴿٥﴾ يَرْتِي وَيَرِيثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴿٦﴾ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ١٠ ﴿١٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ١١ ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١٢ ﴿١٢﴾ يٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٣ ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٤ ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٥ ﴿١٥﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ﴿١٥ - ١﴾.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَنَقَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿آل عمران: ٣٧ - ٤٠﴾.

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن زكريا كان يحترف النجارة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كان زكريا نجاراً. وقد وصف رسول الله ﷺ يحيى وعيسى بأنهما ابنا خالة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسْرِيَ به قال: ثم صعدَ حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل، من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت، فرداً السلام، ثم قالاً: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

هذا، وما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على المباشرة أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَحصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] فهو قول لا دليل عليه، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معانٍ كثيرة، إذ يستعمل في الذي لا يقوى على قربان النساء وعلى الضيق الصدر، وعلى الذي يصون نفسه من الخطايا والذنس، وهذا الأخير هو اللائق يحيى عليه السلام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والستون

المسيح ابن مريم عليه السلام

نتحدث إليكم عن عبد الله ونبيه ورسوله، وأحد أولي العزم من المرسلين، المسيح عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، العبد المنعم عليه، المجموع مثلاً لبني إسرائيل، المخلوق من غير أب، الآية ابن الآية عليه الصلاة والسلام، ولما كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح ضلالاً كبيراً، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأن أمه زانية، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً، كما أن النصارى أفرطوا فيه فجعلوه ابناً لله، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وجاءوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً؛ لذلك بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة أمه مريم العذراء البتول، الطيبة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، فذكر ما كان من أمها عندما حملت بها، وأنها نذرت لله ما في بطنها محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة وخدمة بيت المقدس، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35]، فلما ولدت، ورأت أن مولودها أنثى توجعت لفوات مقصودها، حيث إن الأنثى لم تجر العادة عندهم أن تنفرغ لخدمة بيت المقدس، فأظهرت ضراعتها لله، وقالت: رب إنني وضعتها أنثى والأنثى ليست كالذكر في خدمة بيت المقدس مع يقينها أن الله تعالى لا تخفي عليه خافية، وأنه يعلم ما وضعت، وقد سميتها مريم، وطلبت من الله أن يعصمها ويحرسها ويحفظها ويصونها هي وذريتها من الشيطان الرجيم، وقد تقبل الله تبارك وتعالى من أم مريم بقبول حسن كريم وأبنت مريم نباتاً حسناً كريماً.

وقد كان عمران والد مريم الذي سميت سورة من القرآن العظيم باسم آله،

وهي سورة آل عمران، وليس له من آل سوى مريم وابنها المسيح ﷺ قد كان عمران هذا موصوفاً بالتقوى في بني إسرائيل، ومحبوفاً لدى كبرائهم، كما كانت زوجته أم مريم كذلك، وقد أشاد الله تعالى بذكرهم في الصالحين حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤] ونظراً لموت عمران هذا وحاجة مريم إلى من يقوم بكفالتها بعد أبيها، وقد ألقى الله محبتها في قلب كل من رآها، فرغب كل واحد من كبراء بني إسرائيل في القيام بكفالتها، وتنازعا في ذلك حتى اقترعوا أيهم يكفل مريم، وكفّلها الله تبارك وتعالى نبي بني إسرائيل وقتئذ وهو زكريا ﷺ، وكان زوجاً لأختها أو خالتها؛ فخرج السهم في الاقتراع له، فأمسكها في قصره. وجعلها تحت عنايته ورعايته، وقد لاحظ زكريا ﷺ أنه كلما دخل عليها القصر وجد عندها ألواناً من الرزق، لم يجلبها له، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلاً: يا مريم أنى لك هذا؟ أي من أين جاءك هذا الرزق؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولما اكتملت أنوثة مريم في طهارة وعفاف، وعبادة واستقامة، خاطبتها الملائكة لتثيبتها على أعلى درجات السلوك، وقالت لها: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ اقْنُصِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣] أي أديمي الخشوع له، واثبتي على طاعته، واسجدي واركعي له لتندرجي في سلك عباده الصالحين القانتين الراكعين الساجدين، وقد ذكرت في الفصل الرابع والأربعين من هذا الكتاب أنه لا يلزم من مجيء الملك لعبد من عباد الله الصالحين أن يكون نبياً أو رسولاً، عند الكلام على معنى الوحي في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي إِلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وضربت لذلك مثلاً بما ورد في الحديث المتفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في قصة الأعمى والأقرع والأبرص ومجيء الملك إلى كل واحد منهم، كما سُقَّت الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الرجل الذي زار أخاً له في الله فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً... إلخ الحديث.

وبيّنت أن من هذا النوع مخاطبة الملائكة لمريم أم المسيح ﷺ، وفي قصة ميلاد مريم ونشأتها يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيمُ أَفْنَىٰ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وإبناها». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وإبناها».

وقد وصف الله تبارك وتعالى مريم بنت عمران بأنها صديقة حيث يقول ﷻ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وفي قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ إشارة إلى بشريتهما وأنهما ليسا إلهين؛ فالذي يأكل الطعام من شأنه أن يبول

ويتعوط، ومن كانت هذه حاله لا يليق بعقل أن يجعله إلهاً، وقد جمع الله تبارك وتعالى في هذه الجملة الكريمة أشرف ما لعيسى وأمه من نعوت الكمال البشري. إذ أثبت لعيسى الرسالة ولأمه الصديقية، ثم ذكر الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر من أنهما يأكلان الطعام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والستون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أكد الله تبارك وتعالى اصطفاء مريم حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومعنى قوله: ﴿اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك واجتباك وفضلك. وهذا يحتمل أن تكون أفضل نساء زمانها، كقوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وكما قال عجل في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، ويحتمل أن تكون أفضل نساء العالمين قاطبة، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير نساؤها مريم بنت عمران، وخير نساؤها خديجة بنت خويلد»، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون».

كما روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نساء قريش خير نساء ركب الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده»، يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بغيراً قط. وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء، ومريم لم تركب الإبل قط، فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضيل مريم على خديجة رضي الله عنها بقرينة تقديم مريم عليها في

الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً كما هو مقرر في أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يحصر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية رضي الله عنها، والعلم عند الله وعز وجل.

وكما بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة مريم وتنشئتها كما ذكرت في الفصل السابق فقد بسط الله تبارك وتعالى قصة حمل مريم بالمسيح عليه السلام في غير موضع من كتابه الكريم، فذكر بشارة الملائكة لمريم بالمسيح عليه السلام، وأنه كلمة من الله، أي تحبل به من غير أب، بل بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون؛ ليكون آية على أن الله لا يعجزه شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وقد يقترن أمر الله الكوني بسبب من الأسباب كحمل جميع النساء المعتاد. وقد لا يقترن بالسبب كخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وكخلق حواء من ضلع آدم بلا أم؛ ولذلك قال في عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقُوهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وذكرت الملائكة لمريم في بشارتها بالولد أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فينسب إلى أمه؛ لأنه لا أب له، وأنه روح من الله، أي من الأرواح التي ابتداءً الله تعالى خلقها كما يشاء، وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهدي وكهلاً ومن الصالحين، أي يكون المسيح عليه السلام له مكانة ووجاهة عند الله، وعند الناس في الدنيا والآخرة، ويكون من الذين أخلصهم الله تعالى لعبادته وحده لا شريك له، وقربه وأعلى منزلته، ويتكلم وهو في المهدي، أي في فراش ولادته، فيقر بطهارة أمه وعفافها وأنه عبد الله، وأن الله قدر إتياءه الإنجيل، وقدر نبوته وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في دار التكليف، وأنه يكون باراً بوالدته ولن يكون جباراً شقيماً، وأن السلام عليه يوم ولادته ويوم موته ويوم يبعث حياً، كما أنه يدعو بني إسرائيل إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده في وقت كهولته، وربيعان شبابه، واكتمال قوته.

وكما وصف الله تبارك وتعالى مجيء جبريل إلى مريم بالبشارة بهذا الولد

وأنها كانت وقتها قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى أو شرقي منزل أهلها لقضاء حاجة من حوائجها الخاصة بها التي لا تحب أن يراها عليها أحد من خلق الله، فجاءها الروح الأمين جبريل عليه السلام في صورة رجل صبيح جميل مكتمل، فلما رآته مقبلاً عليها وهي على هذه الحالة قالت له: إني أعوذ بالله وأستجير به وألتجئ إليه من أن ينالني منك أذى، إذا كان عندك خوف من الله فاطر السموات والأرض المنعم المتفضل على عباده فلا تقترب مني، ولا يحفظني ويعصمني منك إلا أرحم الراحمين، فأخبرها جبريل أنه رسول ربك وسيدك ومالكك مصلح ما في السموات وما في الأرض فلا تخافي مني، ولست بشراً، وإنما أنا ملك بعثني الله إليك لأنفخ فيك لتلدي غلاماً زكياً، قالت: كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد وأنا لست متزوجة ولا منحرفة، فأجابها جبريل عليه السلام عن تعجبها من وجود ولد منها وهي على هذه الحالة فقال لها: كذلك قال ربك. أي قدر أنه سيكون منك غلام ولست بذات بعل ولا منحرفة، وأن هذا هين على الله وسهل عليه ويسير لديه، فهو على كل شيء قدير، وليكون ولدك آية للناس ودليلاً جلياً وبرهاناً قاطعاً على كمال قدرة الله على كل شيء، وأنه آية من آيات الله على إقامة الخلائق وبعثهم يوم القيامة، وهو علم للساعة، كما أنه رحمة من الله يرحم بها العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره وطفوليته وكهوليته، وبدلهم على مراسيم سعادتهم في الدنيا والآخرة والعاجلة والآجلة، حتى ينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك والند والصد والنظير. وكان أمر الله مقضياً، وحتماً كائناً لا محالة.

فنفخ جبريل نفخة دخلت في فرجها، فحملت بالمسيح عليه السلام، غير أنها لما حملت بدأت تضيق ذرعاً لعلمها أن الناس سيتهمونها بالانحراف، ويقعون في عرضها، ولا يصدقونها فيما تخبرهم به من واقع الحال، ولما جاء وقت ولادتها أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، أي ألجأها واضطرها الطلق ووجع الولادة إلى أن تجيء إلى جذع النخلة؛ لتستتر به ولتحتضنه لتقوى على الوضع، وقالت وهي في كربها: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، وليس هذا جزعاً من

قضاء الله، ولكنها كربة النفاس مع كربة ما تعرفه من سفاهة المكذبين بآيات الله، وماذا سيقولون عنها، والوقوع في الأعراض الكريمة أشد عليها من الموت، وقد قرئ: نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وقرئ نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وهما بمعنى واحد كالوَتْرٍ وَالْوَتْرِ، والنَسِيُّ المنسي هو ما يُرْمَى به من خرق الحيز وقطع الحبل ونحوهما مما يُتْرَك ولا يلتفت إليه لحقارته، وعندما وضعت مريم المسيح ﷺ ناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السبعون

تابع: المسيح ابن مريم

ذكرت في ختام الفصل السابق أن مريم عندما وضعت المسيح عليه السلام ناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وقد قرئ في السبعة بفتح الميم من (من) وكسرهما أي قرئ فناداها من ﴿تَحْنِئاً أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيّاً﴾ وقرئ: فناداها من ﴿تَحْنِئاً أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيّاً﴾ وهزى إليك ﴿بِحِذِّعِ النَّخْلَةِ سُلْقَطَ عَلَيْكَ رُطْباً جَنِيّاً﴾ ﴿٢٥﴾ فكلّي وأشربني وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً [مريم: ٢٤ - ٢٦]، والذي نادى مريم هو جبريل عليه السلام وكان في مكان أسفل منها، وقيل هو عيسى عليه السلام والأول أظهر، والسري هو النهر، قال في المصباح: السري: الجدول وهو النهر الصغير، وقال في الصحاح في السري: نهر صغير كالجدول، وقال في القاموس المحيط: وكعني، نهر صغير يجري إلى النخل، قيل: وسمي النهر سرياً لأن الماء يسري فيه. وقيل: المراد بالسري هنا هو السيد الشريف، والمراد به عيسى عليه السلام، قال ابن كثير رحمته الله: والصحيح الأول لقوله: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً. فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ١. هـ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سُلْقَطَ عَلَيْكَ رُطْباً جَنِيّاً﴾ [مريم: ٢٥] دليل على أنه ينبغي للإنسان الصالح أن يأخذ بالأسباب مع توكله على الله ولا يتواكل، وقد أمرت مريم بهز جذع النخلة مع ما هي فيه من حالة النفاس والولادة؛ لما يجلبه لها ذلك من نسيان أحزانها وآلامها التي تتوقعها من ملاقات قومها؛ علماً بأن الله كان يسوق لها الرزق في أول حياتها من غير سبب، كما أن قدرتها على هز الجذع محدودة، فعليها أن تهز الجذع وعلى الله إسقاط الرطب.

فأقر بالعبودية لله وحده ونزّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله. بل هو عبده ورسوله وابن أمته البتول الطيبة الطاهرة، وبراً أمه مما نسبها إليه الحاقدون والجاهلون وقذفوها به، إذ كان نُظفَهُ وجوابه تبرئة لها من كل بهتان.

وفي قصة حمل مريم بالمسيح ﷺ وولادته يقول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْأُمْتَكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٩].

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّفْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِئِجِئِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَنَادَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِئِجِئِ النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِيمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَذُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ [مريم: ١٦ - ٣٣].

ويقول تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ويقول تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَرَحْمَةً مِنْ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى أن الملائكة عندما بشرت مريم بولد ذكرت لها أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وبهذا الاسم يتميز مسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عبراني ومعناه المبارك، وقيل: إنما سُمي مسيحاً لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين أي لا أخصص لهما، وقيل: لأن الله مسحه أي خلقه خلقاً مباركاً حسناً، وقيل: هو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيها للدعوة، قال في القاموس المحيط في مادة ساح: والسياحة بالكسر والسُّيُوح والسيحان والسَّيْحُ الذهاب في الأرض للعبادة، ومنه المسيح ابن مريم، وقد ذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لصحيح البخاري وغيره. ١.٥هـ.

وقال في مادة مَسَحَ: والمسيح عيسى ﷺ لبركته، وذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لمشارك الأنوار وغيره. ١.٥هـ. وقال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن سيده: والمسيح عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليهما، قيل: سُمِّيَ بذلك لصدقه وقيل: سُمي به؛ لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر. ١.٥هـ. وقيل: سمي المسيح مسيحاً؛ لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، كما سمي الدجال مسيحاً؛ لأنه كان ممسوح العين.

وسيقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الدجال كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الزمان، أما عيسى ﷺ فقيل: هو اسم غير مشتق، وهو اسم عبراني أو سرياني، وقد حُرِّفَ المحرفون وقلوبه وقالوا: يسوع، وقيل: هو مشتق من العيس وهو بياض تعلوه حمرة، وتسمى الإبل البيض التي يخالط بياضها شقرة عيساً.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه هياً لعيسى ﷺ وأمه ربوة ذات قرار ومعين فنزلاها وسكننا فيها، والربوة المكان المرتفع، ومعنى كونها ذات قرار أي مستويةً يستقر عليها ساكنوها، والمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، ولم يرد في خبر صحيح تحديد مكان هذه الربوة، وبعض الناس يقول: إنها بيت المقدس، وبعضهم يقول: إنها غوطة دمشق وما حولها، وبعضهم يقول: إنها فلسطين، وبعضهم يقول: إنها أرض الفيوم في مصر، والعلم في ذلك عند الله ﷻ، والمقصود أن الله تبارك وتعالى يسر لهما الإقامة الآمنة والمنزل الصالح، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى ﷺ تعلم الكتابة ومنحه الله ﷻ الحكمة والفقه في التوراة، وعندما بلغ أشده بعثه الله ﷻ إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، فيه هدى ونور وموعظة للمتقين، وبشارة بسيد المرسلين، وقد أمره الله ﷻ أن يطلب من بني إسرائيل أن يحكموا بالإنجيل، وقد أيد الله تبارك وتعالى عيسى بالمعجزات الحسيّة الباهرة، والآيات الظاهرة القاهرة، الشاهدة بأنه رسول من رب العالمين، فجاء عيسى ﷺ إلى بني إسرائيل وأخبرهم أنه رسول الله وأنه عبده، وقد آتاه الإنجيل، وأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأعلمهم أنه قد جاءهم بآيات من ربهم تتمثل في خمس آيات حسيّة وهي:

أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، أي يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير بإذن الله وهم ينظرون إليه ويشاهدونه بأعينهم، وقد أذن ﷻ لعيسى ﷺ في تصوير صورة الطير من الطين والنفخ فيه ليطير بإذن الله لتكون هذه المعجزة آية ظاهرة على أنه رسول من رب العالمين.

أما الآية الثانية: فهي أنه يُرى الأكمه بإذن الله؛ والأكمه هو من ولد ممسوح العينين لا حدقة لعينه، وإبرأؤه ليبصر لا طاقة لأحد من الأطباء قديماً وحديثاً عليه، فهي من أظهر المعجزات الحسية التي لا قدرة للبشر عليها.

والآية الثالثة: هي إبراء وشفاء الأبرص بإذن الله، والبرص داء معروف، وهو بياض يعتري جلد الإنسان يعجز نُطْسُ الأطباء عن علاجه قديماً وحديثاً.

والآية الرابعة: هي إحياء الموتى بإذن الله، وهذه الآيات الأربع لا قدرة لأحد من البشر عليها في قديم الزمان وحديثه، وقد أشرت في الفصل الواحد والخمسين من هذا الكتاب عند الحديث عن معجزات موسى ﷺ بأنه قد جرت السُّنَّةُ الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، وليعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر، ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكما أرسل عيسى ﷺ بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه. وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّن الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بِيَدِي مِّن التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥١]، قال رَحِمَهُ اللهُ: قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى ﷺ السحرُّ وتعظيمُ السحرة، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى ﷺ فُبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد... إلخ.

أما الآية الخامسة من الآيات الحسيّة التي أيد الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى ﷺ فهي أنه يخبرهم بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم، أي يقول لأحدهم: أنت أكلت اليوم كذا، وتدخر في بيتك لعدك كذا، مما يقطعون بأنه لا علم لغيرهم به، وقد أخبرهم عيسى ﷺ بأن هذه آية من الله ينتفع بها من يشرح الله صدره للإيمان، وأن عيسى ﷺ يؤمن بما سبقه من الكتب السماوية، ويصدق ما في التوراة، وأن شرعه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم في شريعة موسى ﷺ، وأنه يشرح لهم الوجه الصحيح فيما يختلفون فيه من المسائل ويبين لهم الحق، والصواب فيما اختلفوا فيه، وأنه مؤيد من الله، ثم جرّد لهم ما يدعوهم إليه وهو إخلاص العبادة لله وحده وامتنال ما يشرعه الله لهم على لسانه ﷺ، وطالبهم بتقوى الله فقال لهم: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبِّي﴾ [آل عمران: ٥٠ - ٥١].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى بعث عيسى ﷺ إلى بني إسرائيل وآتاه الإنجيل وأيده بخمس معجزات حسية ظاهرة قاهرة، وأن عيسى ﷺ طلب من بني إسرائيل أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويتقوه ويطيعوا عيسى ﷺ، وأخبرهم أنه مصدق بما بين يديه من التوراة، وأنه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وأنه يبين وجه الصواب فيما يختلفون فيه، وقد أرشدهم إلى أن هذا هو الصراط المستقيم، فمن سلكه فاز في الدنيا والآخرة، ومن كذب به خسر الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة آل عمران عن عيسى ﷺ، بعدما ذكر أنه يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل قال:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بِيَدَ رَبِّكَ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٩ - ٥١].

ويقول ﷻ في سورة المائدة: ﴿إِذ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِبِي أِبْنَ مَرْيَمَ أُذْكَرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقُ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ خَلَقُ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ صريح في أن الله

تعالى أذن لعيسى عليه السلام في تصوير صورة الطيور من الطين، كما أن نفخه فيها لتحلها الحياة وتطير إنما كان بإذن الله كذلك، تأييداً لعيسى وتصديقاً له عليه السلام، والله يفعل ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وفي ذلك كله إشارة إلى أن عيسى عبد من عبيد الله، يأتُم بأمر الله ويتهي بنهيه، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل، وقد أُنذر عيسى عليه السلام قومه من الشرك بالله وخوفهم من عقوبته، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ عَبْدُ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عليه السلام إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

كما أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل في غير موضع من كتابه الكريم، حيث ذكر أنه قفى بعيسى عليه السلام على آثار الأنبياء أي أتبعهم بعيسى عليه السلام، وجعله تابعاً لهم أي متأخراً عنهم في الزمان، حيث يقول عز وجل في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُتَمَّزَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [٢٦] ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٥ - ٢٧].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٦] ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أنه أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بينه وبين محمد رسول الله ﷺ نبي، فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي»، كما روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»، كما روى مسلم في صحيحه من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة رضي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي». وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي»، ومعنى قوله في الحديث: «أولاد علات» أو «إخوة من علات»، هم الإخوة لأب من أمهات شتى، أما الإخوة الأشقاء أي من الأبوين، فيقال لهم أولاد الأعيان أو الإخوة الأعيان، ومعنى أن الأنبياء أولاد علات أو إخوة من علات وأمهاتهم شتى أن دين جميع الأنبياء أصوله واحدة في التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت وسائر الوصايا العشر الواردة في قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقد أشار رسول الله ﷺ بقوله في الحديث: «وأمهاتهم شتى» إلى أن الله تبارك وتعالى شرع لكل أمة من أمم الأنبياء منهاجاً في الفروع يلائم زمانها

ومكانها على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولذلك كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة إلا سيد المرسلين وإمام المتقين محمداً ﷺ فقد بعثه الله إلى الناس كافة، بل عم برسالته الإنس والجن، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال في أول سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، وَذَكَرَ فِيهِمْ: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً».

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

بعث الله ﷻ عبده ونبيه ورسوله ﷺ بالإنجيل، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل بأنه فيه هدى ونور، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنه هدى وموعظة للمتقين، والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة، وقد أطلقه الله تبارك وتعالى على كتابه المنزل على عيسى ﷺ، بيد أن هذا الإنجيل المنزل على عيسى ﷺ لا وجود له عند النصارى، ولم يذكر أحد من علماء النصارى أو غيرهم أنه رأى نسخة كاملة منه، ويبدو أن عيسى ﷺ لم يكتبه وإنما كان يبشر به في بني إسرائيل، وقد ورد ذكره في الكتب التي أُلِّفت بعد رفع المسيح ﷺ والتي سمّاها أصحابها الأناجيل، فقد ذكره متى في إنجيله في الإصحاح الرابع منه، إذ يقول: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعيف في الشعب»، فكلمة بشارة الملكوت التي وردت في هذه الفقرة هي الإنجيل، إذ إن معنى الإنجيل هو البشارة، كما ذكره مرقس في إنجيله في الإصحاح الأول منه إذ يقول: وبعدهما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

وقد زعم بعض الناس أن الإنجيل كان مقتصرًا على البشارة خاليًا من الأحكام؛ مدعيًا أن عيسى ﷺ كان يقتصر على ما في التوراة من الأحكام، وهذا قول فاسد كاسد عاطل باطل، فقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم بما يقضي أن الإنجيل كتاب أحكام، وإن كان يشتمل على البشارة، حيث يقول ﷻ: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، بيد أنه لقربه من زمان رسول الله محمد ﷺ تجلت

البشارة فيه برسول الله ﷺ وإن كان كل نبي من أنبياء الله تعالى بشراً أمته بمحمد صلوات الله وسلامه عليه للميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء بتأييد محمد ﷺ حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد وصف الله تبارك وتعالى مقاماً من مقامات عيسى ﷺ بما يفيد أنه قام خطيباً في بني إسرائيل يخبرهم أنه رسول من الله يبشرهم بمحمد رسول الله ﷺ الذي يأتي بعده، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ورسول الله ﷺ له أسماء، منها: محمد وأحمد، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وقد سمّاه الله رؤوفاً رحيماً». وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب؛ والعاقب الذي ليس بعده نبي...». ولفظ محمد أو أحمد هو معنى المنحمن أو الفارقليط الوارد في الكتب التي بيد النصارى في بشارة عيسى ﷺ التي يُخبر فيها بأنه سيقم حتى يأتي المنحمن وفي بعض التراجم: حتى يأتي الفارقليط، والمنحمن أو الفارقليط هو المحمود الحمد الكثير، وهو معنى أحمد أو محمد وهو إشارة إلى أن شريعة عيسى ﷺ تستمر حتى تنسخها شريعة محمد ﷺ.

ولا شك أن علماء أهل الكتاب عموماً كانوا يعرفون صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، ووصفهم له لأمرهم حتى يؤمنوا به إذا جاء، ومن صفاته عندهم أنه يبعث بالحنيفية دين إبراهيم ﷺ، وأنه

يخرج بأرض العرب، وأنه يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة.

وفي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوانهم مثلك يا موسى أنزل عليه تورا وأجعل كلامي على فيه.

ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن العظيم والذكر الحكيم، الباقي محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضاً في وصف رسول الله ﷺ في التوراة: تجلى الله أو جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى أو استعلن من جبال فاران. وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طور سيناء وبشارة بعيسى ﷺ الذي أنزل الله عليه الوحي في جبال ساعير من أرض الجليل بقرية تدعى الناصرة، ويقال لها أيضاً: نصرانة التي سُمي من ينتمي إلى المسيح ﷺ بها، فيقال لهم: النصارى. وقوله: واستعلى أو استعلن من جبال فاران أو من برية فاران بشارة واضحة جلية بمحمد ﷺ الذي أنزل تعالى عليه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب.

وهذه البشارة الواردة في التوراة تطابق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنَى ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١ - ٣] فالتين والزيتون جبلان بالأرض المقدسة من الشام، بعث الله تعالى عندهما عيسى ﷺ، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآناه فيه التوراة، والبلد الأمين هو مكة المكرمة قدسها الله. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: وجدت في التوراة في صفة النبي محمد ﷺ يقول الله سبحانه: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيوناً عمياً وآذاناً صمماً وقلوباً غلغلاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

والمراد بالتوراة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في هذا المقام هو بعض كتب العهد القديم، إذ يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم التي تشمل التوراة بأسفارها الخمسة، وتشمل كذلك نبوات بعض الأنبياء، كما أن النصارى يطلقون اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم وعلى الأناجيل أيضاً، وإن كان الأصل في كلمة التوراة أنها خاصة بكتاب الله تعالى المنزل على موسى عليه السلام الذي ألقاه الله إليه مكتوباً في الألواح.

وفي تواتر صفات محمد صلى الله عليه وسلم عند علماء أهل الكتاب يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

عَرَضَ المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام دعوته المشرقة على بني إسرائيل وأظهر لهم من الآيات والمعجزات ما مثله آمن عليه البشر، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحيًّا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وقد لقي المسيح عليه السلام من بني إسرائيل عنتاً وأذى بالرغم من علمهم بأن في وصايا أنبياء بني إسرائيل السابقين أن سيجيء لبني إسرائيل مسيح، غير أنهم كفروا بهذا المسيح الحق، وزعموا أنه ليس مسيحهم المنتظر، فكفروا بعيسى عليه السلام، ولا شك أن المسيح الذي سيسارع اليهود إلى اتباعه هو مسيح الضلالة الدجال، ولذلك قضى الله تعالى أن مسيح الهدى عيسى ابن مريم ينزل آخر الزمان عند ظهور مسيح الضلالة الدجال؛ فيقتله ويقتل أتباعه من اليهود عليهم لعائن الله.

وقد آمن بعيسى عليه السلام طائفة من بني إسرائيل وصار منهم حواريون للمسيح عليه السلام، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حوارياً، وإن حوارياً الزبير بن العوام»، والحواري في الأصل هو الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القصار؛ لأنه يحوّر الثياب أي يبيّضها.

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسمى الحواريون لبياض ثيابهم؛ وقيل حوارى الرجل خاصته، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر أن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الحواريين في محكم كتابه الكريم في

مواضع، فذكر ما ألقى الله ﷺ في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان بعيسى ﷺ ونصرته وتصديقه فيما جاء به عن ربه ﷺ حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] في هذه الآية المباركة هو ما ألهمهم به وقذف في قلوبهم من تصديق عيسى ﷺ ونصرته، ولا شك أن الحواريين ليسوا بأنبياء، وليسوا بمعصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله ﷺ عنهم أنهم قالوا لعيسى ﷺ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، فخوَّفهم عيسى ﷺ من مغبة هذا السؤال، وأمرهم بتقوى الله، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات؛ لأن سنته جرت أن من اقترح على الله آية ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى ﷺ الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية، وأن يعلموا أن الله لا يُعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى ﷺ أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية، ويزدادوا علماً بأن عيسى ﷺ قد صدقهم، ويكونوا عليها من الشاهدين، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى ﷺ إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بظلمهم﴾ [النساء: ١٥٣].

وقد رأى عيسى ﷺ أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً وفرحاً ومسرّة للمؤمنين في عاجلتهم، ويتنفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله رب كل شيء وسيده ومليكه، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فأخبر الله عيسى ﷺ بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذاباً لم يعذب مثله في شدته

أحداً من العالمين، والمائدة هي الخُوانُ عليه طعام، فإذا لم يكن على الخُوان طعام فإنه لا يسمى مائدة، والأصل في الخُوان أن يتخذ من الخشب وينصب على قوائم. فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة، وقد أشر أن رسول الله ﷺ لم يأكل على خوان قط. وهي الشيء المرتفع عن الأرض بقوائمها، وإنما كان يأكل على السفرة ﷺ؛ لأنها عادة العرب، كما أن الخوان من عادة العجم، وقد تسمى السفرة مائدة.

وفي قصة المائدة يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نَزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَعَآخِرِنَا وَعَآيَةً مِنكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥]، وقد سميت السورة كلها باسم المائدة، وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل؛ لأن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصريح القرآن شاهد على نزولها لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا إخبار بنزولها، وتأکید بأنه برهان قاطع على نزولها. والعيد يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع، قال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأعرابي سُمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجددٍ. ١. هـ.

هذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفة المائدة المنزلة على عيسى ﷺ والحواريين وفيما احتوته هذه المائدة من ألوان الطعام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليها السلام

ذكرت في الفصل السابق أن طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى عليه السلام، وعلى رأس هؤلاء الحواريون عليهم السلام كما تقدم، وقد كَفَرَت طائفة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ووصفوه بأنه ساحر وتعاونوا مع الرومان الوثنيين الذين كانوا يحكمون فلسطين وقتئذٍ ضد عيسى عليه السلام. فلقي من عنتهم وأذاهم ومكرهم هو والذين آمنوا معه ما لا يعلمه إلا الله، مثل ما لقي إخوانه من أولي العزم من المرسلين، وقد عدَّه الله تبارك وتعالى في شيوخ المرسلين الخمسة الكبار، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حيث يقول عَلَيْكَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وكما قال عَلَيْكَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقد اندهش بعض الناس من الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وجعل الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيطير، فحسبوا أن ذلك يُشعر أن عيسى فوق البشر وليس منهم، مع أنه كان ينبه عند هذه الآيات أنها بإذن الله، وأنها معجزات من الله تعالى لتأييده، وقد أشار إلى ذلك برنابا في إنجيله الذي ألفه للرد على من حَرَّفَ دين المسيح عليه السلام بعد رفع المسيح ابن مريم، إذ يقول برنابا في الإصحاح الثالث والتسعين من إنجيله: أجاب الكاهن: إن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك، حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطرت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس فرجوك من كل

قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك؛ لأن فريقاً يقول: إنك الله، وآخر يقول: إنك ابن الله، ويقول فريق: إنك نبي. أجاب يسوع: وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تُحْمَد الفتنة وهل جُنِنْتَ أنت أيضاً؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان. ولما قال يسوع هذا عاد فقال: إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنني بريء من كل ما قال الناس عني من أنني أعظم من بشر؛ لأنني بشر مولودٌ من امرأة، وعُرْضَةٌ لحكم الله أعيش كسائر البشر. وبرنابا مؤلف هذا الإنجيل وصف في الإصحاح الرابع عشر منه بأنه أحد الحواريين الاثني عشر، كما وصف في رسالة منسوبة إلى لوقا أحد مؤلفي الأناجيل المسماة بأعمال الرسل بأنه من الرسل، أي من المبعوئين الذين كان يبعثهم عيسى ﷺ للدعوة في نواحي الجليل وغيرها، فلوقا يقول في هذه الرسالة: ويوسف الذي دُعي من الرسل برنابا الذي يترجم بابن الوعظ، وهو لاوي قبرصي الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل.

وقد كان عيسى ﷺ صبوراً على الأذى، حريصاً على هداية قومه، بشوشاً، شديد التعظيم لأمر الله ﷻ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني»، وقد ضاق به اليهود والرومان الوثنيون ذرعاً، وتمالؤوا عليه، فلما أحس عيسى منهم الكفر واستشعر منهم التصميم على العناد والاستمرار على الضلال ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]، وكما قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَآئِفَةٌ ءَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لظُهُرِنَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

وقد همَّ اليهود والرومان بالفتك بالمسيح ابن مريم ﷺ وعزموا على قتله،

فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجّاه الله تبارك وتعالى من شرهم وكيدهم، فألقى شبهه على شخص من مبغضيه فحسبوه عيسى عليه السلام فأخذوه وقتلوه وصلبوه، أما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه وخيَّب مكر الماكرين، وردّ كيد الكافرين وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَفَرُوا وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٧].

وهكذا قضى الله تعالى أن ينصر رسله والمؤمنين، وأن يُخزي أعداءه الكافرين، وقد نصّ الله تعالى على أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، وإنما شبه لليهود، وفي ذلك يقول: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَنَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٨].

وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من به أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلب أو يقتل. وقد جاء في إنجيل متى وإنجيل مرقس النص على أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح السادس والعشرين من سفر متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو. وفي إنجيل مرقس في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحد من الاثني عشر ومعه جمع

كثير بسيف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلَّمُهُ قد أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو أمسكوه وامضوا به بحرص.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبته ما كانوا يعرفونه، وسقت من إنجيل متى وإنجيل مرقس النص على ذلك. وقد جاء كذلك في الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن الله أوقع الشك حتى في قلوب أصحاب عيسى ﷺ في ذات المسيح، فصاروا يترددون هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره، وقد كان بين المسيح ﷺ وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليسلمه لليهود والرومان شبه كبير؛ فصاروا لا يدرون عن الذي أخذ أهو المسيح أم يهوذا الإسخريوطي، وقد نقلت الأناجيل الأربعة قول المسيح ﷺ لأصحابه ليلة عزم أعدائه على تبييته «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح؛ لأنه أُلقي عليه شبهه، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خلقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم (السيرنثيون والكوبوكراتيون) أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شيئاً تاماً ١.١.هـ.

والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فقد بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وإن كان النصارى اختلفوا في قصة نهايته؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح السابع والعشرين في الفقرة الرابعة منه عن يهوذا الإسخريوطي أنه مضى وخنق نفسه، وقد تناقضت رسالة أعمال الرسل مع إنجيل متى في نهاية يهوذا

الإسخريوطي، فقد جاء في الإصحاح الأول في الفقرة الثامنة عشرة من رسالة أعمال الرسل التي ألفها لوقا صاحب الإنجيل عن يهوذا: فإن هذا اقتنى حقلاً من أجره الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط انسبكت أحشاؤه كلها.

وهذا التناقض بين إنجيل متى ورسالة أعمال الرسل (والنصارى يقدسون هذين الكتابين) أقول: هذا التناقض دليل عدم معرفة مآل يهوذا الإسخريوطي، وهو برهان ساطع على أن المصلوب بيد اليهود والرومان لم تكن شخصيته معلومة علم اليقين عند هؤلاء، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله **رَبِّكَ**: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

وقد التبس الأمر على اليهود والنصارى والرومان، ووقعوا في الشك والحيرة والتردد: أكان المصلوب عيسى أم غيره، فبعضهم كان يقول: هو هو يسوع، وبعضهم يقول: إنه غيره؛ وذلك بسبب شبه يهوذا الإسخريوطي بعيسى **عليه السلام**، أضف إلى ذلك أنه كان معه شخص آخر هو باراباس، وقد جاء في إنجيل متى في الفقرة السابعة عشرة من الإصحاح السابع والعشرين: ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح. ١. هـ.

وقد رفع الله تبارك وتعالى المسيح ابن مريم إليه وخلصه من بني إسرائيل الكافرين الحاقدين الحاسدين، وفي ذلك يقول **رَبِّكَ** في سورة آل عمران: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُرْفَعُهُ عَلَى السَّمَاءِ وَإِنَّا لَمَنبِئُونَكَ أَنَّكَ بِذُنُوبٍ عَدِيدٍ يُرْسِلُكَ إِلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ لَمَّا عَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَكَانَ عَبْدًا لَدُنَّا نَجِيبًا إِنْ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ نَأْمُرُ بِهِ وَإِذْ لَبِيسُ الْفِجَارِ أَصْحَابُ الْمِرْيَاقِ حَرَّحْنَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سُدُورًا يُضْوَأُونَ فَمِنَ اللَّيْلِ يَسْجُدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨].

وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إليه بجسده وروحه، ويفسرون التَّوْفِيَّ في قوله تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُرْفَعُهُ عَلَى السَّمَاءِ وَإِنَّا لَمَنبِئُونَكَ أَنَّكَ بِذُنُوبٍ عَدِيدٍ يُرْسِلُكَ إِلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ لَمَّا عَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَكَانَ عَبْدًا لَدُنَّا نَجِيبًا إِنْ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ نَأْمُرُ بِهِ وَإِذْ لَبِيسُ الْفِجَارِ أَصْحَابُ الْمِرْيَاقِ حَرَّحْنَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سُدُورًا يُضْوَأُونَ فَمِنَ اللَّيْلِ يَسْجُدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ينيمكم بالليل ويعلم ما اكتسبتم من أعمال بالنهار.

وخص النوم بالليل والاكتساب بالنهار؛ لأن ذلك هو الأصل الملائم لطبيعة الإنسان، وقد لا ينام الإنسان بالليل ولا يكتسب بالنهار، إلا أن ذلك مضر بفطرته وقوام نفسه، وقد ذهب عامة أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وأنه ينزل في آخر الزمان عند ظهور المسيح الدجال فيقتله باللُد من أرض فلسطين، ويقتل من معه من اليهود، ويريق الخمر ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام، وفي زمن نزوله يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، وأن عيسى عليه السلام يضرع إلى الله ويدعوه أن يُهْلِكَ يأجوج ومأجوج فيستجيب الله له، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان من أمارات الساعة حيث يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَازُتُ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] على قول لأهل العلم من أهل التفسير والتأويل. أي إن نزول المسيح عليه السلام علامة من علامات قرب الساعة، أو إن إيجاد عيسى عليه السلام من غير أب دليل على أن الله قادر على كل شيء، وأنه برهان على قدرة الله على إحياء الموتى وبعث الناس يوم القيامة، كما ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلٍ أَلْكُتَبِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] يعني أن جميع الكفار من اليهود والنصارى عندما يأتيهم الموت وينقطعون عن الدنيا يعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لم يقتل ولم يصلب، ويصدقون أن الله رفعه إليه وصانه من مكر اليهود وكيدهم، وأنه ليس إلهاً ولا ابن إله كما يزعم النصارى عليهم وعلى اليهود لعائن الله والملائكة والناس أجمعين.

وهذا الإيمان عند معاينة الموت لا ينفعهم، وأكثر المفسرين أرجع الضمير في «موته» إلى عيسى عليه السلام، وأنه عند نزوله يؤمن به البر والفاجر ويسارعون إلى تصديقه، وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلٍ أَلْكُتَبِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] قد سيق في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجاهلين أن عيسى قُتِلَ وصلب. فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس كذلك وإنما شُبِّهَ لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك بل رفعه الله إليه وهو حي وأنه سينزل قبل القيامة.

ونزول المسيح ﷺ آخر الزمان من عقائد أهل السنة والجماعة التي لا يزيغ عنها إلا ضال هالك، فقد روى البخاري ومسلم من عدة طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشينهما»، أي أو ليقرنن بينهما، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم» كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يُفنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فيمنأهم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعدون للقتال يُسَوون الصفوف إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم رضي الله عنه فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته».

وقوله: «إن المسيح قد خلفكم» يعني به الدجال، وقوله: «فأمهم» يعني قصد المسلمين للاقتداء بإمامهم في الصلاة، أو قصد الدجال وعصابته لقتلهم وإهلاكهم، والأول أظهر لقوله في رواية البخاري ومسلم المتقدمة: «وإمامكم منكم»، كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال

طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: «فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا، فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمه الله هذه الأمة». ١. هـ.

وهذا دليل على أن الله يحفظ لهذه الأمة دينها من التبديل والتغيير إلى آخر الزمان، حتى ينزل المسيح ابن مريم فيحكم بشريعة محمد ﷺ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

إليكم جملة أخرى من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ في نزول المسيح ابن مريم عند ظهور المسيح الدجال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله! ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌ قَطَطٌ، عينه طافية، كَأني أُشبهُهُ بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فيقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا»، قلنا: يا رسول الله! وما لَبِثُهُ في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا. اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله! وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كان ذراً، وأسبغهُ ضروعاً، وأمدهُ خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُّحَلِّين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرُّ بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمِيَّة الغرض، ثم يدعوهُ فيقبل ويتهلل وجههُ يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة

البيضاء شرقي دمشق بين مهردتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جُمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدِّ فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسحُ عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبداً لي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، وبيعت الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمُرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرّة ماءً، ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلّم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيردُّ الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً، ويخصرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرعبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله. فيرسل الله عليهم التَّغْفَ في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتنهم، فيرعبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسلُ الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسلُ الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مدبر ولا وبر، فيغسلُ الأرض حتى يتركها كالزَّلْفَةِ، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورددي بركتك، فيوميذ تاكل العصابة من الرمان، ويستظلون بقحفها، وبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبضُ روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرارُ الناس يتهاجرون فيها تهاجج الحمير فعليهم تقوم الساعة».

وقوله في الحديث: «فخفَضَ فيه ورفَع» أي حَقَّرَ فيه وفخم، أو خفَضَ من صوته بعد طول الكلام ليستريح، ثم عاد فرفع صوته ليبلغ كلَّ المستمعين له. وقوله: «حتى ظنَّاه في طائفة النخل» أي في غاية القرب منَّا، وأنه قريب الظهور.

وقوله: فلما رُحْنَا إليه، أي رجعنا إلى مجلس رسول الله ﷺ في العشي إذ كان حديثه ﷺ عن الدجال في الصباح، وقوله: «إِنَّه شاب قَطَطٌ» أي شديد جُودَة الشعر، وقوله: «إِنَّه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق» أي في طريق بينهما، وقوله: «فَتَرَوْحُ عَلَيْهِم سَارِحْتُهُم» أي فترجع عليهم ماشيتُهُم التي تسرحُ أي تذهب أول النهار إلى المرعى، وقوله: «أطول ما كانت ذراً»، الذرى جمع ذروة، وهي الأعالي والأسنمة، والمراد أنه يزيد ارتفاعها بسبب سرعة نموها، وقوله: «وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعاً» أي أطوله ضروعاً لكثرة اللبن، وقوله: «وَأَمَدُهُ خَوَاصِرٌ» يعني لكثرة امتلائها من الشبع، وقوله: «كيعاسيب النحل» اليعاسيب جمعُ يعسوب وهو ذكرُ النحل وأميرها، وأراد باليعاسيب هنا جماعة النحل في اتباعها ليعسوبها؛ لأنه متى طار تبعته، ومراده أن الدجال تتبعه كنوز الأرض كما تتبع جماعة النحل يعسوبها لا تتخلف عنه بحال، وقوله: «فيقطعه جزلتين رمية الغرض» أي فيقطعه قطعتين ويجعل بين القطعتين مقدار رمية السهم نحو الهدف. وقوله: «بين مَهْرُودَتَيْنِ» أي حُلَّتَيْنِ مصبوغتين بالهَرْدِ، وهو عُرُوقٌ يُصَبَغُ بها، وقد قيل: إن الثوبَ المهرودَ هو المصبوغ بالورس ثم بالزعفران. وقوله: «لا يدان لأحد بقتالهم» يعني لا قدرة لأحد على حربهم. وقوله: «فيرسل الله عليهم النَّعْفَ في رقابهم» أي فيسلط الله عليهم النعف، وهو دود يصيب أنوف الإبل والغنم وقوله: «فيصبحون فَرَسَى» أي هَلَكى. وقوله: «حتى يتركها كالزَّلْفَةِ» أي كالمرآة والأرض المكنوسة. وقوله: «ويستظلون بقحفها». أي بقشرها، والفئام: الجماعة: وقوله: «يتهارجون فيها تهارج الحمر» أي يذهب الحياء من الناس، ويقارف الرجال النساء، ويتسافدون في الطرقات بلا خجل ولا اكتراث.

هذا وقد وصفت أحاديث نزول عيسى ﷺ عند ظهور المسيح الدجال بأنها متواترة، فقد قال ابن كثير في تفسير قول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159]: «ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له».

وبعد أن ساق عدداً كثيراً من هذه الأحاديث الواردة في البخاري ومسلم

ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وأبي داود وسائر أهل السنن، ثم قال: فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومُجَمِّع بن جارية وأبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ١٠ هـ.

هذا وقد وصف رسول الله ﷺ عيسى ابن مريم بأنه ربعة أحمر من يراه يحسبه خرج من ديماس أي حمام بعد أن اغتسل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعت عيسى عليه السلام بعد أن رآه ليلة الإسراء والمعراج فقال: «ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس» يعني الحمام. وفي رواية للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في وصف عيسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «فأما عيسى فأحمر جَعْدٌ عريض الصدر»، وفي رواية لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لِمَتُّهُ بين مَنكَبَيْهِ رَجُلٌ الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على مَنكَبَيْهِ رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا قالوا: هو المسيح ابن مريم» وفي لفظ للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يتهادى بين رجلين، ينظف رأسه ماء - أو يهراق رأسه ماء - فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابن مريم» ومعنى قوله: «ربعة» أي مربع بين الطول والقصر، ومعنى قوله: «جَعْدٌ» أي ليس شعره سَبْطاً أي ناعماً، ويقال: رجل جَعْدٌ أي كريم. ومعنى قوله: «آدم» أسمر، وقد يوصف الأحمر به أيضاً إذا لم يكن أمهق شديد البياض. وقوله: «تضرب لِمَتُّهُ بين مَنكَبَيْهِ» اللَّمَّةُ هي الشعر المجاوزُ شحمة الأذن. ومعنى قوله: «رَجُلٌ الشعر» يقال: رَجُلٌ الشعر ورَجَلُ الشعر ورَجُلُ الشعر إذا كان شعره بين السبوتة والجعودة، وهذا يقيد ما ورد في وصف شعر عيسى عليه السلام من مطلق قوله: سبط الشعر أو جعد، ومعنى قوله: «ينظف رأسه ماء» أي يقطر ويسيل.

الفصل الثامن والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكر الله تبارك وتعالى في تعداد جرائم اليهود أنهم قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، وأنهم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، وأنهم عدوا في السبت. وأنهم نقضوا الميثاق، وأنهم كفروا بآيات الله، وأنهم قتلوا الأنبياء بغير حق، وأنهم قالوا: قلوبنا غلف، ثم قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَعَقْلَهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ ۖ هُنَّ عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٧] وقوله تعالى هنا: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بنصب رسول يحتمل أن يكون من تمام مقالة اليهود وقالوا ذلك تهكماً على حد قول مشركي مكة في حق محمد صلى الله عليه وسلم فيما حكى الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وقول فرعون في موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ليس من مقالة اليهود، وإنما ذكره صلى الله عليه وسلم ونصبه على الاختصاص والمدح؛ للإشارة إلى فظاعة عملهم، ودرجة جهلهم وشناعة زعمهم وسوء حقدهم وبُغضهم للأنبياء والمرسلين. ولا شك أن الحوارين قاموا بعد رفع المسيح عليه السلام بنشر دعوة توحيد الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا إله إلا الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد تعرَّضوا لصنوف من التعذيب على أيدي اليهود والرومان، ولم يدع واحد منهم أن عيسى إله أو ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وقد استمرت دعوة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام صافية وقتاً من الزمان ليس بطويل، فقد وقع على أتباعه اضطهاد عظيم، فشرَّدوا وعُذِّبوا وقُتِلوا وصُلِّبوا حتى كادت تختفي معالم المسيحية من الأرض بسبب تلك الاضطهادات التي كان يتولاها أباطرة الرومان وعمالهم وكذلك اليهود.

وأشد ما نزل بهم من الأذى كان في عهد الإمبراطور نيرون (٦٤م)، ثم في

عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦م)، ثم الإمبراطور ديسيوس (٢٥١م)، ثم في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)؛ فأما نيرون فقد اتهمهم بأنهم هم الذين أحرقوا مدينة روما، وتفنن في تعذيبهم، إذ كان يأمر أتباعه بوضع أتباع عيسى في جلود الحيوانات ثم يطرحونهم للكلاب فتنهشهم، كما كانوا يلبسون بعض هؤلاء المسيحين ثياباً مطليّةً بالقار. ثم يجعلونهم مشاعل يستضيئون بنارها. كما كتب بطريك الإسكندرية يصف بعض ما عاين من ديسيوس إذ يقول: عم الخوف الجميع، وفر بعضهم بدينهم، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحي يُرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة، بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب، ثم يقول البطريرك: ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار أو مَنْ رُجَّ به في غياهب السجون. ١.٥هـ.

أما دقلديانوس فقد جاء إلى مصر وأنزل بها البلاء، وأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب، وأصدر أمراً بالقبض على الأساقفة وزجهم في غياهب السجون، وقهر المسيحيين على إنكار دينهم، وقتل منهم حوالي ثلاث مئة ألف.

وقد أُطْلِقَ على أتباع المسيح ﷺ اسم النصارى، نسبة إلى نصرانة قرية المسيح ﷺ من أرض الجليل بفلسطين، وهذه القرية تسمى أيضاً الناصرة والنصورية، ولا أعرف على التحديد متى صارت النصرانية علماً على دين أهل الإنجيل، وقد وجدت هذه اللفظة بهذا المعنى في أوائل القرن الثاني الميلادي، إذ كتب (بلين) وكان والياً في آسيا إلى الإمبراطور تراجان الموجود عام (١٠٦م) كتاباً يشرح فيه طريقة تعذيبه للمسيحيين، فقال: «جربت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية: وهي أنني أسألهم إذا كانوا مسيحيين، فإذا أقروا أُعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة، مهدداً بالقتل، فإذا أصروا أنفذ عقوبة الإعدام فيهم، ثم يقول «بلين»: وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تُذيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى». ١.٥هـ.

وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ [المائدة: ٨٢]، ولا يقتضي لفظ النصرانية في الأصل مدحاً ولا ذماً؛ لأنها نسبة إلى وطن، والنسبة إلى الأوطان لا تقتضي مدحاً ولا ذماً، فإن الوطن الواحد يشتمل على صالحين وطالحين، أما المسيحية فإنها إنما يصح إطلاقها على المتبعين بحق دين المسيح ﷺ، وبعد بعثة رسول الله ﷺ، وقد نسخ الله بشريعته كل شريعة سوى شريعته، فإنه لا ينبغي إطلاق المسيحية على النصارى؛ لأن هؤلاء في الواقع لا يتبعون المسيح ﷺ، إذ لو اتبعوه لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، ولذلك لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ تسميتهم مسيحيين، وقد أطلق عليهم القرآن والسنة أنهم نصارى وأهل الكتاب، كما سماهم القرآن أهل الإنجيل، هذا وقد كان اليهود أشد الناس عداوة لدين المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، وبذلوا كل سبيل للقضاء عليه وعلى أتباعه، وقد رأوا بتفكيرهم الشيطاني أن يتظاهر بعضهم بالدخول في هذا الدين ليحرفه ويبعد الناس عن دين المسيح ﷺ، وقد قام بهذه الحيلة شاؤول اليهودي، وقد كان من المغرمين المولعين بتعذيب النصارى وفتنتهم عن دينهم، ويجمع علماء النصرانية على أنه كان راضياً بقتل المسيحيين، وكان يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن، وقد وصف في رسالة (أعمال الرسل) بأنه الممتلئ كل غش وكل خبث، وأنه ابن إبليس، وأنه عدو كل بر، وأنه يفسد سبل الله المستقيمة كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من هذه الرسالة في الفقرة العاشرة من هذا الإصحاح.

وقد زعم شاؤول أنه تقدم إلى رئيس الكهنة اليهودي وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم، وقد كان ذلك في السنة الثامنة والثلاثين من الميلاد، أي بعد وقت قصير من رفع المسيح ﷺ، ويقول شاؤول عن نفسه: سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي؛ إذ كنت أوفر غيرة في

تقليدات آبائي . . ثم يزعم شاؤول أنه وهو في طريقه إلى دمشق رأى يسوع، وأنه آمن به، وأنه تسمى بولس، ويذكر لوقا صاحب الإنجيل المسمى باسمه في رسالته التي سماها أعمال الرسل قصة شاؤول هذه على ما زعمه شاؤول، فيقول في الإصحاح التاسع من هذه الرسالة عن شاؤول: فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم. وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ثم يقول: فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ ثم يقول: وللوقت جعل يركز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. ولم تكن فكرة ألوهية عيسى أو بنوته لله معروفة من قبل للمسيحيين فهم لا يعلمون إلا أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولما جاء شاؤول الذي تسمى بولس بهذه الدعوى أنكرها الحواريون وتشككوا في هذه القصة التي اخترعها شاؤول، ولم ينسوا أنه أكبر أعدائهم في اليهود غير أن برنابا نصح الحواريين أن لا يعجلوا على شاؤول وأحسن تقديمه إلى هؤلاء، بيد أن برنابا كذلك لم يستقم على موالاته شاؤول فلم يمض قليل وقت حتى انفصلت عرى المودة بينهما، بل نفر من شاؤول عامة التلاميذ ولم يبق على صحبته له سوى لوقا الذي اعتبر نفسه أخص تلاميذ بولس، وكان طيباً ولم يكن من الحواريين، وكان شاؤول (بولس) يلقيه بعد ذلك بالطبيب الحبيب.

وصار بولس يبشر بمسيحية لم يعرفها الحواريون، إذ لم يتلق أي نوع من التعليم من عيسى ﷺ أو من الحواريين، ثم صار يزعم أن يسوع يعلمه من السماء مباشرة وبلا واسطة، ويقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل التاسع والسبعون

تابع: المسيح ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن شاؤول الذي سمى نفسه بولس أراد القضاء على جميع التعاليم التي تلقاها الحواريون عن المسيح ﷺ، وكان يقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين، وفي ذلك يقول في كتاب بعث به إلى تلميذه تيموثاوس: طلبت إليك أن تمكث في إفسس إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية لكي توصي قوماً ألا يعلموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافات وأنساب لا حدّ لها تُسبّبُ مباحثات دون بنیان الله الذي في الإيمان، وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء، الأمور التي إذا زاغ قوم عنها انحرفوا إلى كلام باطل يريدون أن يكونوا معلمي الناموس وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يقررون، ويقول: إن كان أحد يُعلّم تعليماً آخر فقد تصلف وهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا بدأ شاؤول اليهودي هذا الذي زعم أنه تنصر وتسمى بولس، بدأ يُجَهِّل كل الحواريين ويصفهم بعدم الفهم، وراح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد، وصار ينشر تعاليم يستمدّها من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلاسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود، فقد جاء لأول مرة بفكرة التثليث، وبفكرة أن المسيح ابن الله، وأنه نزل ليضحّي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر، وأنه صعد ليجلس عن يمين أبيه ليحكم ويدين البشر، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً.

ولا شك أن اليهود من آبائه قالوا: العزيز ابن الله، فهو لم يبعد في دعوته أن عيسى ابن الله عن دعوى آبائه الضالين المنحرفين، وقد ضم إلى ذلك ما أخذه عما دُوّن عند الهندوس عن كرشنة، وما دُوّن عند بعض البوذيين عن بوذا،

فكرشنا يلقب عند معتقديه من الهندوس بالمخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس؛ وهو الأب والابن والروح القدس، كما لقب بوذا عند بعض أتباعه بنفس هذه الألقاب وهي بعينها التي أطلقها بولس على المسيح ﷺ، كما قال أصحاب كرشنا: إنه ولد من العذراء (ديفاكي) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها، وقال بعض أصحاب بوذا عن بوذا إنه ولد من العذراء (مايا) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها. وهذه العبارة بعينها أطلقها شاؤول (بولس) على والدة المسيح وولدها ﷺ، ويقول أصحاب كرشنا عن كرشنا، إن الناس عرفوا ولادته من نجمه الذي ظهر في السماء، وكذلك قال بعض أصحاب بوذا عن بوذا، وكذلك قالت تعاليم شاؤول (بولس): لما ولد المسيح ظهر نجمه في المشرق، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته، كما زعم أصحاب كرشنا أن أمه (ديفاكي) كانت مخطوبة لناندا، وأنها لما ولدت كرشنا سمع ناندا نداء من السماء يقول له: قم خذ الصبي وأمّه وفر بهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة؛ لأن الملك طالبٌ إهلاكه، وفي تعاليم شاؤول التي نشرها: أنه لما ولد يسوع كان يوسف النجار خطيب أمه غائباً؛ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمّه ويفرّ بهما إلى مصر؛ لأن الملك طلب إهلاكه، كما أن اسم المدينة التي ولد فيها كرشنا وعمل فيها الآيات العجيبة هي مطر، وكذلك نشر شاؤول أن اسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح وأمّه وخطيبها يوسف النجار هي المطرية من أرض مصر، وقد عمل فيها الآيات العجيبة لما ترك أرض اليهودية.

علماً بأن كرشنا كان موجوداً حوالي سنة ٩٥٠ ق.م، وبوذا كان موجوداً حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وقد انتشرت تعاليم وأفكار بولس في الغرب بين الوثنيين واليونان في الوقت الذي حوربت فيه بالمشرق، وفي ذلك يقول بولس في رسالة إلى تلميذه تيموثاوس: أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني. ومع ذلك فقد أخذ بولس في التطواف في الأقاليم ينشئ الكنائس

ويلقي الخطب ويبعث بالرسائل التي صارت عماد المسيحية المحرفة، حتى قتل في اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو ٦٧م، غير أن بعض الحواريين ومنهم برنابا الذي كان يحسن الظن في (بولس) قاوموا هذه التعاليم التي جاء بها بولس، وألف برنابا إنجيلاً أشار في مقدمته إلى السبب الذي دعاه إلى تأليفه. وأنه إنما ألفه ليرد على أولئك الذين يدعون ألوهية المسيح؛ أو أنه ابن الله، وفي ذلك يقول برنابا في مطلع إنجيله: أيها الأعداء، إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيت. ١.١.هـ.

وقد أجمع مؤرخو النصرانية على أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل شتى قد أخذت بها فرق مسيحية قديمة، وأن كل فرقة من هذه الفرق لم تكن تتمسك إلا بإنجيلها، وأن الكنيسة قامت في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط؛ وهي إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وحرمت الكنيسة ما عداها من الأناجيل، على أنه قد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الأناجيل الأربعة لا ذكر لها قبل آخر القرن الثاني الميلادي، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة هو أرينيوس سنة ٢٠٩م، ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦م، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، علماً بأن جميع هذه الأناجيل أشبه بكتب السيرة النبوية التي تسوق عن رسول الله ﷺ سيرته، وتشتمل على الصحيح والحسن والضعيف والموضوع من الأخبار. ولم يدع أحد من النصارى أنها تشتمل على الإنجيل المنزل على عيسى ﷺ، وإن كانت تسوق أحياناً بعض فقرات لا شك أنها توافق ما عُرف عن المسيح ﷺ من توحيد الله تعالى، وأن عيسى رسول الله ونبي من الأنبياء؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح العاشر في الفقرة الأربعين في خطاب عيسى مع الحواريين يقول: من يقبلكم،

يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني. وفي الإصحاح التاسع عشر من متى في الفقرة الثامنة عشرة: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك. وفي الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين من الإصحاح الثاني والعشرين من متى: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَلِ اللَّهِ القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي الفقرة السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين من الإصحاح الثالث والعشرين من متى يقول: يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً. لأنني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب. وفي إنجيل مرقس في الإصحاح العاشر في الفقرة التاسعة عشرة: أنت تعرف الوصايا. لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك. وفي الإصحاح الثاني عشر منه في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَيْقَةِ كيف كان الله قائلاً: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله: أَيُّهُ وَصِيَّةٌ هِيَ أَوْلُ الْكُلِّ؟ فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل: الرَّبُّ إِلَهنا رَبُّ واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانيةٌ مثلها هي تُحِبُّ قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيداً يا مُعَلِّم، بالحق قلت؛ لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه، وفي إنجيل يوحنا التقرير بأن الله واحد، وأن عيسى رسول الله حيث جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.

ولا شك أن هذه هي وصايا الأنبياء لم يتمكن شاؤول ولا المحرفون من اليهود والنصارى من طمسها، وهي المطابقة لما جاء به محمد ﷺ وعليها وعلى

نحوها يحمل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

وفي نحوها يقول الله ﷻ في الوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ سَيِّئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقد أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثمانون

تابع: المسيح ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أنه كانت هناك أناجيل كثيرة، وكان لكل فرقة من فرق النصراري إنجيلها الخاص بها، حتى قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط، وهي متى ومرقص ولوقا ويوحنا؛ وإليكم نبذة تبين أن هذه الأناجيل مختلف في تاريخ تدوينها وفي اللغة التي كتبت بها، وفي البلد الذي أُلِّف فيه وفي الذي قام بترجمتها، كما اشتملت على جملة من التناقضات فيما بينها؛ فإنجيل متى منسوب لمتى الحواري أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، ويعرف بمتى العَشَّار، إذ كان قبل اتصاله بالمسيح ﷺ من جباة الضرائب للرومان، وكان جباة الضرائب يعرفون آنذاك بالعَشَّارين، وقد كان عمله في كفر ناحوم من أرض الجليل بفلسطين، وقد ذكر متى في إنجيله كيفية دخوله في دين المسيح إذ يقول في الإصحاح التاسع من إنجيله: وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى، فقال له: اتبعني فقام وتبعه، وبينما هو متكئ في البيت إذا عَشَّارون وخطاة كثيرون قد جاؤوا واتكؤوا مع يسوع وتلاميذه، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، اذهبوا وتعلموا ما هو؟ إنني أريد رحمة لا ذبيحة، لأنني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.

وقد اختلف النصراري في تاريخ تدوين هذا الإنجيل، فبعضهم يدَّعي أنه أُلِّف عام ٣٩م، وبعضهم يدَّعي أنه أُلِّف عام ٤١م، وبعضهم يقول: إنه أُلِّف في عهد الإمبراطور قلوديوس ولم يحدد السنة التي أُلِّف فيها، علماً بأن قلوديوس حكم أربع عشرة سنة، ويقول هورن: إنه أُلِّف عام ٣٧ و٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو ٦٤م.

وقد تنازع النصارى كذلك في اللغة التي كتب بها هذا الإنجيل وفي البلد الذي أُلّف فيه، فمنهم من يقول: إنه كتب بالعبرية، ومنهم من يقول: إنه كتب بالسريانية، ومنهم من يقول: إنه كتب في أورشليم، ومنهم من يقول: إنه كتب باليونانية، وأجمعوا على أنه لم يعرف إلا باليونانية، واختلفوا في مترجمه إلى اليونانية، والمعروف أن متى لم يبق طويلاً في فلسطين بعد رفع المسيح ﷺ، بل جال في بلاد كثيرة يبشر بالمسيحية، واستقر بأرض الحبشة حتى مات عام ٧٠م ببلاد الحبشة، على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة، وبعضهم يقول: إنه طعن برمح بأرض الحبشة بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة.

أما إنجيل مرقس فمؤلفه أصله من اليهود أيضاً وكانت أسرته تقيم بأورشليم في وقت ظهور المسيح ﷺ، لكنه ليس من الحواريين، بل هو تلميذ لبطرس كبير الحواريين، كما أنه تتلمذ على خاله برنابا أحد الحواريين كذلك، وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية بطلب من أهالي رومية، في عهد الإمبراطور نيرون، وقد ذكر سعيد بن البطريق النصراني في تاريخه أن هذا الإنجيل كتبه بطرس رئيس الحواريين عن مرقس في مدينة رومية ونسبه إلى مرقس. وهذا أمر عجيب غريب، إذ كيف يروي رئيس الحواريين عن تلميذه هذا الإنجيل، ثم ينسبه إلى التلميذ، على أن بعض الرواة يقررون أن مرقس ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس، وقد ذكر كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار: أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح، هو وأستاذه بطرس الحواري، وقد جاء في هذا الكتاب عن مرقس أنه صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح. وقد انتقل مرقس من بلد إلى بلد يبشر بالمسيحية حتى دخل مصر في منتصف القرن الأول من الميلاد، فأقام بها، وأخذ يدعو إلى المسيحية، فدخل فيها عدد كبير من المصريين، وقد كان يسافر من مصر أحياناً إلى رومية، وأحياناً إلى شمال إفريقية، غير أنه أثر الاستقرار في مصر إلى أن ائتمر به الوثنيون فسجنوه وعذبوه ثم قتلوه في عام ٦٢م.

أما إنجيل لوقا فمؤلفه ليس من الحواريين كذلك ولا من تلاميذ الحواريين، وإنما تتلمذ لبولس (شاؤول اليهودي) وأخلص له، وصار أخص أصدقائه، وقد

اختلف فيه فقيل: إنه أنطاكي ولد بأنطاكية، وقيل: بل روماني نشأ في إيطاليا، وبعضهم يقول: إنه كان طبيباً، وبعضهم يقول: إنه كان مصوراً. وقد أشار لوقا إلى سبب تأليفه إنجيله، فبدأ هذا الإنجيل بقوله: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به. وقد تنازع مؤرخو النصرانية في تاريخ تدوين هذا الإنجيل فقيل: إنه ألف عام ٥٣ أو ٦٣ أو ٨٤م وقيل غير ذلك.

أما إنجيل يوحنا فمؤلفه محل نزاع شديد عميق بين علماء النصرانية؛ فالكثير منهم يدعي أنه أحد الحواريين وهو يوحنا بن زبدي الصياد، وبعضهم يدعي أنه يوحنا آخر لا يمت إلى الأول بصلة، وقد أنكر بعض علماء النصرانية آخر القرن الثاني الميلادي نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري في الوقت الذي كان يعيش فيه أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري، ولم ينقل أحد أن أرينيوس سمع من أستاذه صحة تلك النسبة. وقد قال علماء النصرانية: إن كافة إنجيل يوحنا من تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، كما جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمس مئة من علماء النصرانية النص التالي: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاقتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنما لنراف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سُدى، لخبطهم على غير هدى. ١.١. هـ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق إنكار دائرة المعارف البريطانية أن يكون إنجيل يوحنا من تأليف يوحنا الحواري، وتقريرها أنه من تأليف كاتب مزور من الجيل الثاني. وقد اختلف في تاريخ كتابة هذا الإنجيل؛ فبعضهم يرى أنه كتب سنة ٩٥م أو ٩٦م أو ٩٨م وقيل غير ذلك.

وعامة مؤرخي النصرانية يقررون أن إنجيل يوحنا هو وحده الذي نص على ألوهية المسيح. مما يدل على أنه أُلّف لتقرير هذه الألوهية، وهذا يؤكد مذهب من يقول: إن مؤلفه أحد طلبة مدرسة الإسكندرية التي كانت تتزعم القول بألوهية المسيح، مقررّة لما آثرته عن بولس «شاؤول اليهودي».

وهذه الأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا متناقضة في شكلها وموضوعها، فمن صور اختلافها في مظهرها العام أن إصحاحات (فصول) إنجيل متى ٢٨ إصحاحاً، ومرقس ١٦ إصحاحاً، ولوقا ٢٤ إصحاحاً، ويوحنا ٢١ إصحاحاً.

أما تناقض هذه الأناجيل في حقيقة المسألة الواحدة فيظهر فيما يأتي: إنجيل متى يقرر أن عيسى من أولاد سليمان بن داود، وإنجيل لوقا يقرر أن عيسى من أولاد ناثان بن داود، وإنجيل متى يقرر أن سلتائيل بن يكنيا، وإنجيل لوقا يقرر أن سلتائيل بن نيري، وإنجيل متى يقرر أن من داود إلى يسوع ستة وعشرين جيلاً، وإنجيل لوقا يقرر أن من داود إلى يسوع واحداً وأربعين جيلاً، كما أن إنجيل متى يقرر أن المرأة التي لحقت يسوع عند انصرافه إلى نواحي صور وصيدا كانت كنعانية كما جاء في الإصحاح الخامس عشر منه، وإنجيل مرقس يقرر أن هذه المرأة كانت أممية، وفي جنسها فينيقية سورية، كما جاء في الإصحاح

السابع منه، والعجيب أن يد التلموديين اليهود ظاهرة في صياغة هذه الأناجيل، إذ إن التلمود اليهودي يقرر أن الناس قسمان يهود وأمميون، وأن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة، وأن الأمميين جميعاً كلاب وخنازير، وهذه التعاليم الخبيثة التي يأبأها من له أدنى مسكة من عقل تنسب الأناجيل التي بيد النصارى إلى عيسى عليه السلام أنه كان يعتقد أنها - برأه الله مما قالوا -، ففي قصة المرأة التي لحقت عيسى عليه السلام عند انصرافه إلى صور وصيدا تفوح هذه الرائحة الخبيثة التلمودية منه، ففي الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى في الفقرة الحادية والعشرين إلى ٢٨: ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، فأنت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين وي طرح للكلاب؛ فقالت: نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين، فشفيت ابنتها من تلك الساعة، ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل، وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة معهم عُرجٌ وَعُمِّيٌّ وَخُرْسٌ وَشُلٌّ وآخرون كثيرون. وطرحوهم عند قدمي يسوع فشفاهم، حتى تعجب الجموع إذا رأوا الخُرْسَ يتكلمون والشل يصيحون والعرج يمشون والعُمِّيُّ يُبْصِرُونَ، ومجدوا إله إسرائيل.

ففي هذا النص يزعمون أن عيسى وصف غير بني إسرائيل بأنهم كلاب، ونفس هذا الوصف موجود في الإصحاح السابع من إنجيل مرقس، وإن تعجب فعجب أن يصدق عاقل يؤمن بالأنبياء والمرسلين يصدق أن عيسى يصف من سوى الإسرائيليين بأنهم كلاب، نزهه الله وبرأه مما قالوا. وبالرغم من أنه بعد أن قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على هذه الأناجيل الأربعة فقط فإن النزاع لم ينقطع بين أصحاب هذه الأناجيل الأربعة وبين أصحاب

الأناجيل الأخرى حتى دخل الإمبراطور قسطنطين في النصرانية، وقد رأى النصراني في غاية التنازع؛ فمنهم من يعتقد أن المسيح عبد الله ورسوله، ومنهم من يدعي أنه ابن الله له صفة الأزلية. ومنهم من يدعي أن الله ثالث ثلاثة؛ فقرر عقد مؤتمر في نيقية، وقد كان في مصر رجل ليبي الأصل يقال له آريوس، وكان داعية قوياً يدعو إلى توحيد الله ﷻ، ويقرر أن عيسى عبد الله ورسوله، وقد أخذ يقاوم كنيسة الإسكندرية التي كانت تنشر بين الناس القول بألوهية المسيح فأخذ آريوس يحارب هذه الكنيسة.

قالت الكاتبة الإنجليزية ا - ل - بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية الذي ترجمه إلى العربية رجل من الأقباط اسمه اسكندر تادرس وتولى طبعه وأشرف عليه تادرس شنودة المتقبادي صاحب جريدة مصر، وطبع في مطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠١م؛ تقول هذه الكاتبة الإنجليزية في ص ١٩١ - ١٩٢ ج١: وقد ظهر في الإسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي المشهور وأصله من ليبيا، وقد سامه بطرس شماساً في الكنيسة. وتقول في ص ٢٠١: أما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تم في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين، إذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالإسهاب فلا حاجة لسردها الآن، ولم تأت سنة ٣١٩م حتى زاد تدمير الإسكندرانيين وكثر لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين، مما دعا البطريك إسكندر أن يهتم لأخذ الاحتياطات اللازم لصددها، ثم تقول في ص ٢٠٢: وأخيراً كتب البطريك رسالة رعوية إلى آريوس وأتباعه ينذرهم بترك طريق الضلالة التي ساروا فيها والرجوع إلى الطريق السوي، ولكنه عبثاً حاول إقناعهم. ولا بد أن بعض الباحثين يعرفون أن نقطة الخلاف هذه كانت فيما يختص بألوهية المسيح، ثم تقول: إذن فالذنب ليس على آريوس بل على فئات أخرى سبقته في إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً، كما كان تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعمّ. ثم تقول في ص ٢٠٣: وكانت نتيجة هذا كله أن البطريك إسكندر شكل

مجمعاً في سنة ٣٢٠م حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة، وهو ثالث حكم صدر ضده في حياته، أما آريوس فلم يخضع لهذا الحكم ولم يعبأ، به بل غادر الإسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع إليه أصدقاء أثر فيهم تأثيراً شديداً، إذ استمالهم إليه بكليتهم حتى إن يوساب أسقف نيكومديا الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو، ومن ثم سعى بعد ذلك في استمالة الإمبراطور قسطنطين إلى هذا المذهب، وقد كان الإمبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل إليه كثيراً.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أشرتُ في ختام الفصل السابق إلى ما ذكرته المؤلفة الإنجليزية بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية من أن آريوس كان داعية قوياً إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله، وتستمر قائمة في بيان أسباب انعقاد مؤتمر نيقية: ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب أسقف نيكومديا آ إلى فلسطين؛ حيث سمح له يوسيبوس أسقف قيصرية وأساقفة آخرون بأن يعقد جمعيات دينية في أبروشيات مختلفة ليعظ فيها، ثم تشير المؤلفة في ص ٢٠٤ و ٢٠٥ إلى انتشار دعوة آريوس، وأن الإمبراطور أرسل مكتوباً إلى البطريك اسكندر وآريوس معاً لمحاولة إيقاف النزاع، وأنه لم يفلح في إيقاف هذا الشقاق عند حده، فأصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الأساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المُشكّل ويبتوا فيه حكماً قاطعاً بكل صراحة وإمعان، وبناءً على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥م، وفيه كُتب أول نسخة من قانون الإيمان النيقاوي.

ثم تقول في ص ٢٠٧: وقد يظن البعض أن شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد، والحقيقة أنه بدأ يستفحل، ثم تقول في ص ٢١٥: أما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي؛ ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية. ١. هـ. ويقول المعلق على هذا الكتاب وهو تادرس شنودة في هامش قرارات مؤتمر نيقية: جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي أنه قرر أن يصلي النصارى قائمين بدل ما كانوا يصلون راكعين. ١. هـ.

هذا وقد كانت كنيسة الإسكندرية قائمة على قدم وساق للقضاء على آريوس ومذهبه، وزعم البطريك بطرس أن المسيح لعن آريوس، وأنه يحذرهم منه، وقال

بطرس: إني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت له: يا سيدي! من شق ثوبك؟ فقال لي: آريوس، فاحذروا أن تدخلوه معكم.

هذا وقد ساق سعيد بن البطريق الطيب النصراني المؤرخ الشهير وكان من أهل فسطاط مصر ومولده في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٦٣هـ، وعُيِّن بطريك للإسكندرية في ٨ من صفر سنة ٣٢١هـ، وتوفي في رجب سنة ٣٢٨هـ، ساق ابن البطريق هذا في تاريخه في وصف المجتمعين في مؤتمر نيقية وعددهم ومذاهبهم، يقول ابن البطريق: بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطارقة والأساقفة واجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفاً من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلّت فيه بالمحبة والمشية، ولذلك سمى ابن الله. ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، «يعني شاول اليهودي». وهكذا أورد ابن البطريق صورة واضحة لعدد ومذاهب المجتمعين في مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م لتقرير الديانة النصرانية. وقد نصر المذهب الأخير وهو القول بألوهية المسيح الذي كان ابتدعه شاول (بولس) ثمانية عشر وثلاث مئة أسقف، وخالفهم ثلاثون وسبع مئة وألف أسقف، والعجيب الغريب أن الإمبراطور قسطنطين لم يلتفت إلا لقول القائلين بألوهية المسيح، وعقد مجلساً خاصاً لأصحاب هذا الرأي يصفه ابن البطريق إذ

يقول: وضع الملك للثلاث مئة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيه فدفعه إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به. ١. هـ.

ومن هذا التاريخ حُرمت مخالفة هذا المذهب وحورب مخالفوه وحُرِّم العمل بأي إنجيل عدا الأناجيل الأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا.

وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى هذه المذاهب النصرانية المنحرفة عن دين المسيح ﷺ حيث يقول وَجَّك فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٨].

ويقول وَجَّك فِي سُورَةِ الزَّخْرَفِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَآيَاتٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٥].

على أن اليهود والنصارى مع إقرارهم في كتبهم بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الإله الواحد الحق فإن اليهود عبدوا العزيز واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، وعبد النصارى المسيح واعتقدوه إلهاً وابن إله كما اتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله.

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ
 قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
 وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
 إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ
 اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[التوبة: ٢٩ - ٣٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله ﷻ في كتابه الكريم عن اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن اليهود والنصارى كانوا إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً، مشيراً إلى أن ذلك أوصلهم إلى عبادة غير الله، ولذلك حذر المسلمين من مثل عمل هؤلاء اليهود والنصارى، وحرّم اتخاذ المساجد على القبور، ولم تشغله سكرات الموت ﷻ عن التحذير من هذا العمل غير الصالح؛ فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالوا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله»، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم

مساجد»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنني أخشى أن يتخذ مسجداً. وفي لفظ مسلم: فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. كما روى مسلم في صحيحه من حديث جُنْدَب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كانت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

وقد شنع الله تبارك وتعالى على من اعتقد أن الله ولدًا وبشع مقالتهم وسفه عقيدتهم، وأقام الأدلة القاطعة على بطلان مذهبهم وفساد مقولتهم في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وأنه تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]، وأن جميع من زعم أنه ابن الله هو عبدٌ من عباده، والعبد لا يكون ولدًا لسيده وخالقه ورازقه وإلهه، وأن ادعاء أن الله ولدًا قول فظيع ومنكر شنيع تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الأرض وتخر الجبال هدأً.

وأشار تبارك وتعالى إلى سخافة عقول بعض مشركي العرب إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولما سئلوا: من أمهات الملائكة؟ فقالوا: سروات الجن، أي شريفات الجن، مع أن الواحد من هؤلاء كان إذا أنجب بنتاً اسودَّ وجهه وصار كظيماً يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فكيف ينسبون البنت إلى الله وهم لا يفرحون بها إذا ولدوها، وهذا من أقبح أخلاقهم وأسوأ معتقداتهم، وقد جعلوا بهذا المعتقد الفاسد بين الجنة وبين الله نسباً، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، أي لو كانوا أنساب الله ما عذبهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وفي ذلك كله يقول الله ﻻ ﻳﻠﻪ ﺇﻟﻪ ﻩﻟﻪ في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

ويقول في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩].

ويقول ﴿عَلَّ﴾ في ختام سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

ويقول في مطلع سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١ - ٥].

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ «يعني منكرًا فظيعًا» ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَرَّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَايَ الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

ويقول في مطلع سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤].

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

[الجن: ٣].

ويقول في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ

يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

ويقول في سورة الصافات: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ

خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ

وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكِنْيَتِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ

عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

قد أشرت في الفصل السابق إلى ما قص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مما يثبت سخافة عقول من يتخذ لله ولداً، وقد سقت جملة كبيرة من هذه الآيات المنددة بفساد تصور هؤلاء، وأنهم قد انحدروا إلى الدرك الأسفل في التصور، وقد أشار الله تبارك وتعالى كذلك إلى أن من زعم أن الله ولداً فقد اتخذ الله شريكاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه عن الشريك والند والنظير والولد والصاحبة .

وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُمْ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَتِ بَغْيِرَ عِلْمٍ﴾ (أي اختلقوا له أولاداً وبنات بغير بينة ولا برهان) ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) ﴿بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ اَنۢىۤ يَكُوۡنُ لَهُۥ وَلَدٌۭ وَلَمۡ تَكُنۡ لَّهُۥ صٰحِجَةً ۗ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْۡءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْۡءٍ عَلِيۡمٌ﴾ (١٠١) ﴿ذٰلِكُمۡ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ ۗ خَلَقَ كُلَّ شَيْۡءٍ فَاَعْبُدُوۡهُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْۡءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْاَبۡصٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْاَبۡصٰرَ وَهُوَ اللّٰطِيفُ الْخَبِيۡرُ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٣].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَنۡخَدُوا۟ اِلَٰهِيۡنِ اِنَّمَآ هُوَ اِلٰهُ وَّحِدٌۭ فَاِتٰى فَاَرۡهَبُوۡنَ﴾ (٥١) ﴿وَلَهُۥ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَهُ الدِّىۡنُ وَاٰصِبًاۗۙ اَفَعِیۡرَ اللّٰهُ نَنۡفُوۡنَ﴾ (٥٢) ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنۡ نِّعۡمَةٍۢ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ اِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّۙ فَاِلَیۡهِ تَجۡثُرُوۡنَ﴾ (٥٣) ﴿ثُمَّ اِذَا كُشِفَ الضَّرُّۙ عَنْكُمۡ اِذَا فَرِیۡقٌ مِّنۡكُمْ بِرِیۡبِهِمۡ یُشۡرِكُوۡنَ﴾ (٥٤) ﴿لِیَكۡفُرُوۡۤا بِمَاۤ ءٰتٰیٰنَهُمۡۗ فَمَتَّعُوۡۤا فَسَوۡۤفَ تَعۡلَمُوۡنَ﴾ (٥٥) ﴿وَجَعَلُوۡنَ لِمَا لَا یَعۡلَمُوۡنَ نَصِیۡبًا مِّمَّا رَزَقۡنَهُمۡۗ تَاللّٰهِ لَشَیۡۡءٍ عَمَّا كَتَبۡتُمۡ تَفۡتَرُوۡنَ﴾ (٥٦) ﴿وَجَعَلُوۡنَ لِلّٰهِ الْبَنٰتِ سُبۡحٰنَةًۭۙ وَلَهُمۡ مَا یَشۡتَهُوۡنَ﴾ (٥٧) ﴿وَاِذَا بُشِّرَ اَحَدُهُمۡ بِالْاُنۡثٰى ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسَوۡۤدًا وَهُوَ كٰظِمٌۭ﴾ (٥٨) ﴿یَنۡوَرِیۡ مِنَ الْقَوۡمِ مِنْ سُوۡۤءِ مَا بُشِّرَ بِهٖۙ اَیۡمِسۡكُمۡ عَلٰى هُوۡنٍ﴾ (أي على ذلة ومهانة) ﴿اَمۡرٌۭ یُّدۡسُهُۥ فِى الرَّاۡبِۙ اِلَّا سَآءَ مَا یَحۡكُمُوۡنَ﴾ (٥٩) ﴿لِلَّذِیۡنَ لَا یُؤۡمِنُوۡنَ بِالْاٰخِرَةِ مَثَلُ السَّوۡۤءِ وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ

الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٧﴾ [النحل: ٥١ - ٦٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَسْتَوْفُوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكذِّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيَسْتَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ [الزخرف: ١٥ - ١٩].

ويقول تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي أن من ادعى أن الله ولداً فقد سبَّ الله وشتمه، وبأويل من سبَّ الله وشتمه، وأنه لولا حلم الله لعاجلهم بالعقوبة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يقول الله: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذَّبني وما ينبغي له، أما شتمه فقلوه: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقلوه: ليس يعيدني كما بداني»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً». كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيه ويرزقهم». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نِداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم».

ومع هذه الأدلة الكثيرة الصريحة المحكمة في كتاب الله تعالى مكية ومدنية، وفي أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة بأن الله تعالى منزه عن الولد والصاحبة، فإن نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله، حاملين لها على غير ما أُريد بها، بسبب زيغ في قلوبهم ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله، فرعموا أن في القرآن دليلاً على أن عيسى ابن الله في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. إذ حملوا لفظ (من) في هذه الآية على التبويض، فيكون عيسى بعضاً من الله وجزءاً منه، وتجاهلوا أن «من» في هذا المقام لا يُراد بها التبويض. وإنما يُراد بها ابتداء الغاية، أي أن عيسى روح من الأرواح التي ابتداءً الله خلقها، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبد الله وخلق من خلقه، والعبد لا يكون ولداً، وأن الله ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ [الإخلاص: ٣ - ٤].

ولا شك أن العرب يستعملون كلمة «من» في معانٍ كثيرة: منها ابتداء الغاية كهذه، ومنها بيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ومن معانيها التبويض كقولك: أكلت من هذا الرغيف، أي أكلتُ بعضه، إلى معانٍ كثيرة، فنصارى نجران تركوا المعنى الظاهر المتبادر المحكم ولجؤوا إلى المعنى غير المُراد، مستغلين تشابه اللفظ، وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمران إلى الآية الرابعة والثمانين منها ردّاً فيها باطلهم وأدحض شبهتهم، وبيّن أنهم بسبب زيغ قلوبهم يتبعون ما تشابه من القرآن ويتعامون عن المُحكّم الصريح الجلي المثبت أن الله لم يتخذ ولداً، إذ إن الله تبارك وتعالى جعل من القرآن محكماً وجعل منه متشابهاً، والمحكّم الواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصة، وأما المتشابه فهو اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى كلفظ (من) في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فأما أهل الإيمان فيردون متشابهه إلى مُحكّمه، ويحملون معنى (من) هنا على ما أُريد منها، وهو ابتداء الغاية، وأما الذين في قلوبهم زيغ

فيحملونه على المعنى غير المراد، ﴿وَالرَّاسِحُونَ فِي الْعَالَمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فكلامه لا يتناقض ولا يتضارب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد ذكر الله تبارك في هذا المقام من سورة آل عمران أدلة جليّة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وأنه أنزل على محمد ﷺ القرآن بالحق، كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى هدى للناس، ﴿مِن قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [٤] إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٤ - ٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

بعد أن قرر الله تبارك وتعالى في صدر سورة آل عمران أنه رب كل شيء وأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقرر رسالة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهو يقتضي أن عيسى عبد من عبيد الله ورسول من رسله ليس إلهاً ولا ابن إله حيث يقول عجل:

﴿الْم - ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

[آل عمران: ١ - ٦].

شرع في إبطال شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم من الذين يتركون المحكم الجلي الواضح القطعي الدلالة الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً، ويستدلون بالألفاظ المتشابهة المحتملة لمعانٍ كثيرة، ويتعلقون ببعض المعاني غير المرادة منها، مع أن هذه المعاني المتشابهة لا يمتاز بعضها عن بعض في الأصل لو كانت هذه الألفاظ مفردة غير واردة في سياق الكلام؛ لأنها إذا كانت واردة في سياق كلام فإن هذا السياق يحدد المراد منها، وهذا أمر معروف في معاني الحروف، لكن الذي في قلبه زيغ وميل عن الحق إلى الباطل يتتبع المتشابهات ويترك الواضحات الجليات، وفي ذلك يقول الله عجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (أي هن الأصول والقواعد التي يرجع إليها عند الاختلاف والاشتباه لقطعية دلالتها، وعدم احتمالها إلا لمعنى واحد)، ﴿وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] (أي تحتمل أكثر من معنى ابتلاء واختباراً، وإن كان

سياق الكلام يحدد المراد منها) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] (أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والاستقامة إلى الأهواء الباطلة، المنحرفون عن سنن الرشاد، المصرون على الشر والفساد والعناد، فإنهم لا يتعلقون بالمحكمات الجليات وإنما يتعمدون الألفاظ المشتبهات لا تحرياً للحق بل لطلب فتنة الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبس والتأويل الباطل حسبما يشتهون من التأويلات الفاسدة، والآراء الزائغة، وهم ليسوا أهلاً لتأويل كتاب الله، فتأويله يعلمه الله ﷻ ومن وفقه من عباده الراسخين في العلم الذين ثبتوا على الحق وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا عن الهدى، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ؕ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي والثابتون على الحق المستقرون على العلم والهدى، يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه، ويردون متشابهه إلى محكمه ويقولون: المحكم والمتشابه من القرآن كله من عند الله منزل بالحق لا يتناقض ولا يتعارض ولا يتضارب ولا يتضاد ولا يختلف)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وعندما لم يسارع نصارى نجران إلى الإيمان بالحق والتصديق بأن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم، بعد أن بين لهم أن ﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكما أن الله خلق آدم من غير أب ولا أم بل من تراب فقد خلق عيسى من غير أب للدلالة على أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴿٦١﴾ (أي نتضرع في الدعاء) ﴿فَنَجْعَلِ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقِصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ

يَتَأَهَّلُ الْكِنْدِبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةِ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٥٩ - ٦٤﴾.

وعندما طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ، وأيقنوا أن ما جاء به هو الحق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرِيدَانِ أَنْ يَلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنْنَا لَا نَفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبْنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نَعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ»، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ». وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: ابْعَثْ لَنَا رَجُلًا أَمِينًا، فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ» فَاسْتَشْرَفَ لَهُ النَّاسُ، فَبْعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ». قَالَ: فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، قَالَ: فَبْعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدَمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُنَا السَّنَةَ وَالْإِسْلَامَ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ».

هذا وقوله تعالى لعيسى ﷺ: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] يفيد أن الله تبارك وتعالى قضى أن من آمن بعيسى ﷺ وصدقه وأقر أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه يُعزّه الله تعالى ويرفع منزلته فوق كل كافر في الحياة الدنيا، فما بالك بما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وكقوله

تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وكقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتًا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْحَبُوا ظَهْرِيْنَ﴾ [الصف: ١٤].

ولا شك أنه بعد إرسال محمد ﷺ فقد نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة، ولا يقبل من أحد إلا أن يتبع محمداً ﷺ، كما أثر في الحديث القدسي: «وعزتي وجلالي لو جاؤوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك» كما ذكره ابن القيم.

ولا شك أن الإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بعيسى وجميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، على حد قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وكقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى قوله تعالى لعيسى ﷺ: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وسقت نظائرها من كتاب الله تعالى، ولا يتنافى ذلك مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يهزموا في حرب، أو أن يمسه قرح، فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي عباده المؤمنين لِيَمَحِّصَ ﴿اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقُ الْكُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فإن المؤمن عزيز بالله في حالة النصر وفي حالة الهزيمة؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يفرحون إذا نالوا من عدوهم. ولا يجزعون إن نال منهم عدوهم، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته بانت سعاد وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
وكقول حسان رضي الله عنه:

نسّموا إذا الحرب نالتنا مخرابها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهمو وإن أصيبوا فلا خور ولا هُلُع
كأنهم في الوغى والموت مكتنِع أسدٌ بحلية في أرساغها فدَع
وقوله: والموت مكتنِع أي قريب مشاهد، فإنهم لا يهابون أسباب المنيا، ولم يعرف أن واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ قتل وهو مدبر؛ ولذلك يقول كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهمو وما لهم عن حياض الموت تهليل
وقوله: وما لهم عن حياض الموت تهليل أي لا يفرون من موارد الهلاك وساحات القتال ولا يتأخرون عنها، ونصر الله لعباده المؤمنين وإعزازه لهم حاصل على كل حال.

ولنضرب لذلك مثلاً من قصة أصحاب الرجيع رضي الله عنهم، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَانَ ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان؛ فتبعوهم بقريب من مئة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدغد «أي رابية مشرفة»، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر؛ فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها «أي ليستطيب بها ويزيل شعر عانته» فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت فزعةً عرف ذلك مني، وفي يده موسى، فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيت يأكُل من قطف عنب، وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصل ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أَحْصِهِمْ عدداً، ثم قال:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي شقِّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلِّو ممزَع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدّبر «أي مثل السحابة من الزنابير أو ذكور النحل لحمايته من أن يمثلوا بشيء من جسده» فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء.

وقد زعم بعض الناس أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] أن المراد من الذين اتبعوه هم النصارى والذين كفروا هم اليهود، وهذا قول غير سديد، فإن من زعم أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة لا يكون من أتباع عيسى ﷺ، بل يكون من أعدائه، فمن أفرط في عيسى من النصارى كمن فرط فيه من اليهود، فكلهم أعداء الله، وأعداء المرسلين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ المسلمين أن يغلوا في رسول الله ﷺ كما غلت النصارى في المسيح ابن مريم. فقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُطْرُونِي كما أُطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله».

وبين رسول الله ﷺ أن الجنة لا يدخلها أحد ممن جاء بعد عيسى ﷺ إلا إذا أقر بأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

وقد حكم الله تعالى وقضى أن من ادّعى أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر مشرك يُحرّم الله عليه الجنة، حيث يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَائِيلَ ۖ اعبُدوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تعالى حكم بكفر من ادعى أن المسيح ابن الله، أو أنه الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وسقت صريح القرآن الكريم في ذلك، وقد بين الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مشهداً من مشاهد الحق يسأل فيه عيسى ابن مريم للتنديد بمن عبده وأمه مع الله وَجَلَّ، حيث يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109].

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّقٍ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 116 - 118].

وليس في قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118] ما يفهم أنه من مات على الشرك قد يغفر له؛ لأن الكلام منصب على جملة من جاءهم عيسى عليه السلام، وفيهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله، ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه، إذ زعم أنه إله أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله وَجَلَّ به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأنه يشهد لمن أجابه مدة حياته بينهم، ويشهد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم. وكان الله وحده هو الرقيب عليهم، لا يعلم عيسى من أمرهم شيئاً سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سواء السبيل، فَمَرَدُّ الجميع إلى الله

يعذب من يشاء من العصاة عدلاً، ويثيب ويغفر لمن يشاء فضلاً؛ لأن الجميع عباده وهو العزيز الحكيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّلَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي وبكى» فقال الله وَجَلَّ: «يا جبريل! اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله: ما يبكيك؟» فأناه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال، وهو أعلم، فقال الله: «يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك».

ولا شك أنه بقي إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يعرف من النصراري أن عيسى عبد الله ورسوله بسبب امتداد دعوة آريوس ومن تبعه، ولذلك لما قرأ جعفر بن أبي طالب على النجاشي ملك الحبشة بعض سورة مريم مما اشتمل على قصة ولادة المسيح وكلامه في المهد بأنه عبد الله آناه الكتاب وجعله نبياً بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وصرح بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في توحيد الله يخرج هو والذي جاء به عيسى من مشكاة واحدة.

فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي، أمناً على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن

يكلّمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارفته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي قبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارفته حوله: صدقاً أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلا بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لآها الله إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنّت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كما في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل، قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم. وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة، والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي فاقرأه عليّ فقرأ عليه صدراً من سورة مريم.

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون... إلخ الحديث.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أنه قد بقي إلى زمان رسول الله ﷺ من كان من النصرارى يعرف الدين الحق، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وذكرت قصة النجاشي ملك الحبشة مع المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وﷺ، وأن النجاشي عندما سمع صدر سورة مريم من جعفر بن أبي طالب ﷺ بكى حتى اخضلت لحيته، وبكى من معه من القسيسين والرهبان حتى أخضلوا مصاحفهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى بكاء بعض القسيسين والرهبان عندما سمعوا القرآن، وذكر أن هؤلاء الذين عرفوا الحق هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ إِنَّكَ بَانَ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

ويقول في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْآذِقَانِ سَجْدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجِرُونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكَوْنَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ويقول في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَكَعُوا لِالْعَوِّ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ يؤتبه الله أجره، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» .

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] ليس ثناء على كل قسيس أو راهب وليس مدحاً لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيساً أو راهباً، ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، وأنه دين الإسلام، وأن من ﴿يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فسارع إلى الدخول في الإسلام واستمسك بشراعه؛ ولذلك لا يوصف أحد من هؤلاء بعد الدخول في الإسلام بأنه قسيس أو راهب، كما لا يوصف اليهودي أو النصراني إذا دخل في الإسلام بأنه يهودي أو نصراني .

والقسيس والقس والقس هو رئيس النصارى في العلم والدين، وأصله في اللغة تتبع الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتبعن النمائ:

يُضْبِحْنَ عَنِ قَسِّ الْأَذَى غَوَافِلًا

ويقال تَقَسَّتْ أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب، وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهّب وشدّدوا على أنفسهم فيه على حد قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي لم نرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهاداً منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وانبت فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير؛ ولذلك لما بلغه أن بعض أصحابه تأثروا من

خطبة لرسول الله ﷺ فاجتمعوا في بيت بعض الصحابة وعزموا أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ولا يمسوا الطيب فنهاهم عن ذلك أشد النهي.

وكذلك قصة الثلاثة الرهط الذين أتوا بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا أئن نحن من رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

هذا وقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذم اليهود والنصارى وبيّن أن قلوبهم مليئة بحقد بعضهم على بعض، وأن كل طائفة منهم ترمي الأخرى بأنها ليست على شيء، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً وليس معهم برهان سوى الأمنيات الكاذبة.

ويقول ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

ويقول ﷻ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْمُهْدَىٰ وَلَئِنْ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ويقول ﷻ: ﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ

كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَاتِنْتُمْ هَتُّوْلَاءَ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

هذا ولما نزل قوله تعالى في مشركي مكة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُّوْلَاءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠]. قالوا: إذا نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى ابن مريم في النار؛ لأن عيسى عبد من دون الله، وهم يجهلون أن من عبد من غير الله وهو لم يدع الناس إلى عبادته ولا هو راض أن يُعبد من دون الله فإنه لا يضره ذلك، فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعَالِمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَتَّرُكَ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦٥]، سلام على عيسى في المرسلين ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٢].

وبهذا ينتهي كتاب قصص الأنبياء، وقد تم الفراغ منه في ضحى الخميس الموافق

لرابع من ربيع الأول لعام ١٤٠٧ من هجرة سيد المرسلين ﷺ

بمنزلنا بمدينة الرياض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	٠ مقدمة الكتاب
٧	٠ الفصل الأول
١٣	٠ الفصل الثاني
١٩	٠ الفصل الثالث
٢٤	٠ الفصل الرابع : حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين
٢٨	٠ آدم ؑ
٤٧	٠ نوح ؑ
٧٤	٠ قصة هود ؑ
٨٢	٠ قصة صالح ؑ
٨٩	٠ إبراهيم ؑ
١١١	٠ لوط ؑ
١١٩	٠ إسماعيل ؑ
١٢٣	٠ إسحاق بن إبراهيم ؑ
١٢٧	٠ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؑ
١٣١	٠ يوسف الصديق ؑ
١٦٠	٠ شعيب ؑ
١٦٨	٠ أيوب ؑ
١٧٢	٠ إدريس وإلياس ؑ
١٧٦	٠ يونس بن متى ؑ
١٨٧	٠ اليسع وذو الكفل ؑ
١٩١	٠ موسى ؑ
٢٥٢	٠ داود وسليمان ؑ
٢٧٩	٠ زكريا ويحيى ؑ
٢٨٣	٠ المسيح ابن مريم ؑ

